



سيرة شجاع

مطبوعات بکینہ لہور

سیرۃ شجاع

تالیف

علی احمد باکشیر

المنار

مکتبہ مصیّر
۳ شارع کاملہ مدنی - الجمالہ

الإهداء

إليك يا جمال .
وإلى رفاقك الأبطال .
وإلى هذا الجيل الذى شهد هذا البعث الجديد .
الذى أجراه الله على أيديكم .
فأيقظ مصر بعد سبات وأحيائها بعد موات .
ودفع بها فى سبيل القوة والعظمة والمجد .
ثم سرت روحه إلى سائر الغرب فى مختلف أقطارهم .
فأهابت بهم أن حىّ على القوة والعظمة والمجد .
أهدى هذه القصة التى استقيت حوادثها وحقائقها من مسطور تاريخنا
العظيم الحافل . واستوحيت معانيها ومغازيها من مشهود هذه الثورة
العظيمة الخلاقة .
فالتقى فيها الماضى المجيد بالحاضر المجيد .
 واجتمعت بطولات الأمس و بطولات اليوم فى صعيد .
وسقط ما بين ذلك من عهود الظلم والفساد والذل والاستعباد
فكأنها لم تكن إلا عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن أدكر .
ولك بعد - إن شاء الله - الغد الأجد يا جمال ولرفاقك الأبطال ولهذا
البلد الخالد وشعبه الناهض .
وللأمة العربية جمعاء .

المؤلف

السفر الأول

١

هذه هي الليلة الثالثة منذ نشبت المعركة بين الوزيرين المتنافسين على كرسي الحكم : شاور وضرغام ، أو بالحرى منذ بدا لضرغام ابن سوار اللخمى صاحب الباب ورئيس الحرس الخاص لقصر الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله . فثار على الوزير شاور بن مجير السعدى ليزحزحه عن كرسي الحكم وينصب نفسه وزيراً مكانه .

وكان الجيش جيش الدولة . قد انقسم فريقين ، يكادان يكونان متعادلين من حيث القوة والعدد . أحدهما يذهب عن الوزير العتيد ، والآخر يناصر المغامر الجديد ، ولكن الجولة الأولى التى كسبها ضرغام بفضل المباغثة التى أذهلت خصمه ، كانت كافية فى تقرير مصير المعركة ، إذ أدرك الجميع حينئذ أن الذى يؤيده صاحب العرش من وراء الستار هو الذى سينتصر فى هذه المرة أيضاً ، كما كان ينتصر دائماً فيما سلف . فأخذت كفة ضرغام ترجح ، وأخذ أنصاره يكثرون بمن

ينحازون إليه ممن كانوا مع شاور ، فلما يئسوا من انتصاره انفضوا عنه وصاروا مع خصمه إلباً عليه .

ولم يكن ذلك بدعا من جند مصر فى تلك الحقبة من تاريخها . فهكذا كان ديدنهم ينقسمون ما ينقسمون حين يبرز إلى الميدان طامع جديد فى الحكم قد يدال له وقد يدال عليه ، حتى إذا ماتبين لهم الخيط الفاصل بين الغالب والمغلوب . انضم بعضهم إلى بعض فاتحدوا جميعا لتأييد من يحكم البلاد غداً على من يحكمها اليوم .

ويجىء دور صاحب القصر عقب ذلك ، فينعم بالوزارة على هذا المنتصر ويعلن رضاه عنه ، وسخطه على المنهزم ولو إلى حين .

أما عامة الناس من أهل هذا البلد الأمين وأبنائه الطيبين فقد صار قصارهم إذ ذاك أن يتفرجوا من قريب أو من بعيد على هذه الفصول التى تمثل على مسرح بلادهم . فيضحكوا إذا شهدوا ما يضحكهم ، ويبكون إذا شهدوا ما يبكيهم ، ويحمدوا الله على كل حال إذا انحصر الصراع فى اللاعبين على المسرح ، دون أن يتعداهم إلى المتفرجين ، أو إذا أصابهم منه أذى قليل .

حتى إذا رجعوا إلى نفوسهم بعد ما يسندل الستار على المأساة أو الملهة وبدأوا يفقهون ما تبطوى عليه من العبرة . ويدركون أنهم هم الذين يمثل بهم ويعبث بمصالحهم . وأنهم فى النهاية هم الخاسرون ، امتلأت نفوسهم حينئذ بالأسى الدفين ، فلا يجدون متنفسا عنها غير النكات اللاذعة يرسلونها على هذا الطاغية أو ذاك . فلا يجد الطاغية من سبيل عليهم لأنها كالرسائل الأغفال تدور مفتوحة فى كل مكان بحيث يراها كل ذى عين ويسمعها كل ذى أذن .

كانت القاهرة بميادينها وأحيائها وشوارعها ودروبها وأبوابها من الجهات الأربع والحصون القائمة عليها مجال هذا العراك الدامى بين هذين المتنازعين على الحكم طوال هذه الأيام الثلاثة . فتعطلت فى خلالها الأسواق وأغلقت المتاجر والخوانيت وأقفرت الشوارع من المارة . إذ لزم الناس بيوتهم خشية أن يضييهم الأذى من جراء تطاحن الجنود وتعاركهم عن قصد أو غير قصد . وخوفا من بعض الأشرار الذين ينتهزون فرصة اختلال الأمن فيسطون وينهبون دون أن يلحقهم عقاب أو حساب .

وكذلك كانت الحال فى مدينة الفسطاط أيضا وإن كانت بمعزل عن معترك الجنود ، إذ لم تمتد إليها ساحة القتال فى هذه المرة بعد ، فقد لزم معظم أهلها بيوتهم أيضا ، ولا سيما فى الليل ، لأن حبل الأمن يضطرب فيها باضطراب حبله فى العاصمة ، وإن كان المحتسبون من أهلها ، وهم المتطوعون حسبة لله تعالى ، يجولون بأسلحتهم فى الطرقات ليلا ونهارا ، ويدورون على البيوت والمتاجر يحفظون الأمن ويصونون النظام .

والجميع يتسقطون أنباء المعركة الدائرة رحاها فى تطلع واهتمام . ويترقبون متى تنجلي هذه الغمة عنهم فيعودون إلى معتاد حياتهم ومزاولة أعمالهم فى سكينة وأمن ، وقلما يعنيه بعد ذلك أى المتنازعين ينتصر ، وأيها ينهزم . نعم إنهم - أهل الفسطاط جميعا ، وبعض أهل

القاهرة - يتشيعون فى العادة للجانب الذى لا يؤيده صاحب العرش على الجانب الذى يلقى منه التأييد ، وهم لذلك يتمنون اليوم فى أعماق نفوسهم أن ينتصر شاور على ضرغام . ولكن الأيام قد علمتهم أن يقتصدوا فى تشيعهم لهذا وتعصبهم على ذاك . عسى أن يخلف هذا ظنهم فيكون شراً عليهم إذا ولى الحكم من ذاك .

على أن ذلك لم يحل دون قلق الناس كلما اقتربت المعركة من نهايتها ، إذ كان هواهم فى الجملة مع شاور ، وقد استخلصوا من الأنباء المتضاربة أن الرجاء فى انتصاره قد انقطع أو كاد . وبلغ هذا القلق أوجه فى ليلة هذا اليوم الثالث من أيام المعركة ، فقد بات كثير من الناس ساهرين حتى آخر الليل يتوقعون فى كل لحظة أن يسمعوا النتيجة الحاسمة بعد ماترامت إليهم الأخبار المتضاربة عن مصرع شاور أو فراره من القاهرة . ولكنها جميعاً تؤكد أن أتباعه قد أسلموه أجمع وانفضوا عنه . وأن أبناء الثلاثة قد وقعوا فى قبضة ضرغام . فقتلهم أو حبسهم ، ولكن من يدري بعد ؟ لعل النتيجة الحاسمة تنقض كل ما سمعوه وتأتى بخلاف ما يتوقعون .

وطال بهم الانتظار وقد أرهقهم السهر وأغراهم برد الشتاء بالاضطجاع والتدثر . فلما وجدوا لذة الدفء تسيل للناس إلى عيونهم ، فلم يستطع أن يغالب النوم منهم إلا القليل .

وخيم السكون على مدينة الفسطاط بعد مانام أهلها فى بيوتهم ،
واطمأن المحتسبون على سلامة المدينة وأمنها حين انسلخ الشطر الأكبر
من الليل وأوشك الفجر أن ينبلج فأوروا أيضا إلى مضاجعهم ليأخذوا
قسطهم من النوم فيستعينوا على سهر الليلة القادمة .

وساد الظلام ، إذ انطفأت المصابيح والقناديل ، فما بقى مضيئا إلا
قنديل واحد فى حجرة واحدة من بيت واحد فى حى واحد . أما الحى
فهو الليث بن سعد على غلوة سهم من الجامع العتيق ، جامع عمرو ،
وأما البيت فبيت أبى الفضل الحريرى من كبار تجار الحرير فى الفسطاط
والقاهرة ، وأما الحجرة فلايتة الوحيدة بسمية البالغة من العمر ستة عشر
ريعا ، وهى مستلقية على فراشها لوعكة أصابتها منذ أيام ، وقد
جلست أمها أم الفضل على أريكة صغيرة مجاورة لسرير العليلة . وعليها
عباءة ثقيلة من الوبر تتدثر بها من البرد ، وتحت قدميها فوق البساط
المفروش على الحصير ، جلست جاريتها السوداء مُسيكة لتقوم على
خدمة سيدتها إذا احتاجت إلى شىء : وهى تنظر فى حنان بالغ إلى
سيدتها الصغيرة التى تحبها حبا جما . وترنو من خلال الضوء الخافت
للقنديل المتدلى من سقف الحجرة إلى وجه دقيق الملامح مليح القسمات ،
قد استطاعت العلة أن تنقص من نضارته وتورده . ولكنها لم تستطع أن
تغض من حسنه وفتنته إذ كسته شحوبا زاده جمالا وروعة ، وتهدل

شعرها الذهبى المغدون صوب كنفها فجعل يتموج على جبينها من الجانبين كأنه يحاول جاهدا أن يضرم وجنتيها بتلهبه ليعيد إليهما ما سلبت العلة من توردتهما الحبيب .

وتحركت العليلة الحسنة فى فراشها كأنها تريد أن تنهض أو تستوى جالسة ، فنهضت الجارية لتساعدنها ، وتحركت أمها أيضا لتعينها . فما أمهلتها سمية أن رفعت الغطاء عن صدرها بقوة . فجلست ثم جذبت الوسادة التى كانت تحت رأسها فنصبتها لتكئ عليها وهى تقول :

- استريحى .. أنا قادرة أن أجلس وحدى ...

- هل تريدن شيئا يا سمية ؟

- نعم .. لو تأوين يا أماه إلى فراشك فتنامى قليلا وتسترخى ...

- أنى يأتينى النوم يا بنتى ونحن فى هذا الحال ؟

- إن كان من أجلنى فإننى الليلة بخير ..

- ومن أجل أبيك الذى لم يعد من القاهرة منذ يومين ..

- لا تقلقى يا سيدتى فسيعود سيدى غدا فى الصباح ..

- أجل يا أماه .. لعله رأى من الحكمة ألا يعرض نفسه لأخطار

الطريق فبقى عند أخى الفضل فى بيته ..

- ما كان ينبغي أن يذهب ألبته إلى القاهرة والحرب فيها قائمة ..

- أراد أن يطمئن على متجره هناك وعلى الفضل ...

- بل أراد أن يطمئن على شىء آخر .. أنا لا يعجبنى هذا العمل منه

يا سمية وأخشى أن يناله منه شر ...

- كلا يا أماه . لاخوف على أبى من ذلك .. فالناس يعلمون أن

ليس بينه وبين عمى شاور إلا صلة الصهارة ولا شىء غير ذلك ..

وهنا تذكرت أم الفضل شقيقتها زبيدة زوجة شاور ، فانسيت تقول : « ترى ما حال أختى زبيدة الآن ؟ لا بد أنها فى ذعر وقلق ! »

قالت ذلك ثم وجمت كأنما ندمت على أن نددت من لسانها هذه الكلمة . ولا سيما إذ نظرت إلى وجه ابنتها فرأته قد أريد وجللته غاشية من الحزن واللوعة ، ثم أخذت عيناها تيرقان بالدمع ، وهى ترم شفتيها متجلدة تحاول أن تغلب البكاء ولكن اللوعة كانت أقوى منها ، فانهمر الدمع من عينيها وارتمت على فراشها تنشج وتنحب ولم تستطع أم الفضل أن تجلس لوعتها هى كذلك . فارتمت بجانب ابنتها تشاطرها البكاء والنشيج .

أما الجارية الوفية المخلصة فقد حارت لا تدري كيف تواسى سيدتيها وكيف تسرى عنهما ، ولكنها لم تعجب لما حدث ، فهى تعرف السبب الذى بكنا ذلك البكاء من أجله ، بل تعرف أيضا أنه مصدر هذه العلة التى أصابت سمية فالزمتها الفراش .

إنه القلق على حبيبيها وخطيبيها وابن خالتها شجاع بن شاور !!

٤

ولم تكن أم الفضل تعلم حين أرسلت كلمتها تلك معربة عن قلتها على شقيقتها ، أن شقيقتها قد تركت منذ ضحي ذلك اليوم دار الوزارة التي كان يقيم فيها شاور مع أهله وانتقلت بحاشيتها وخدمها وحشمها إلى « بيت سعيد السعداء » الذي يملكه زوجها والذي كان قد نزل بأهله فيه أول مقدمه من الصعيد قبل أن يلي الوزارة بقليل .

ولا كانت تعلم أيضا أن رجال ضرغام لم يتركوها بعد ما تركت لهم دار الوزارة ، بل ظلوا يتعقبونها في بيتها الجديد ، فطرقوا بابه عليها ليلا فروّعوها وروّعوا حاشيتها ، ثم اقتحموه ، فظفّقوا يفتشونه حجرة حجرة وركنا ركنا وهم يبحثون عن شاور لعله أن يكون مختبئا فيه ، فلما لم يجدوا له أثرا ، أقبل رئيس الجماعة نحوها في وقاحة وسوء أدب فقال لها في غلظة وتهديد :

- خيرينا الآن يا هذه .. أين هرب زوجك !

فاستشاطت أم سليمان غضبا وصاحت في وجهه :

- قبح الله من أرسلك ، ألم يجد رجلا غيرك يعرف كيف يخاطب

النساء ويحترم آداب البيوت ؟

- وملك أما تعرفين من أنا ؟

- من تكون ؟

- ١٤ -

- أنا همام بن سوار أخو ضرغام الذى ألصق أنف زوجك
بالرغام !

- حقا قد نم أصلك عن سوء أدبك .. والله لئن يكون أخوك مثلك
ليكونن سبة هذا البلد إلى الأبد !

- آه لو لم تكونى امرأة !

- ماذا كنت تصنع أكثر مما صنعت ؟

- خيرينى أين اختبأ زوجك ؟

- لو كنتم تفقهون لعلمتم أن أبا سليمان لا يختبئ فى البيوت
كالنساء .

- فأين ذهب ؟

- يا لك من أريب ألمعى ! ترانى قابضة هنا فى بيتى وتسالنى أين
ذهب ، ذهب ليضرمها نارا عليكم !

- هيهات ! لنمسكنه غدا فلنصلبناه على باب القنطرة !

- إن ظفرتم بأبى سليمان فلا تستشيرونى فيه !

- فانتفض همام غضبا ، وتهدج صوته وهو يقول متشفيا :

- إذن فاعلمى يا أم سليمان أن سليمان قد ذبح .

- فانتفضت أم سليمان جزعا ثم تجلدت وقالت :

- إن يكن ما تقول حقا فلا بأس ، قد بقى لى طيء وشجاع .

- وطى أيضا قد ذبح !

- فوجمت أم سليمان هنيهة ونظرت إلى من حولها من الحاشية

فوجدتهم جميعا واحمين ، وكأنما أشفقت أن يقول لها : « وشجاع أيضا »

فصمت ولم تجب :

- ١٥ -

ولكن هماما مضى يقول : « ولولا أن ضرغام أخى قد غلبه الكرم
وهزته الأريحية لألحق شجاعا أيضا بأخويه » !

وهنا استعيرت أم سليمان إذ قطعت هذه الجملة كل شك عندها فى .
صدق ما سمعت . فلو كان يريد ترويعها بالكذب لزعم لها أيضا ذبح
شجاع . فلاذت بمنديلها تجفف به دمعها ، ثم التفتت إلى همام وقالت
له فى صوت هادئ .

- إذا رجعت إلى أخيك ضرغام فبلغه عنى السلام وقل له : تقول لك
أم شجاع جزاك الله عن ابنها خيرا !

فأطرق همام لما سمع هذه الكلمة كأنما يلوم نفسه على ما بدر منه فى
حق هذه السيدة الثكلى من الغلظة والجفاء ، ثم رفع رأسه فى حياء
وتمتم قائلا دون أن ينظر إليها :

- سأبلغه رسالتك يا أم سليمان !
قال ذلك وأومأ إلى رجاله فخرجوا خلفه ؟

٥

وأشرق فجر اليوم الرابع فهب الناس فى القاهرة وفى الفسطاط على
سماع أصوات الصائحين ، وبأيديهم الطبول يدورون فى كل حى وكل
زقاق ، وقد اختلطت أصواتهم ودقات طبولهم بأصوات المؤذنين لصلاة
الفجر ، وهم يرددون :

بيان للناس فى كل مكان .
بأمر أمير المؤمنين العاضد لدين الله .

شاور المخدوع قد عزل .
وتقلد الوزارة أبو الأشبال ضرغام .
الأمان مستتب فى كل مكان .
ادعوا لمولانا العاضد بالنصر والتأييد .
والعمر المديد السعيد !!!

وطفق أهل القاهرة يعلنون الفرح والاستبشار ، وانطلقت حناجر
النساء ترسل الزغاريد ، واستعد كثير من وجهائهم وأعيانهم للسعى إلى
دار الوزراء ليرفعوا تهنيتهم إلى الوزير الجديد ثم إلى القصر الشرقى
ليعربوا عن ولائهم وإخلاصهم للعرش والجالس عليه .
وكأى من شاعر أخذ يقدح زناد فكره ، وطفق يتصفح أبواب
المديح والتهنئة من دواوين الشعراء القدامى ، يحرك بها قريحته ، ويلتمس
الوزن الذى يروقه أو القافية التى يستحسنها لينظم قصيدته الجديدة على
المنوال الذى يرتضيه ، وهو بمنى نفسه بصلة من الخليفة أو منحة من
الوزير ، وإن كان لا يخفى جزعه من أن يكون جزاءه على مديحته الخيبة
والحرمان . فقد تغير الزمان ، وذهب الملوك والأمراء الذين يهتزون
لكريم القول ويميزون عليه ، على أن حسبه - إذا لم يجز على شعره - أن
يغيظ حساده ومنافسيه من الشعراء ، فما ينبغي أن يتفوق أحدهم عليه ،
فيذهب بفخر هذا اليوم المجيد دونه .

هب الجميع هكذا يعلنون الفرح والاستبشار لا عن حب للوزير
الجديد أو إثارة له على سلفه الذى غرب نجمه ، ولا عن ولاء للخليفة
أو إخلاص له ، ولكن بعضهم يفعلون ذلك جريا على العادة المتبعة فى
مثل هذه الأحوال من حيث لا يشعرون ، وأكثرهم يقومون بذلك

خشية أن يعرف عنهم أنهم من المعادين لصاحب العرش أو الضائقين بأسرته الحاكمة أو المناصبين لمذهبها الإسماعيلي الذى لم يستطع بعد مضى قرنين من الزمان أن يزحزح المذهب السنى الذى يتمسك به أهل البلاد عن بصيرة وإيمان .

وليس فى وسع هؤلاء الذين يقيمون بقاهرة المعز أن يجاهرُوا بكراهيتهم للعاقد وأسرته ومذهبه ، ماضين فى ذلك على سنة آباءهم وأجدادهم الذين كانوا يؤثرون السلامة بمعاملة هذه الأسرة ومداراتها أن يبطش بهم أو تتعرض مصالحهم للسوء ، ولا سيما فى عهود الأقوياء من خلفائها السالفين الذين كانوا لا يتوانون عن القضاء على من يرتابون فى إجلالهم لبينهم أو يؤنسونه ليدى أى مناهضة لمذهبهم فى السر بله العلانية .

فكان أحدهم إذا ضاق ذرعا بهذه الحال . ولم يستطع بعد صبرا عليها . انتحل عذرا من الأعذار ، يترك به القاهرة ، ويتنقل بأهله إلى القسطنطينية مآزر السنة وملاذها العتيد وحصنها المنيع حيث يستطيع أن يستروح شيئا من نسيم الحرية . وإن كان لا يأمن فيها أيضا أن تمتد إليه يد البطش والاضطهاد ، إذا لم يقصد فى إعلان عداوته للبيت الحاكم وسخطه عليه .

أما أهل القسطنطينية أو مدينة مصر - إذ كانوا يؤثرون أن يطلقوا هذا الاسم على مدينتهم ، ولهذا التسمية دلالتها كأنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن القاهرة عاصمة القطر كله . وإنما هى عاصمة هذه الدولة القائمة ، وستدول يوما ما كما دالت من قبلها دول . فأما العاصمة الباقية الثابتة على الأيام فهى مدينتهم العتيقة الجيدة التى كانت أول مدينة أسسها

الإسلام على التقوى فى هذا الوادى الأمين أول ما أشرق فى سمائه نوره .
 فخليق بها أن تكون عنوانا لهذا القطر الكريم . وأن تحمل هذا الاسم
 الحبيب الذى اختصه الله بالذكر فى محكم كتابه فزاده شرفا على شرف
 - أما أهل هذه المدينة فقد وجعوا لسماع النبأ ، ثم أخذوا يتباثون حزنهم
 وأسفهم لما وقع إذ أدركوا بيصيرتهم أن ضرغام لم ينتصر حين انتصر ،
 وإنما انتصر العاضد . فهو الذى دفع ضرغام من وراء الستار للوثوب
 على شارور حينما رأى أن شاور قد سطع نجمه وزادت قوته على الحد
 الذى ينبغى فى رأيه ألا يتجاوز له لئلا يتعرض سلطانه هو للخطر .. فهو
 يعلم كره الشعب له خاصة ولحكم أسرته عامة ، وأن هذا السخط
 يتضاعف على الأيام ولا يؤمن أن ينفجر يوما فيأتى على عرشه وعرش
 آبائه من القواعد .

فلتكن سياسته إذن أن يوازن بين القوى ويضرب بعضها ببعض فيؤيد
 اليوم هذا الزعيم ليضرب به زعيما آخر يخشى منه ثم يعود فيضرب هذا
 الزعيم بزعيم جديد وهكذا دواليك . وقد خيل إليه أنه بذلك يستطيع
 أن يلهى الناس عنه ويصرفهم عن السخط عليه بما يشغلهم به من
 الاهتمام بتطاحن هؤلاء الزعماء وتنافسهم على كرسى الوزارة ذلك
 الكرسى الذى يتزعزع على الدوام ولا يثبت لوزير إلا ريثما يزيحه عنه
 وزير ، والعرش من وراء ذلك ثابت لا تناله الزعازع ولا ترقى إليه
 الخطوب .

وكان أشد ما يريب العاضد من أحد الوزراء وأقوى ما يدفعه إلى
 الكيد له والسعى لإسقاطه أن يرى منه تقربا إلى الشعب وتزلفا له بما
 يقوم به من إصلاح أو عمران يعود بالنفع على عامته فهو حينئذ يظهر

الرضى عن هذا الوزير ما ظل ينسب فضل هذا العمل إلى الخليفة ويضيفه إلى مآثره ومآثر أسرته . حتى إذا ما آنس من الناس ميلا إلى الوزير وإقبالا عليه وأنهم لا يعترفون بالفضل إلا لصاحبه وأن كرمهم للعرش باق كما كان فإنه لا يجهله حينئذ بل يعصف به ويقضى عليه بنفس الطريقة التي أقعده بها على كرسى الحكم .

٦

ولقد بلغ من كره الناس للجالس على العرش أن كانوا ربما يضيقون بالوزير من الوزراء ، ويغضونه أشد بغض وتلعنه ألسنتهم وقلوبهم ثم يتفق أن يضطهده العاضد لأمرها ، فإذا قلوبهم تعطف عليه وتأسى لما أصابه . وكذلك كانوا ربما يحسنون الظن بأحد الكبراء ويصفونه الحب حتى إذا ما رأوا الجالس على العرش قد قربه إليه واجتبه ، أساءوا الظن به وأبغضوه .

وإنهم ليدكرون - وما بالعهد من قدم - كيف ضاق العاضد ذرعا بوزيره الأسبق طلائع بن رزيك ، لما سمع الناس يلهجون بالثناء عليه لما رأوا من عدله واهتمامه بما يصلحهم ويسعدهم فما لبث العاضد أن أوعز سرا باغتياله إذ لم يكن له سبيل إلى التخلص منه إلا بالقتل . ثم كيف أنه أراد تسكين خواطر الناس بعد مقتله فأسند الوزارة إلى ابنه رزيك بن طلائع . ولم يلبث أن ضاق برزيك أيضا . فما شعر الناس إلا بشاور بن مجير السعدى يتحرك من الصعيد حيث كان عاملا على قوص :

ويقدم إلى القاهرة فيحارب رزيك حتى يغلبه ثم يقتله فيوليه العاضد الوزارة مكان الوزير القليل ابن الوزير الشهيد .
 وإنهم ليدكرون كيف استقبلوا عهد شاور أول ما ولى الحكم بالتذمر والسخط دون أن يعرفوا من سيرته وطباعه شيئا إلا أن العاضد قد صنعه واتخذ أداة لتحقيق غرضه ، فكان هذا وحده كافيا أن يحملهم على بغضه والازراء به .

غير أن ذلك لم يستمر طويلا . فسرعان ما نسى الناس أو تناسوا أن العاضد هو الذى اصطنعه منذ بدأ شاور يستقل شيئا فشيئا بسياسته عن سياسة مولاه . فأخذ يتحجب إلى الشعب بما يظهر من الاهتمام بمصالحه ويتصل بذوى الرأى من العلماء والوجهاء ، ونقباء التجار والصناع وأهل الحرف يفتح لهم بابه ويستمع إلى مشوراتهم ومقترحاتهم وشكاويهم ، فيحقق لهم ما يستطيع من ذلك . ويعتذر عما لا يستطيع ، متلطفا فى ذلك مفضيا إليهم بالتلميح والإيحاء أنه ليس مطلق اليد ، كما يظنون ، وأن القصر قد يعترض على بعض ما يقترحون . فينصرفون من عنده وقد وقر فى قلوبهم أن هذا العرش القائم فى بلادهم إنما يبقى . ليحول دون ما يبتغون :

ولم تكن عين الخليفة غافلة عن شاور . فللخليفة عيون وحواسيسه الذين ينقلون إليه كل ما جل ودق من أخباره : كيف يتصل بذوى الرأى من الشعب ويتحجب إليهم ، وكيف يعمل على تأريث عداوتهم للقصر بذلك الأسلوب الخفى الناعم الذى يجيده شاور والذى يسوقه لهم مساق العذر للخليفة ونفى اللوم عنه فى أغلب الأحيان . حتى إذا أتاحت له فرصة للإفضاء بذات نفسه أمام قوم يأمن جانبهم من

الساحطين على العرش المتذمرين من سوء الحالة كشف لهم عن حقيقة رأييه في الخليفة ووعدهم بقرب الخلاص وأوصاهم بالصبر والكرمان حتى يحين الأوان المناسب للوثوب وتغيير الحال .

وكان العاضد قد استعد لمثل هذا الاحتمال حتى قبل أن يبلغه عن شاور ما بلغه ، فلم يكذ شاور يتربع على دست الوزارة حتى شرع العاضد يبحث عن من يمكن أن يخلفه في الحكم إذا دعت الضرورة للتخلص منه .

ومن أصلح لهذا الغرض من ضرغام بن سوار . ذلك القائد الشجاع الذي يحمل القلم ، والأديب الشاعر الذي يحمل السيف ؟ نعم إن ضرغام كان من صنائع الوزير الأسبق طلامع بن رزيك ، فطلامع هو الذي عرف فضله فرفع قدره وجعله مقدم العساكر ، وقد أثبت مروءة ضرغام وشهامته إلا أن يعلن سخطه واستيائه يوم اغتيل طلامع ، ثم ينحاز إلى ابنه رزيك بعد ذلك في العراق الذي دار بينه وبين شاور متحديا بذلك رغبة الخليفة حتى استوجب بذلك غضبه وغضب وزيره . فأقصاه شاور عن منصبه في قيادة العساكر .

ولكن ذلك لم يمنع العاضد حين احتاج إلى ضرغام أن دعاه إليه فأعلن عفو عنه وشمله برضاه وقال له : « إنني راجعت نفسي في أمرك فوجدتك غير ملوم في تعصبك لآل رزيك عرفانا منك لفضاهم عليك . وقد أساءني إقصاؤك من منصبك ، ولكن لاحيلة لي في ذلك ما بقيت تجهر بعداوتك لشاور » ! فأجابه ضرغام : « إن كان مولانا يريد مني أن أخضع لوزيره شاور حتى يعيدني إلى منصبى فإننى أشكر عنايته وأستعفيه » .

- ٢٢ -

- كلا لا أريد أن أكرهك على الخضوع لمن لا تحب .. سأسند إليك منصبا أفضل .. سأجعلك رئيس حرس القصر إذا أحببت .
وأدرك ضرغام ما يرمى إليه العاضد . ووجد فيما اقترحه سبيلا إلى الانتقام من عدوه شاور إذا واثته الظروف فى المستقبل . فأعلن قبوله للمنصب .

واستاء شاور لما بلغه أن الخليفة قد ولى ضرغام رئاسة حرس القصر دون أن يستشير فى أمره . ولكنه لم يشأ أن يعترض على هذه التولية لعلمه أن اعتراضه لن يجديه شيئا . فقد أدرك هو أيضا مرمى الخليفة من ذلك ، فآثر أن يغضى الطرف عنه ، بل رأى من الكياسة أن يبدى رضاه وموافقته ، غير أنه استعد منذ ذلك الحين لمواجهة ما يسفر عنه المستقبل إذا بدا للخليفة أن يثير ضرغام عليه .

٧

وكان لهذه العمل من الخليفة أثره فى دفع شاور إلى المضى قدما فى السياسة التى انتهجها . تلك التى تقوم على التودد إلى الشعب والاتصال بزعمائه ونقبائه ليكونوا له رداء يوم يجد الجدد ولا يجد محيصا من تحدى القصر .

ولم يُعرف قبل شاور وزير بلغ فى مناهضة سلطان القصر وتآليب الناس عليه فى السر ذلك المدى الذى بلغه شاور . ذلك أنه كان أبلغ إدراكا ممن سبقوه وأصح فهما لما يعتلج فى نفوس طبقات الشعب من الضيق والسخط . وقد أعانه على ذلك اتصاله بأبى الفضل الحريرى منذ شبابه الأول . إذ تجمعهما رابطة الصهارة . فزوجته زبيدة هى شقيقة أمينة زوجة أبى الفضل . وأبو الفضل هذا فيما يعرف الناس تاجر كبير من تجار الحرير لا تقتصر تجارتهم على القطر المصرى وحده بل تبلغ إلى بلاد الشام والعراق وإلى الحجاز واليمن وطرابلس الغرب ، وله عملاء من تجار تلك البلاد يرأسلهم ويراسلونهم ويتبادل معهم البضائع والسلع وقد تردد إلى تلك الأقطار كثيرا وتجول فيها ، ولا سيما بلاد الشام . ولكنه فيما يجهل الناس ثائر قديم يضطرم غيرة على وطنه مصر خاصة وعلى بلاد العرب والإسلام عامة ، وهو يتلظى سخطا لما وصلت إليه الحال فى بلده من طغيان القصر وفساد الحكام من الوزراء والمستوزرين ، وبغى الجنود وضياع مصالح الشعب ، فإذا خلا إلى خاصة أصحابه ممن يثق بهم اندفع كالبركان يندد بهذا الفساد ويدعو إلى تغيير الحال ،

وينذر بسوء المصير ، ولكنه حريص على الكتمان يبالغ فى الحذر والحيلة ويؤمن أن النجاح حليف السعى الدؤوب المتواصل .
وقد استمع شاور إلى كثير من آرائه وأحلامه منذ كان قائدا صغيرا من قواد الجند فى القاهرة قبل أن ينتقل إلى الصعيد الأعلى عاملا على قوص . فلما رجع إلى القاهرة وتولى الوزارة مكان رزيك ، عاد اتصاله بأبى الفضل كما كان ، بل زاد قوة لأن أبا الفضل كان يأمل أن يتحقق على يد شاور كثير من الإصلاح الذى يحلم به . ولكنه ظل يكتفم عنه من باب الاحتياط وجود جماعة من أصفياه ، سماهم «جماعة المصلحين» ، قد تخبرهم على مر الأيام واستطاع أن يجمعهم حوله من مختلف طبقات الشعب ، فمنهم الفقيه والمتصوف والكاتب والخطيب فى الجامع والمحتسب ، وفيهم التاجر والسقاء والجزار ، قد تعاهدوا جميعا على القيام بحركة سرية ثابتة منظمة ترمى إلى تخليص البلاد مما فيها من الفساد .

فلما بدأ شاور ينتهج سياسته الجديدة ،لقى كثيرا من تأييد أبى الفضل وتشجيعه ، وأفاد من رأيه ومشورته ، وتردد عليه نفر من أولئك الجماعة ، فسمع منهم وسمعوا منه ، دون أن يعرف تلك الرابطة الخفية بينهم . بل كان لا يدري أن كاتب إنشائه عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل كان من هؤلاء .

وكان شاور خليقا أن ينجح فى سياسته هذه ، فقد كان شجاعا مقداما وكان ذكيا داهية ، وكان قوى العارضة ، فصيح القول ناصع الحجة ، يستطيع أن يقنع من يشاء بما يشاء فى كلمات قليلة معدودة يرسلها فتجرى أحيانا بجرى الأمثال تؤثر عنه وتحفظ ، ويكون لها صدق

عميق فى نفوس السامعين . وكان كريما سخيا من ذلك الطراز النهاب الوهاب الذى يحب المال حبا جما ، لا ليجمعه أو يؤثله ، بل لينفق منه ويتكرم به ويصطنع به الرجال والأعوان ، ثم كان مديد القامة عريض المنكبين ، مفتول الذراعين . شامخ الأنف ، واسع العينين ، بشوشا أنيسا إذا رضى ، ومرهوبا إذا غضب .

ولكنه كان ضعيفا فى محاسبة أبنائه ، لشدة حبه لهم ، فاستغلوا نفوذه وسلطانه ، فأطلقوا أيديهم فى أموال الدولة وأموال الشعب بما يتحيفون من الأوقاف أو الصدقات العامة ، ويتقبلون من الرشا والهدايا على قبول الشفاعات . وتولية المناصب ، وتنفيذ الأحكام ، وجر المغام ، أو دفع المغارم ، وجرى على آثارهم فى ذلك بعض حاشيته وبطائته حتى ضج عقلاء الأمة منهم . وكان شاور يسمع ويرى ولكنه كان يتغاضى عنهم ، فإذا عوتب فى ذلك انتحل لهم المعاذير ، أو وعد بأنه سيردعهم عن ذلك ، ولكنه لا يفعل شيئا ، حتى إذا اشتد النكير عليه من بعض خواصه ، قال لهم :

- دعوهم .. هذه دولة أبيهم .. فإذا لم يجمعوا فيها . فمتى يجمعون؟
ثم كان يقول لهم :
- حدثوني عن وزير واحد لم يأخذ أبنائه وحاشيته من أموال الدولة فى عهده شيئا ..

وكان أشد الناس نكيرا عليه أبو الفضل ، فطالما لامه وعنفه وأنذره بسوء العاقبة وذكره بالعهد الذى قطع على نفسه بأن يستن سنة الإصلاح فى وزارته ، فكان شاور يقبل رأسه وما بين عينيه وهو يقول متلطفًا :

- يا أخى ، يا أبا الفضل .. إنك ترانى لم أجمع لنفسى شيئا .. أما
أبنائى - وهم أبناؤك - فليسوا ملائكة .. وهم يرون نظراءهم من أولاد
الوزراء . فلا يريدون أن يكونوا دونهم . وعامة الناس بخير لا يشكون
شيئا .. وما يلفظ بالنكير والتشهير غير الحساد !

ولم يعد شاور الحقيقة حين قال : إن عامة الناس لا يشكون من ذلك
ولا ينكرون عليه ، فقد صار عندهم أمرا مألوفا وحقا مشروعا ،
وحسبهم عرفانا الجميل شاور أنه أسقط عنهم بعض الرسوم وخفف
بعض الضرائب .

ولم يقتصر أبو الفضل على نصيحة شاور ، بل اتصل بأبنائه الثلاثة
ينصحبهم ويعنفهم ، فكان سليمان وطىّ يعدانه بالكف مرة بعد مرة
دون أن يكفأ ، ثم صارا يتهربان من لقاءه لئلا يجرجهما أو يجرجاه ،
ولكن شجاعا وهو أصغر الثلاثة قد استمع لنصحه فكف أو اقتصد . لأنه
كان أطهرهم نفسا ، وأرقهم شعورا ، وأميلهم إلى الخير والاستقامة ،
ولأنه كان كثير التردد على بيت أبى الفضل شديد الإعجاب به والتوقير
له ، ولأنه فوق ذلك كله كان يحب سمية !

وقد تزعزعت ثقة أبى الفضل من جراء ذلك بشاور ، وقل أمله فيه ،
ولكنه لم يفقداهما جملة ، فما زال يرى شاور أجرا وزير على مناهضة
القصر للحد من طغيانه ، ويرى فى عهده أصلح عهد لنسوة الحركة
السرية التى يقوم بها هو وأصحابه .

ولكن العاضد ، وهو يرقب سياسة شاور فى قلق ، ويتربص
لإسقاطه ، قد وجد فيما ارتكبه أولاده مغينا عليه ، وبشيرا له بأن الساعة
قد حانت ، فما هو إلا أن وثب ضرغام وثبته تلك ، فإذا نصف جنود

الدولة قد صاروا فى صفه ، وإذا البرقية - وهم من أقوى الفرق وأشجعها - قد وثبوا على أبواب العاصمة واحتلوا حصونها فسيطروا على الموقف . وأعلن ضرغام أنه مؤيد من العاضد فتخاذل أنصار شاور فى أول يوم ، وطفقوا ينحازون عنه حتى لم يبق معه منهم إلا قليل ، وأدرك شاور فى اليوم الثالث أنه سيحاط به إن بقى فى العاصمة فيقبض عليه ، فجمع أولاده الثلاثة وجماعة من رجاله الأوفياء ، وفرسانه الشجعان فانطلق بهم صوب الشمال . فهاجموا باب الفتوح . واشتبكوا مع حاميته فى قتال عنيف استطاع شاور فى خلال ذلك أن ينجو بنفسه دون أن يلحظه أحد ، وكان فارسا لا يشق له غبار ، فاخترق من موضع المعركة فى طرفه عين .

وقبض على من بقى من جماعته ، ومنهم أولاده الثلاثة ، فسيقوا إلى ضرغام فعذبهم ليستخرج منهم سر شاور : أين ذهب ، فلما أعياه ذلك منهم أمر بهم فقتلوا جميعا إلا شجاعا ، فقد أبقى عليه ، واكتفى بحبسه فى دار الوزارة .

وانطلق رجال ضرغام يبحثون عن شاور فى كل مكان ، فقد كان العاضد حريصا على قتله ، ولا يأمن مكره . إلا إذا رأى رأسه محمولا إليه فى طبق . ولكنهم حتى آخر الليل لم يعثروا له على أثر ، ولم يتضح لهم أنه هرب إلى الشام إلا بعد ذلك بيومين .

واستاء العاضد كثيرا لما علم بنجاة شاور . وأنحى باللائمة على ضرغام إذ لم يستطع رجاله أن يقبضوا عليه ، غير أنه سرى عنه قليلا إذ تذكر أن خروج شاور من القطر كان أهون على كل حال مما لو اعتصم بالصعيد . فالتجأ إلى أشياعه هناك . إذن لربما استطاع أن يجمع منهم ومن عربان الصحراء جيشا فيكر بهم على القاهرة كما فعل من قبل حين أوعز إليه العاضد ليقضى به على وزيره رزيك .

وما كان يعلم حقيقة مقصد شاور من هربه إلى الشام إذ ذاك غير أبى الفضل وجماعته المصلحين . ذلك أن أبى الفضل كان فى دكانه بالفسطاط حين بلغه وثوب ضرغام ، ولم يكذ يقفل دكانه ويعود إلى داره حتى هاله ما سمع من رجحان كفة ضرغام من أول يوم ، فأشفق أن يقضى على شاور فيقضى على الأمل الذى عقده عليه ، فبات موقفا طول الليل . لم تكحل عينه بنوم ، وأخذ يستعرض ما انتهت إليه الأمور ، وما يتوقع أن تنتهى إليه إذا تمت هزيمة شاور . فسيزداد العاضد طغيانا ، وسترسخ قواعد عرشه القائمة على الفساد ، وستظل البلاد ترزح تحت نيره فى حالتها الفوضى حتى تفضى بها فى يوم قريب أو بعيد إلى الكارثة وما أدراك ما الكارثة : سقوط مصر ، هذه القلعة الكبرى الباقية للإسلام فى أيدي أعدائه المغيرين من فرنج الشام ، ويومئذ تكون الطامة الكبرى .

فلما أصبح الصباح قال لأهله : إنه ذاهب إلى القاهرة ليزور ابنه الفضل ويطمئن على متجره الكبير هناك ، فحاولت أم الفضل أن تثنيه عن ذلك خوفاً عليه من خطر الحرب القائمة ، فشرح لها ضرورة ذهابه وأكد لها ألا خوف عليه ، وكانت تعلم أن زوجها إذا صمم على أمر فلا سبيل إلى رده . فقوضت أمرها إلى الله وابتهمت إليه بالدعاء أن يصون زوجها من سوء . ونظر أبو الفضل إلى ابنته سمية ، فلمح عيرة تترقق في عينيها ، فأدرك ما يعتلج في قلبها ، فدنا منها ومسح رأسها بيمينه وهمس في أذنها قائلاً :

- لا تقلقى عليه .. فستتهى الأمور إلى خير .

فتورد وجهها حياءً وغضت طرفها وهى تقول :

- صانك الله يا أبى .. سلم لى على أخى الفضل .

وتوجه أبو الفضل على بغلته الشهباء صوب القاهرة ، وأمامه خادم يحب أمامه فى الطريق حتى بلغا باب زويلة فحمداً الله إذ وجداه فى أيدى رجال شاور بعد . فلما رأوه أوسعوا له . فاكفى بتحتيتهم ومضى فى سبيله يتوخى الدروب الصغيرة الآمنة من المدينة ، ويصل إلى سمعه الفينة بعد الفينة حس الفرسان يطارد بعضهم بعضاً فى الشوارع والسكك . حتى بلغ سالماً إلى دار ابنه الفضل .

وهى دار كبيرة لها عدة مداخل من أزقة مختلفة ، وتشتمل على قاعات متعددة وحجرات كثيرة تفصل بينها دهاليز وأبواب معظمها مخازن لحفظ السلع والبضائع ، وتوسطها القاعة الكبرى لاستقبال العملاء ، وعرض السلع عليهم ، ويقوم الفضل وأهله فى الطبقة العليا من هذا الربع ..

- ٣٠ -

وفى هذه الدار كان أبو الفضل يعقد اجتماعاته مع أصحابه المصلحين يدخلونها فرادى من أبوابها المختلفة ، وكأنهم من زوار الفضل أو من عملائه ، ثم يجتمعون فى قاعة جوانية يغلقون عليهم بابها ، فلا يشعر بوجودهم أحد .

ولم يكن بالربع أحد من الزوار والعملاء إذ ذاك ، فقد أقفلت الحوانيت ولزم الناس دورهم ، فلما دخل أبو الفضل وصاحبه تلقاهما ابنه الفضل مرحبا ، ثم أخبر والده أن بعض الجماعة قد حضروا من الصباح وهم يجتمعون فى قاعتهم ينتظرونه ، فالتفت أبو الفضل إلى صاحبه قائلا :

- اسبقنى يا نعمان إليهم وسألحق بك ..

وصعد أبو الفضل مع ابنه فحيا زوجته وأولاده وجلس معهم قليلا ثم نزل إلى قاعة الاجتماع ، فإذا ثلاثة منهم رابعهم السقاء الذى قدم معه من الفسطاط ، أما الثلاثة فهم نجم الدين الخبوشانى الصوفى الزاهد . وأبو الليث المحتسب ، وابن حكيم إمام الجامع الأحمر .

- الحمد لله إذ وجدتكم هنا ...

- لقد توقعنا أن تحضر فحضرنا ..

- نعم ما فعلتم .

وأخذ الجماعة يتحدثون عن المعركة القائمة ، ويروى بعضهم لبعض ما سمعوا من أخبارها وتطوراتها حتى إذا انتهوا من ذلك ، التفت إليهم أبو الفضل وسألهم :

- ماذا ترون الآن ؟ ماذا ترى يا نجم الدين ؟

- ٣١ -

وكان نجم الدين مستغرقا فى تسبيحه وهو يقلب حبات
سبحته كالذاهل ، فكأنما انتبه من ذهوله .. حين التفت إلى أبى الفضل
فقال :

- الرأى رأيك يا أبا الفضل .. فتكلم أنت .
- بل تكلم أنت أولا فإننا نترك بحديثك ..
فوضع نجم الدين سبحته وأخذ بطرف لحيته يمسحها ويقلب شعراتها
وهو يقول :
- يفعل الله ما يشاء .. والله حكمة فيما قضى .. وإنكم لتعلمون
رأى فى شاور .. فلست آسف عليه إذا غلب ...
فقال ابن حكيم :

- وهل يعجبك ضرغام يا نجم الدين ؟
- إنا لم نجربه بعد ، وقد جربنا شاور فوجدناه رجلا يعتير البلد ضيعة
له ولأولاده ...
- سترحمون غدا على عهد شاور إذا بلوتم عهد ضرغام !
- من يدري ؟ يقال لأنه ذو عفة وشهامة ، وفى موقفه من آل رزيك
مصدق لذلك .

- قد باع نفسه للعاضد بعد ذلك .
فتنحنح أبو الفضل حين ذلك وقال :
- ماذا يعيننا الآن أن نوازن بين شاور وضرغام ؟ إن علينا أن نقرر
ماذا نصنع ؟

فقال أبو الليث مؤيدا :
- أجل يا قوم ، قررُوا ماذا نصنع :

- ٣٢ -

- إذا شئت درت على أصحابنا من نقباء أهل المهن والحرف ليهيئوا
برجالهم إلى عمل شيء ..

قال نجم الدين :

- وذاك يا نعمان .. إلام تريد أن تدفع بهؤلاء ؟ إلى قتال الجند ؟
فقال ابن حكيم :

- ولم لا يا نجم الدين ؟ إنهم يقدرُونَ أن ينتصروا لما نريد !

- بأى شيء يا ابن حكيم .. بهراتهم وعصيتهم ؟

فقال نعمان :

- لعلك لا تعلم يا سيدى الشيخ أن كثيرا منهم قد اقتنوا السيوف
والحراب ، وعندهم جميعا الشفار والفؤوس !

فقال أبو الفضل :

- كلا يا نعمان .. لم يكن أوان مثل هذا العمل بعد ، ثم إنه لا فائدة
منه اليوم بعد ما ظهر أن كفة ضرغام هى الراجحة ..

فقال ابن حكيم :

- رجحت كفة ضرغام لأن العاضد معه ولم ينتصر لشاور أحد ..
حتى عامة الناس الذين من أجلهم ناهض شاور القصر أسلموه وتركوه
لعدوهم العاضد ! حتى نحن الذين أيدنا سياسته صرنا اليوم لا نأسف
عليه إذا غلب ..

- بالله يا ابن الحكيم لا تسئ فهم ما أريد . إننى ما أتحامل على
شاور لأمر بينى وبينه ، ولكننا نرمى إلى التخلص من حكم العاضد
وأسرته وليس شاور بالرجل الذى يصلح للنهوض بهذا الأمر ...

فسأله ابن حكيم :

- ٣٣ -

- ومن يصلح لذلك ؟
- لا أدرى متى يقبضه الله لنا . ولكنه لن يكون شاور بحال .. لأنه
لو نجح لأقام من نفسه عاضدا جديدا ..
- أتعلم الغيب يا نجم الدين ؟
- الله وحده يعلم الغيب . ولكنى أتفكر ذلك وأتوسم من طباعه
وفعاله ..

فقال أبو الفضل ...
- أنا أيضا لا أتق بشاور كل الثقة .. ولكنى أرى عهده ذا فائدة لنا
إذ يدنينا خطوة مما نريد ؛
فسأله بنجم الدين :
- واليوم يا أبا الفضل ، أما زلت تراه كذلك ؟
- نعم .. بل لعننا نستطيع أن نفيد منه اليوم أكثر مما أفدنا منه
أمس ...
كيف ؟

- ألا تذكرون خطر الفرنج الذى يتهددنا من الشرق ؟
فأجابوا جميعا : بلى !
واستطرد بنجم الدين قائلا :
- هنا بلاء عظيم قد وقع علينا منذ وطئت أقدامهم أرض الشام إلى
أن تمكنوا من معظم مدنها وسواحلها . وقد أكل الثور الأحمر يوم أكل
الثور الأبيض !
قال ابن حكيم :

سيرة شجاع

- ٣٤ -

- صدقت يا نجم الدين ، ولولا نور الدين فى دمشق لما تأخر زحفهم إلى بلادنا حتى اليوم ...

- بل قد زحفوا على بلادنا بالفعل يوم اقتطعوا منها عسقلان ، فلم نحرك ساكنا ، ثم فرضوا علينا الجزية ثلاثة وثلاثين ألف دينار فى السنة فقبلناها صاغرين !

فقال أبو الفضل :

- هذا بيت القصيد يا قوم .. لعلكم تذكرون أننى طالما حدثتكم أن وجود هذا العدو الدخيل فى فلسطين وسائر بلاد الشام قد جعل مصير الأقطار العربية واحدا مرتبطا بعبءه ببعض .. ولن يتم لها الخلاص من هؤلاء الدخلاء إلا إذا تعاونت جميعا على إخراجهم وطردهم .

قال ابن حكيم .

- هذا حق ، ولكن أكثر الناس هنا لا يدركون هذه الحقيقة ..

قال أبو الفضل :

- الفرنج أنفسهم يدركونها ويدركها أيضا نور الدين ..

فقال نجم الدين :

- لكن يخبرنى يا أبا الفضل هل يدركها شاور صاحبك ؟

- أظن أنه قد صار يدركها بعد ما كلمته كثيرا فى هذه المسألة :

- فماذا فعل ؟ هل قطع الجزية عنهم ؟

- لم يحل موعد دفع الجزية فى عهده .

- هل بعث إلى نور الدين أمر هؤلاء للتعاون معه على دفعهم ؟

- كلا ما فعل شيئا من ذلك بعد .

- أفترجو يا أبا الفضل أن يفعل اليوم شيئا من ذلك ؟

- نعم ..

فعجب نجم الدين من جوابه كما عجب الآخرون . ولكن أبا الفضل مضى يقول :

- إنى فكرت البارحة فى الأمر . فرأيت أن شاور منهزم لامحالة ، فماذا لو انتهزنا هذه الفرصة فأشرنا عليه أن يهرب إلى الشام ويستجد بنور الدين ...

- على من ؟ على العاضد إذ طرده من الحكم ؟

- نعم ..

- وهل يوافق نور الدين ؟

- أرجو أن يوافق ، ولا سيما إذا شرح له شاور حقيقة الحال فى مصر ووجوب إصلاحها وتقويتها خشية أن تقع فى أيدي الفرنج .

فاستصوبوا جميعا هذا رأى إلا نجم الدين فإنه استدرك قائلا :

- لو قام بهذه السفارة رجل غير شاور ...، فإنى أخشى ألا ينال ثقة نور الدين الخبير بالرجال ...

فقال أبو الفضل :

- لا تنس يا نجم الدين أن شاور هو النائحة الثكلى فى هذا الشأن .. وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة ، ومهما يسؤ رأيك فيه فلن تستطيع أن تنكر حسن بيانه وقوة حجته .

- أجل إنه يقدر أن يلبس الباطل ثوب الحق ...

- فأحر به أن يقدر على إلباس الحق ثوب الحق ، ولا سيما لرجل مثل نور الدين حريص على أن تتاح له مثل هذه الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه من توحيد كلمة العرب والمسلمين .

- ٣٦ -

فاستار وجه نجم الدين وقد انشرح صدره ، فقال وهو يضرب بيده
على كتف أبي الفضل :

- الله ... الله يا أبا الفضل ، إن الله إذ جعل الإخلاص يتقد في
قلبك قد جعل الحكمة تقطر في لسانك ...

ثم أخذ القوم يتشاورون كيف يتصلون بشاور ليفضوا إليه بذلك
الأمر ، على أنه مشورة من أبي الفضل وحده . وأن أبا الفضل يعده بأن
يكتب نور الدين من ناحيته وبوسائله الخاصة مؤيدا طلب شاور
ومؤكدًا وجوب نصرته . إلى أن اتفق رأيهم على أن يتدب نعمان
السقاء لإبلاغ ذلك إلى شاور عن طريق كاتبه القاضي الفاضل .

كان شاور قد أيقن بالهزيمة واعتزم الفرار إلى الصعيد ليحتمي بأشياعه هناك ويستتجد بهم ، وقد أخذ يعد العدة لذلك . فأخبر أبناءه الثلاثة بعزمه ، وأوصى زوجته بأن تترك دار الوزارة من الغد وتنتقل بحاشيتها إلى دار سعيد السعداء . فلما أسر إليه القاضى الفاضل برسالة أبى الفضل جعل يوازن بين الخطتين أيتهما أفضل . وكان أكثر ميلا إلى الخطوة الأولى لولا أن القاضى الفاضل جعل جهده يراجع ويشرح له مزايا الخطوة الثانية حتى اقتنع بها بعد لآى . وأوصاه القاضى الفاضل أن يكتم وجهته هذه حتى عن أولاده خشية أن يقع أحدهم فى قبضة ضرغام فيستخرج منه سره بالقوة والتعذيب . فعمل شاور بنصيحته . فلم يعلم بوجهته يوم نجا بنفسه أحد غير شجاع ابنه . أسر إليه بذلك القاضى الفاضل دون علم شاور ليحمله بذلك على شد أزر أبيه والاجتهاد فى معاونته على تحقيق مهمته ، وهو على ثقة أن شجاعا يؤثر أن يلقى الموت على أن ييوج بسر خطة أشار بها أبو الفضل .

وقد تحقق ما قدره القاضى الفاضل حينما وقع أولاد شاور وبعض فرسانه فى الأسر . فأمر ضرغام باستنطاقهم وتعذيبهم ، فأقروا جميعا بأن شاور قد اعتزم الفرار إلى الصعيد ماخلا شجاعا ، فقد لزم الصمت ولم ينطق بكلمة ، واحتمل العذاب فى صبر وشجاعة إلى أن حضر ضرغام ، فلما رأى ذلك أمر فعزل شجاع من بينهم وقتل الباقون .

وعجب رجال ضرغام . ومن بينهم أخواه همام وحسام ، لما علموا أن ضرغام قد نقل شجاع بن شاور من الحبس فأنزله عنده فى دار الوزارة ، إلا أنهم ظنوا فى أول الأمر أنه يريد أن يستنطقه بنفسه ، ثم يقتله بعد ذلك ، ولكن أخويه وبعض خاصته مالبثوا أن أعلموا أنه بالغ فى تكرمته وحسن معاملته . حتى اختار له نفس الحجرة التى يقيم بها من الدار فى عهد أبيه . وأمر بتوفير كل ما يحتاج إليه من أسباب الراحة ، فكان لا ينقصه شئ إلا أنه معتقل فى ذلك الجناح لا يغادره ، وكان ضرغام يدخل عنده الفينة بعد الفينة فيقضى معه بعض الوقت يؤانس به ويطيب خاطره ثم يخرج .

قال له حين دخل عليه ثانى يوم بعد ما اعتذر له عما أصابه من مس السياط :

- أتدرى يا شجاع لماذا صنعت بك هذا من دون إختوتك ؟

فأجابه شجاع فى شئ من السخرية :

- لعلك تعمل بسنة الأريجين الكرام .. إذا ملكت فأسجح :

- كلا يا شجاع .. لو كنت كذلك لأهقيت على إختوتك أيضا ..

ولكنك أسديت إلى يدا .. فأردت أن أجزيك عليها ..

- أى يد تعنى ؟

- إن كنت حقاً لا تذكرها .. كان ذلك أعظم لك فى نفسى .. ألا

تذكر كلمة قلتها لأبيك يوم أراد أن يقصينى من منصبى فى قيادة

العساكر ؟

- بلى تذكرتها الساعة .. ولكننا كنا وحدنا إذ ذاك .. فكيف

علمت ؟

- قد بلغتني من بعض من حضر فحفظتها لك ...
- ولكنها لم تصنع لك شيئا ..
- هذا ذنب أليك .. وليس بذنبك .. وأنا لا أنسى الحسنة يا شجاع
- كما لا أنسى السيئة ...
- وسكت ضرغام قليلا وهو ينظر إلى الفتى . كأنه يريد أن يتبين أثر كلامه فيه ، فراه قد وجه وسرح ذهنه في أودية الفكر ، فقال له :
- إن كنت ترغب في شيء فاقترح ما تشاء .. أجيبك إليه في الحال ..
- قد جزييت الحسنة بالحسنة .. فما بقي لي عندك شيء !
- بل اقترح على ما تشاء فما جزيتها لك بعد ..
- ربما أطلب منك شيئا يعز عليك !
- فتوقف ضرغام هنيهة وحال في ذهنه أنه قد يطلب إطلاق سراحه ، فهم أن يستثنى ذلك من الطلب . ولكنه لم يفعل ، بل قال له :
- كلا لن أضن عليك بما في مستطاعى ...
- فتهدج صوت شجاع وهو يقول :
- إذن فهل لك يا ضرغام أن توصى رجالك بأمر خيرا ، فلا يزعموها ولا يروعوها فوق ما أصابها من الكريهة والشكل ؟
- ولم يكذب يتم كلمته حتى غامت عيناه بالدمع .
- فتأثر ضرغام لما رأى وسمع ، وعضه الندم على ما كان من رجاله الليلة البارحة إذ فتشوا بيت شاور ، فروعوا من فيه ، فقال لشجاع :
- لا تبتس يا شجاع .. فستكون والدتك محل الرعاية منى ومن رجالى منذ اليوم ...

— ٤٠ —

فقال شجاع وهو يمسخ دمه متجلدا :

- الآن استوجبت شكرى يا أبا الأشبال .. فشكرا لك .

- أما عندك طلب آخر ؟ ..

- لا ، وأشكرك .. حسبى هذا منك ...

وخرج ضرغام من عنده وهو يتعجب من سلوك هذا الشاب وكمال خلقه ، ويحمد الله إذ ألهمه فأبقى عليه .

وخلا شجاع إلى نفسه ، وقد أسره ضرغام برقته ومروءته حتى كاد قلبه يميل إليه ، لولا أنه تذكر أنه عدو أبيه اللدود الذى طالما ناصبه العدا ، ثم وثب عليه واغتصب منه كرسى الحكم ، فهو اليوم شريد طريد مجهول المصير . وهل يستطيع أن ينسى أنه ذبح شقيقه طيما وسليمان ليطفى نار الانتقام فى نفسه ؟ وماذا تكون حال أمه الواهنة العجوز إذا بلغها مصرع ابنها فى يوم واحد ؟ ولعلمهم قد أبلغوها ، فهى الآن تعاني وحدها أشد الكرب . وأمض الشكل لو أنهما صرعا فى الميدان لا حتمل الخطب ولأمكن العزاء ، أما أن يذبحا وهما فى القيد كما تذبح الأنعام فجرح غائر فى القلب ، ليس إلى اندماله سبيل !

ولكن خيال ضرغام يعود فيتمثل أمامه جميل الطلعة ، وضاح الجبين ينظر إليه فى عطف ، ويعتذر إليه فى رقة ، ويتودد إليه فى صدق وإخلاص ويسأله أن يقترح عليه ما يشاء فى لطف ، ثم يجيبه إلى ما سأل فى أريحية وكرم ، وقد ذكره بكلمة قالها يوما فيه لم يقصد بها إلا خير أبيه ، ولكن ضرغاما عدها يدا تجزى ولا تنسى ، أفيستحق البغض رجل هذا نعته وهذه شمائله ؟

عدو لأبيه ؟ نعم ، ولكن أباه أيضا قد عاداه وأقصاه عن منصبه .
انتزع منه الحكم ؟ أجل ، ولكن أباه أيضا قد فعل هذا مع رزّيك . قتل
طيئا وسليمان ؟ ترى ما كان يفعل أبوه لو ظفر بحسام وهمام ؟

وانطلق فكرة يوازن بين الخصمين من حيث لا يشعر ، كأنما ليعلم
أى الرجلين أحدر بهذا الكرسي الذى كان التنافس عليه سبب كل ما
حدث ، ولكن ميزانه لم يلبث أن مال به الهوى فى كفة أبيه فقد أخذت
ذكرياته مع أبيه تنتفض فى ذهنه من خلال عشرين عاما أو تزيد . حاملة
فى أعطافها صورا لا تحصى من عواطف الحب والحنان ، ودلائل الرعاية
والعطف ، متواشجة مع ذكريات أمه الحبيبة فى موكب واحد ، منذ
كان طفلا يدرج ، فصبيا يلعب ، فيافعا يحلم ويتفتح ، فشابا يخوض
غمار الحياة ويحب !

ويتوارى الموكب من مسرح ذهنه ، فإذا سمية وحدها تقبل فى
موكب من الجمال والفتنة والنضرة والشباب ، تراءى خلفها ذكريات
هواة ، وتواتب حولها وأمامها آماله وأحلامه فى المستقبل السعيد .
أواه ! أين هو منها الآن ، وأين هى منه ؟

لقد كان آخر عهده بها يوم زار بيت خالته أمينة ، قبل الواقعة بأيام ،
فلقيته سميه فى ثوبها اللازوردى . وجلست معهما أمها ، فطفقوا
يتحدثون فى أمور شتى ، ثم استدرجها بلطف إلى حديث الزواج ،
فتعللت سمية حيثئذ ببعض شئون البيت وخرجت من عندهما ، ففاتح
خالته برغبته فى تعيين موعد الزفاف ، فقد طال انتظاره لذلك ، وكاد
صبره أن ينفد من تأجيله مرة بعد مرة ، فوعده خالته بأن تكلم أبا
الفضل فى ذلك . وقالت له :

- ٤٢ -

- إن شاء الله يا شجاع سيتم ذلك فى أواسط الربيع القادم ..

- ولم لا يكون قبل ذلك ؟

- ويحك يا ابن أختى .. إنا لن نفرغ من إعداد جهازها إذا بدأنا فيه من اليوم ، قبل مضى أربعة أشهر أو ثلاثة على الأقل ..

ولما أراد الانصراف ، دعا سمية ، فهمس فى أذنها ، وهى تشيعه إلى الباب :

- هذا آخر شتاء تقضينه عند أهلك يا سمية !

فسألته متجاهلة :

- ولماذا ؟

- لأنك فى الربيع القادم ستقيمين فى بيتى !

ما كان يدرى فى ذلك اليوم السعيد أن الدهر له بالمرصاد ، وأن مثل هذا الخطب الجسيم يوشك أن يقع بعد ذلك بأيام فيعصف بين عشية وضحاها بذلك الحلم الجميل . واحسرتاه ! إن الشتاء سينقضى بعد فى حينه ، وسيقدم من بعده الربيع فى ميعاده ، ولكن ماذا يعنيه الآن أن يطول الشتاء ويتخلف الزبيع ؟

١٠

ودخل ضرغام عنده يوما آخر ، أنبأه بأنه أرسل إلى والدته من أخيرها بأن ابنها مقيم عنده في دار الوزارة بخير حال ، ففرح شجاع وشكره على ذلك .

ثم قال له ضرغام :

- ووالدك يا شجاع ألا تحب أن تعرف أين هو اليوم ؟

فاضطرب شجاع قليلا ثم قال :

- أين ؟

. - في الشام ...

- الحمد لله !

- كأنك كنت تعلم من قبل أين توجه ؟

. - نعم ..

- فلم لم تزعم لنا أنه توجه إلى الصعيد .. فضلنا بذلك عن حقيقة

مقصده كما فعل أخواك !

- غفر الله لهما .. كانا يظنان حقا أنه توجه إلى الصعيد .

- أنت وحدك الذي كنت تعلم الحقيقة ؟

- نعم ..

فنظر إليه ضرغام مليا كأنه لا يصدق ما يسمع ..

- إن كنت يا ضرغام قد ندمت الساعة على أن لم تستخرج السبر مني

بالقوة والتعذيب ، فاعلم أنني ما كنت لأبوح به ولو عذبتني حتى الموت .

— ٤٤ —

- لا والله يا شجاع ما فعلت على ما فعلت ... وإنما ازدادت إعجابا
بهذا الصنيع منك .
ثم قال له :
- وددت يا شجاع لو خليت سبيلك .. ولكنى أخشى عليك من
العاضد ..
- يريد قتلى ؟
- نعم .. قد طلبك منى ليقنتك .. فسألته أن يهبك لى على أن تبقى
أسرى ولا أطلق سراحك إلا إذا أذن .. فقبل بعد لآى ...
فظهر الاغتمام فى وجه شجاع ولم يتكلم .
قال له ضرغام .
- لا تبتس .. فلن يلقاك هنا عندى إلا كل خير .

١١

ولما بلغ العاضد أن شاور ذهب ليستجد بنور الدين ، وأن نور الدين
ربما يلجى دعوته ، اغتم لذلك ، وحسب له ألف حساب . وخطر له أن
يستجد هو بالفرنج ، وفاتح ضرغام فى ذلك وهو على يقين أن وزيره
سيحبذ هذا رأى ليتقى به عودة شاور إلى الحكم بقوة نور الدين
ومعونته ، ولكن ضرغاما لم يكده يسمع ذلك حتى استنكره قائلا:
- كيف تريد منى يا مولاي أن أفتح عهدى فى الحكم بمثل هذه
الخيانة للدين والوطن ؟

فبهت العاضد ولم يكده يصدق ما يسمع ثم قال له :
- ويلك يا ضرغام .. أتريد أن تتهمنى بخيانة الدين والوطن ؟

- ٤٥ -

- كلا إنى لا أريد أن أتهم أحدا . ولكن هذا الفعل فى ذاته خيانة ،
ومن يرتكبه أو يرض به فهو خائن ..

فغضب العاضد فى الباطن وحقدھا على ضرغام . وأدرك منذ تلك
اللحظة أنه ليس هو الوزير المطلوب ، ولكنه تجلد وأظهر له قلة
الاكتراث بما قال . بل أظهر له شيئا من الرضا إذ أجابه مبتسما :

- هذه صراحة تعجبنى منك يا أبا الأشبال ، ولكن فاتك أننى لا
أقصد تسليم بلادنا للفرنج بل حمايتها منهم ومن نور الدين ...

- إن نور الدين ليس عدو لنا كالفرنج .. وما يعنيه من مصر إلا أن
تكون بمنحاة من الوقوع فى أيديهم حتى لا يتقوا بها عليه ...

- هب هذا صحيحا .. ولكن ما تقول فى شاور ؟ أيرضيك أن يعود
إلى الحكم على رغم منى ومنك ؟ عجا لك يا ضرغام أنا أسعى إلى
تمكينك لتمسكى بك وثقتى فيك وأنت تسعى إلى تمكين عدوك من
نفسك ...

- شكرا لك يا مولاي .. ولكنى قد فكرت فى سبيل آخر خير من
هذا السبيل ...

- ما هو ؟

- سأكتب إلى نور الدين .. أشرح له حقيقة شاور وحقيقة نيته ،
وأنقض دعواه فى ميلنا إلى الفرنج ومخالفتهم ...

فقاطعه العاضد قائلا :

- ومن أدراك أن شاور ادعى علينا ذلك عند نور الدين ؟

- لا ريب أنه فعل .. فلن يستجيب له نور الدين إلا إذا ادعى له ذلك .. ولكنى سأؤكد أننا سدود عن حياضنا دون الفرنج . وأننا على استعداد للتحالف معه عليهم ...

ووقف العاضد فى مناقشة وزيره عند هذا الحد ، إذ لم يجد عنده ما يريد . ورأى أن يستقل من ورائه بتدبير ما يراه . فعرض الأمر على دهاقين السياسة فى القصر ، ويقال لهم الأستاذون ، وهؤلاء هم الذين يحفظون أسرار السياسة التى يجرى عليها القصر منذ زمن قديم ويتوارثونها أستاذًا عن أستاذ ، وهم دائما موضع ثقة الخليفة ، لا يقطع فى أمر دون مشورتهم ، ولا يتصرف فى شأن من الشئون العامة إلا بعد موافقتهم . وبفضل هؤلاء اطردت سياسة القصر منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى كان أمة وحده ، على سنن واحد لا يختلف إلا باختلاف الظروف والأحوال ، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على العرش . واختلافهم فى الكفاية والسنن . فقد كان بعضهم أطفالا لم يبلغوا الحلم أو لم يصلوا إلى سن الرشيد . وهذا العاضد نفسه كان عمره حين ولى الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين ، فما كان فى الإمكان أن يبدى ما أبدى من الدهاء وبعد النظر ، وسعة الحيلة والبراعة فى تدبير الأمور وإحكام الخطط وفى التلاعب بأقدار الرجال - لو لم يكن هؤلاء الأستاذون من ورائه يصرونه ويسددونه ، وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على أن يعى عنهم من أسرار السياسة المتوارثة فى القصر ما جعله وهو فى دون العشرين

يتصرف تصرف الكهول بل يناطحهم دهاء وحكمة وكأنما كان يشعر في أعماقه بقرب نهاية حكمه وحكم أسرته ، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آبائه وأسلافه ، كاللمعة الأخيرة قبل انطفاء السراج ! وبعد ما انتهى العاضد من التشاور مع دهاقينه الخنكين ، استقر رأيه على أن يكتب سرا إلى الفرنج ليمنعوا نور الدين عنه ، ويكتب في الوقت نفسه إلى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بغى ضرغام وطغيانه .

١٢

أما أبو الفضل وجماعته ، فقد سرهم نبأ وصول شاور إلى دمشق بسلام ، ثم زاد سرورهم لما أطلعهم على رسالة سرية وردت إليه من شاور عن طريق بعض عملائه التجار يذكر فيها مالمقى عند نور الدين من الحقاوة والتكرمة وما وجد عنده من الميل إلى تلبية الأمر الذي تفاوضه فيه ، وما كان للرسالة التي تلقاها نور الدين من أبي الفضل من جميل الأثر عنده ، ويطلب منه لذلك أن يوالى الرسائل إليه ليستشير بها حماسته ويستنهض بها عزمه ؟

ثم كان عيداً عندهم لما أطلعهم أبو الفضل على كتاب جاءه من نور الدين بتوقيعه وختمه جواباً على رسالته . يعلن له فيه أن الله قد شرح صدره لتلبية الدعوة التي وجهها شاور إليه بلسان المخلصين من أهل مصر . عسى أن يوفقه الله إلى حفظ هذا البلد العظيم من الخطر العظيم . وكانوا في خلال ذلك قد اجتهدوا بمختلف السبل والوسائل في إشاعة هذا الأمر بين الناس وتبشيرهم به ودعوتهم إلى تأييده ، فأخذ

كثير من خطباء الجوامع يذكرون الفرنج في خطبة الجمعة ، وما أوجبه الله على المصلين من جهادهم ، ويدعون الله أن يخلص فلسطين وبلاد الشام منهم ، وأن ينصر كل ما يجاهد في سبيله ، دون أن يذكروا نور الدين بالاسم خشية أن يتخذ ذلك دليلا على تشيعهم. لشاور ، فيستوجبوا نقمة العاضد وضرغام .

غير أن واحدا منهم وهو إمام جامع عمرو بالفسطاط ، قد تحمس ذات جمعة فذكر اسم نور الدين صريحا ، ودعا المصريين إلى التآزر معه لحماية مصر من خطرهم ولطردهم من بلاد الشام ، فأشفق المصلون على إمامهم الجريء ، وإن طربت أسماعهم لخطبته .

ولم يكد يفرغ من صلاته حتى سبق إلى العاضد ، فلما مثل أمامه ، وكان ضرغام حاضرا . سأله العاضد : ماذا جملة على ما فعل ؟ فأجابته الإمام بأنه لا يعلم بأنه سيغضب أحدا من المسلمين ، بله خليفتهم العاضد لدين الله ، أن دعا الله لنور الدين بالنصر على الفرنج ، وأن أهاب بأهل مصر أن يحموا بلادهم من خطرهم .

فقال له العاضد :

- بل قصدت بخطبتك أن تدعو الناس إلى المخنول شاور وتحرضهم على وزيرنا القائم أبى الأشبال ضرغام .. فمن حقه أن يعاقبك ..

وأدرك ضرغام بعض ما قصد إليه العاضد . فقال :

- شكرا لأمر المؤمنين إذ حكمني في أمر هذا المتطاول ..

ثم سيق الرجل إلى دار الوزارة ، وهو لا يشك أنه مقضى عليه ، فوطن نفسه على الصبر والشهادة ، فلما رأى ضرغام هناك التمس منه

- ٤٩ -

أن يمهله حتى يكتب وصيته لأهله وعياله . فما كان أشد دهشه
وسروره ، إذ قال له ضرغام :

- بل ارجع إلى أهلِكَ وعيالك . فما ينبغي أن أعاقبك على كلمة حق
قلتها ، ودعوة صالحة دعوتها للمجاهدين في سبيل الله ...

وانتهى إلى العاضد ما فعله ضرغام فزاد من حفيظته عليه ، وإن لم
يبد له بل أثنى عليه حين لقيه بعد ذلك . إذ خلى سبيل الرجل وعفا
عنه .

وكان ضرغام كتب في الرسالة التي بعثها إلى نور الدين أنه قد قرر
أن يقطع الجزية التي فرضها الفرنج على مصر ، منذ أغاروا على
عسقلان فاقتطعوها من مصر في عهد الخليفة الفائز بالله ، الذي ولى
العرش قبل العاضد ليثبت لنور الدين بذلك أنه على استعداد للتحالف
معه على محاربة الفرنج ، ولكنه لم يذكر هذه الفقرة الخاصة بقطع الجزية
للعاضد ، فلما سمع العاضد يثنى عليه ، إذ خلى سبيل الرجل وعفا عنه ،
انتهز ضرغام هذه الفرصة ، فأفضى إليه بما اعتزمه من قطع الجزية عن
الفرنج ، وقال له :

- قد لمست من مولاي هذا الميل القوي إلى مناهضة الفرنج ، فأثبت
ذلك في الكتاب الذي بعثته إلى نور الدين ..

فتغير وجه العاضد ، وقال له :

- لقد تسرعت يا ضرغام .. هذا شأن خاص بيننا وبين الفرنج لا

ينبغي لنا أن تدخل أنف نور الدين فيه ..

- أردت يا مولاي أن أبطل به دعوى شاور لديه .

— ٥٠ —

- هذا عهد كتب بيننا وبينهم .. وما ينبغي لنا أن ننقض العهد لغير

سبب ..

- بل هذا عار علينا فرضوه ، وذل علينا ضربوه .. وقد آن لنا أن

نغسل عنا العار ونرفع عنا الذل !

- إنه لم يكتب في عهدي بل في عهد سلفي !

- عهدك يا مولاي ينبغي أن يكون خيرا من عهد سلفك ..

فسكت العاضد قليلا ، ثم قال له ليستر غضبه وهزيمته :

- ما أغضبني منك في هذا يا ضرغام إلا أنك لم تأخذ رأيي فيه ولم

تكاشفني به قبل اليوم ..

١٣

كان هذا الصراع الخفى يجرى بين الخليفة والوزير دون أن يعرف الناس عنه شيئا ، بل كانوا يظنون أن ضرغام آلة صماء فى يد العاضد يصرفها كيف يشاء ، ويترقبون عودة شاور بمعونة نور الدين ليخلصهم من طغيان العاضد ووزيره معا .

ذلك أن ضرغاما ليس معنيا بالتحجب إلى الناس فى قوله ولا فى عمله ولا أن يجلو لهم حقيقة سياسته ومقاصده ، وإنما يمضى فيما يراه واجبا عليه دون أن يشاور أحدا حتى أقرب الناس إليه ، وألصقهم به ، فقد كان سيء الظن بالناس جميعا ، قليل الثقة فيهم ، لا يراهم إلا طلاب منافع خاصة ، ينظرون فى مشورتهم إذا استشيروا إلى تلك المنافع كيف يحققونها ، هذا حسام وهمام أخواه ما كادا يريان، أخاهما قد تسنم كرسى الحكم حتى خيل إليهما أنها قد أصبحت شريكه فيه وأن من حقهما إذا استأثر هو بالأمر والنهى أن يدع لهما الانتفاع بما يتيحهما الحكم لأربابه من المغام والمكاسب ، فلما اعترض سبيلهما دون ذلك وحاسبهما حسابا عسيرا على ما امتدت إليه أيديهما من أموال الدولة ، تأفقا وتلمللا وظنا به الظنون . ولن ينسى أبدا حين وجدتهما ذات يوم يتناجيان دون أن يعلما بحضوره فسمع أحدهما يقول للآخر :

- ماذا صنعنا إذن ؟ إن كان هذا جزاءنا فعلام خضنا الغمرات معه ؟

فلما استوفيا حديثهما أظهر لهما نفسه ووقف ينظر إليهما مليا وهو صامت لا يتكلم ، فطفقا يعتذران ويتصللان ، ويقبلان رأسه ، ويتشاده

الرحم أن يهب لهما ما سمع . ويعاهدانه أن يكونا بحيث يحب ، فلم يشأ أن يقول لهما شيئا ، بل خرج من عندهما صامتا كما دخل .

وهؤلاء البرقية الذين كانوا سواعده في الوثبة وتولوا معه كبير القتال والصراع ما كادوا يضعون السلاح بعد انهزام شاور وفراره حتى أخذوا يحلمون بزيادة الرواتب والأعطيات ، وإذ لم يصنع لهم شيئا من تلقاء نفسه أقبل أمراؤهم إليه يذكرونه بما نسي من شأنهم ، فلما صارحهم بأنه لم ينس شيئا . وأنه لن يعطى أحدا منهم فوق ما هو معلوم له على حسب قدره ورتبته صاحوا في وجهه :

- أتريد أن تسوى بيننا وبين أولئك الذين قاتلوك مع شاور ؟

- نعم .. أنتم جميعا جند الدولة ..

- إذن فعلام مخاطرنا بأرواحنا معك ؟

- لو لم تقوموا معي .. أفكنتم تقبعون في بيوتكم والحرب دائرة بيني

وبين شاور ؟

- بل كنا نقاتلك مع شاور ..

- إذن فستخاطرون بأرواحكم كذلك .. فأى فرق بين الحالتين ؟

- ما كنت لتتصر حيثن عليه !

فألان لهم لهجته قائلا :

- يا إخواني في السلاح ! إنني لا أجد فضلكم ولا أنكر شجاعتكم

وبلاءكم .. ولكن ما قمت به هو حق الدولة عليكم .. وحقكم عليها

محفوظ لم يضع .. وموфор لم ينقص .

- لو كنا مع شاور فانتصر لأعطانا ما نريد ..

فبدا الغضب في وجهه ولكنه تجلد قائلا :

- صدقتكم ، وهذا فرق مايبنى وبين شاور .. أفتظنوننى كنت أَرْضَى
أن أثور عليه لو كنت أريد أن أفعل مثل ما يفعل ؟
- إن مولانا العاضد هو الذى أوعز إليك ..
- أجل .. ولو علم العاضد أننى سأفعل مثله ما أوعز إلى ..
فسكنوا يتميزون من الغيظ ، إذ كان الجواب على أطراف ألسنتهم
ولكنهم لم يجرؤوا أن ينطقوا به . أفى وسعهم أن يقولوا له إن العاضد
قد أراد له لأمر آخر ؟

ورأى ضرغام ما هم فيه ، فقال :

- إنى بعد لا أعتب عليكم فيما تطمعون .. ولكن اصبروا قليلا
وانتظروا حتى تغزوا بلاد العدو أو تلقوا العدو فى بلادنا .. وبومئذ
ستظفرون بالغنائم والأسلاب ، وما أشك أن نصيبكم منها سيكون
عظيما لأن بلاءكم سيكون عظيما ..
فسألوه متجاهلين :

- هل تعنى نور الدين ورجاله إذا قدموا مع شباور ؟

- كلا .. بل أعنى الفرنج ..

فتضاحكوا مستهزئين ، ثم قالوا :

- هل تطمع أن تغلب هؤلاء ثم تغزوا بعدهم الفرنج ؟

فضاق صدره باستهزائهم ، ولم يستطع أن يملك نفسه ، فانفجر فى
وجوههم صائحا :

- ويلكم يا شرارة المال وباعة الشرف! اغربوا عن عيني فلا شئ لكم

عندى !

فصاحوا جميعا :

— ٥٤ —

- أتطردنا يا ضرغام مثل الشحاذين ؟

- بل مثل الكلاب !

احمرت وجوههم عند ذلك من شدة الغضب ، ثم اصفرت من فرط الحقد ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم خرجوا متسللين واجمين .

واسترد ضرغام وعيه فى الحال ، وفكر فى الأمر كسعادة البرق فأسرع إلى الشباك وأطل منه على القوم وهم يعبرون الفناء نحو السدة فناداهم ، فوقفروا وانفتوا إليه فقال لهم :

- أيها الإخوة لا تؤاخذونى فيما ند من لسانى عند الغضب .. اذهبوا الآن فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينكم عسى أن تدركوا حسن نيتى فيما قلت لكم فتعذرونى ولا تحقدوا على ...

فحركوا رؤوسهم ثم مضوا فى طريقهم دون أن يجيبوه بشيء .

واجتمع القوم فى دار أحدهم فأخذوا يتشاورون ويتآمرون حتى الليل ، فأجمعوا على الوثوب بضرغام ، وأرسلوا أحدهم ليقابل العاضد سرا ويرى ما عنده ثم يعود إليهم بالخبر ، فلما وصل إلى القصر قيل له إن ضرغاما عند العاضد ، فانسёл راجعا من حيث أتى ليعود فى وقت آخر ، ولكنه حين دنا من الدار التى كانوا فيها ، انقض عليه رجال ضرغام فساقوه إلى دار الوزارة . فلما بلغ الفناء الخلقى نظروا من خلال ضوء السراج الباهت فرأى نحو عشرين جثة مبعثرة فى الأرض ، فأدرك أنها جثث أصحابه ، وقبل أن يبدى حركة أو يرجع قولا بصير بالسيف يلعب حوله ، فإذا هو جثة فوق الجثث .

وثار البرقية لأمرائهم ، فكان ضرغام لهم بالمرصاد ، إذ ضرب على أيديهم وأوسعهم قتلا وتشريدا ، حتى ذهب أبطالهم ، واستكان الآخرون .

وذهل الناس لما سمعوا أنباء هذه المجزرة ، واقشعرت أبدانهم من هولها وقسوتها وقالوا : إن فعل هذا بأنصاره وأشياعه فما عسى أن يفعل بالآخرين ؟ فتضاعف كرههم له . وسخطهم عليه وأصبح اسم ضرغام . منذ ذلك اليوم عنوانا على البطش وسفك الدماء ، غير أن اشتزازهم من عمل ضرغام مالبث أن تحول إلى فرح خفي إذ رأوا فيه فال خير يبشرهم بأن ضرغاما بعد ذهاب أبطاله من أولئك البرقية ، لن يثبت لشاور إذا أقبل بحملة نور الدين معه .

١٤

وأقبلت الحملة بعد طول ترقب ، يقودها أسد الدين شيركوه من كبار رجال نور الدين وأبطاله في ألفين بين فارس ، وراجل ، واجتاز بهم الحدود ولقى الصعاب من اعتراض حاميات الفرنج ، فقد كانوا مسيطرين على السواحل كلها وعلى الطرق العامة دون حدود مصر .
وكان ضرغام قد أعد عدته لملاقاتهم ورسم خطته بنفسه دون أن يطلع أحدا من رجاله على سرها ، خشيته أن يعلم العاضد بحقيقة قصده منها فيفسدها عليه .

وتراءى الجيشان دون بلبس ، ونظر أسد الدين فعجب من قلة عدد الجيش المصرى ، والتفت إلى شاور يسأله فقال له شاور : إن ضرغاما لم ينجى إلا بقلة من الفرسان لعله لا ينوى أن ينهى المعركة فى بلبس بل يريد أن يستدرجنا إلى الداخل ، وقد وزع جيشه على طول الطريق إلى القاهرة فيهاجمنا بهم فى كل مكان إلى أن يحدقوا بنا فى النهاية .

ونظر أسد الدين مرة أخرى فرأى فارسا ينهب الأرض نحوهم ، فأمر رجاله بالآلا يعترضوا سبيله لعله رسول من ضرغام إليه ، فلما دنا الفارس منهم فسحوا له الطريق فجعل يخرق صفوفهم متنهلا على جواده وقد تعلق الأَبصار به ، ولم يكد يترجل من جواده حتى صاح شاور فى دهش : شجاع ! ابنى !

- ابنك ؟

- نعم يا أسد الدين .. هذا ابنى الأصغر ..

قال ذلك وانطلق فاعتنقا وتبادلا القبلات فى شوق زائد وحنان غامر . ووقف أسد الدين ينظر إليهما متعجبا ، أيكون ابن شاور مع عدوه ضرغام .

وأراد شاور أن يسأل ابنه هذا السؤال ، فما أمهله شجاع أن انفتل منه وأقبل على أسد الدين فحياه ، ثم قال له : « إن ضرغاما يهديك التحية ، ويرغب فى مقابلتك على انفراد لتسمع ما عنده ويسمع ما عندك لعلكما تتفقان على خير فتحققنا دماء المسلمين » .

فصاح شاور :

- كلا ليس بيننا وبينه غير السيف !

- رويدك يا شاور .. دعنا ننظر فيما يقترح .

- هذه خدعة يا أسد الدين .

فقاطعه أسد الدين قائلا فى حدة :

- قلت لك انتظر يا شاور حتى أوامر أصحابي .

وانتهى باهن أخيه صلاح الدين وبالفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري جانبها فتداول الرأي معهما ، فكان من رأى الهكاري أن ليس من حقه أن يرفض المقاتلة . ولكن لا ينبغي أن يذهب بنفسه بل يرسل أحدا من قبله ، فاستحسنه أسد الدين وقال لابن أخيه :

- اذهب أنت يا يوسف لمقابلته ..

ثم أقبل على الرسول فقال له :

- قل لضرغام إنى لا أستطيع أن أترك جيشي .. فإن شاء قدم هـ

عندى وإن شاء بعثت يوسف ابن أخي مكانى فهو بمنزلتى ...

وذهب شجاع ثم عاد ليعلن لأسد الدين أن ضرغاما قد قبل ابن أخيه مكانه . وانطلق الشابان صلاح الدين وشجاع ، وشاور ينظر إليهما فى غيظ وقلق ، حتى غابا عن الأبصار .

وخلا ضرغام بصلاح الدين فى نعيمة نصبت لهما ، فما انتهيما من حديثهما حتى أعجب كلاهما بالآخر . أعجب ضرغام بذكاء صلاح الدين وألمعيته على حداثة سنه ، وأعجب صلاح الدين بمهابة ضرغام وفصاحته وصراحته .

ورجع صلاح الدين فقص على عمه عجا : إن ضرغاما يعظم نور الدين ويريد أن يحالفه على الفرنج لا أن يحاربه ، وأنه قد كتب إليه بذلك فلم يتلق منه جوابا . وأنه قد قطع الجزية عن الفرنج ولم يبال بغضب العاضد . وأن العاضد قد أراد أن يتصل بالفرنج فمنعه هو من ذلك ، وأنه يقترح الآن أن تعود حملتهم أدرأجها ويعززها هو بالعتاد والرجال فتهاجم عسقلان وتأخذها من يد الفرنج وتعيدها إلى مصر . فتردد أسد الدين قليلا ، ثم قرر أنه لا يعرف غير شاور وأنه لا يستطيع نقض الاتفاق الذى بين نور الدين وبينه حتى يظهر منه خلاف ذلك .

وحاول صلاح الدين أن يقنعه بقبول ما اقترحه ضرغام قائلا : هذا خير يا عم وإنه لصادق .. وسيفرح نور الدين بهذا الحل .. ولكن أسد الدين أصر على رأيه ، وأبلغ ذلك لشجاع الذى كان واقفا مع أبيه على حدة يتتاجيان فى انتظار الجواب . فلما سمع شجاع الجواب التمس من أسد الدين أن يأذن له فيستأنف الحديث قليلا مع أبيه ، فأذن له بذلك .

- ٥٩ -

ولم يعلم أسد الدين ولا أحد من رجاله ما دار بين الابن وأبيه إلا أنهم لحظوا عند انصراف الابن أن الكتابة بادية في وجهه ، وأنسوا في وجهه شاور بعض الغضب .

وقرأ ضرغام الجواب في وجه شجاع قبل أن ينطق به لسانه فلما سمعه قال له :

- وهل كلمت أباك في الأمر ؟

فتلجلج شجاع وهو يقول :

- نعم كلمته .. ولكنه رفض ..

- فاشهد إذن أنني نصحت لدينى ووطنى .. وأبرأت ذمتى إلى الله .. وأن أباك هو المستول ...

فسكت شجاع ولم يجب ، وجعل يغالب عيرة تترقق في عينه :

- أما أنت يتا شجاع فقد أدبت واجبك .. وأنت الآن في حل منى .. فاجتر لنفسك ما يحلو لك .

فأطرق شجاع صامتا لحظة قصيرة من الزمن : إلا أنها اتسعت لفكره أن يستعرض كل الاعتبارات التي عنده ليفاضل بها بين سبيل وسبيل ، فأخذت تتلاحق في ذهنه في مثل ومضات البرق عشرات المعاني والصور ووجوه الأشخاص أيضا : وجه سمية ووجه أبيها ووجه أمها ، ثم وجه أمه ووجه أبيه ، ووجه أسد الدين نائبا عن نور الدين .. وهلم جرا ، وسمع جليسه يقول مؤكدا :

- قرر الآن يا شجاع .

فرفع رأسه في حياء وقال :

- إنه والدى يا ضرغام ولا يسعنى إلا أن أكون معه ..

- ٦٠ -

- أجل . لا ملام عليك .. لست بدعا فى ذلك .. هذان أخواى
همام وحسام .. إنما يقاتلان معى لأنى أخوهما فحسب !
وعجب أسد الدين إذ رأى شجاعا قد انضم إلى أبيه ، وأبدى بعض
رجاله ارتيابا فى أمره ، ولكن أسد الدين اعترض عليه قائلا :
- ويحك إنه ابن صاحبنا .. فماذا نخشى منه ؟
وانتبه شجاع وأبوه وأخذ كلاهما يروى للآخر قصته . وإنهما
لكذلك إذ أقبل رسول آخر من ضرغام . فأنهى إلى أسد الدين أن
ضرغاما يدعو شاور لمبارزته .

قال أسد الدين :

- ماذا ترى يا شاور ؟

فأجابه شاور قائلا :

- يا سيدى .. إنه يعلم أنه مقتول لا محالة ، فأراد أن يبارزنى .. ثم
التفت إلى الرسول قائلا :

- ارجع إلى ضرغام وقل له : يقول لك شاور إن الميت أشجع من
الحى !

ثم همس شجاع فى أذن أبيه :

- انظر يا أبست إلى رقة شعوره .. لم يشأ أن يحملنى هذه الرسالة
لمكانى منك فكلف بها رسولا آخر ..

فتأفف شاور قائلا :

- دعنى من حديثك عنه .. تذكر يا شجاع أنه عدو أهلك وقاتل
أخويك ومثكل أمك ...

وبدأت المعركة بعد ذلك بقليل . وانتهت بانهزام ضرغام وانسحابه إلى القاهرة بعد ما أظهر من الشجاعة والفروسية ما أدهش أسد الدين ورجاله ، وكان أشد الناس إعجابا به صلاح الدين ، إذ ظل طول المعركة يراقب حركاته ويتابع صولاته وجولاته في نشوة وتطلع حتى كأنما يتفرج منه على لاعب لا على خصم محارب . وكم ود لو يتعرض له لينازله أو بالحري ليلاعبه ، فما تمكن من ذلك لأنه كان على الميمنة ، وكان ضرغام يوجه جل هجماته إلى القلب حيث كان أسد الدين وشاور . كأنه كان موكلا بلقاء شاور ولكن شاور كان يتقيه جهده .

وكان واضحا للجميع أن ضرغام قد انسحب مختارا من المعركة ، إذ لم يُقتل من رجاله إذ ذاك أكثر ممن قتل من رجال الحملة . فتقدم أسد الدين ورجاله صوب القاهرة في حذر شديد خشية أن يفاجئه كمين فى الطريق ، ولكنه لم يجد من يعترضه .

ونشط شاور فى أثناء الطريق فجعل يلم بكل بلد وكل قرية ، فيخبر الناس بانهزام ضرغام ، ويشرهم بقرب الخلاص من طغيانه ، وطغيان القصر ، بفضل هذا الجيش الذى بعثه نور الدين .

وما إن وصل أسد الدين إلى ظاهر القاهرة حتى بلغه أن الجيش قد انشق على ضرغام وأن أهلها جميعا مستبشرون بقدوم الحملة ، فالتفت إلى ابن أخيه وهمس فى أذنه :

- ويحك يا يوسف ! ماذا لو أطعته وعملت بمشورتك ؟ ألا ترى

كيف أن الناس كلهم مع شاور !!

وبدأت المعارك تدور خارج القاهرة ثم فى قلبها ، وأخذت القيادة فى واقع الأمر تنتقل من يد أسد الدين إلى يد شاور ، فكان يُرى وجهه فى كل معركة ، ويسمع صوته فى كل معمعة ، حتى صار رب الموقف وملك الزمام ، ولا سيما بعد ما انضم إليه الكثير من جنود البلاد ، وأصبح يعتمد عليهم ويستغنى شينا فشيئا عن جنود الحملة . ولم يجد أسد الدين فى نفسه حرجا من ذلك ، بل سر لما أبداه شاور من النشاط والهمة والشجاعة والبطولة ، مما كان له الأثر الأكبر فى التعجيل بالنصر .

ووقف العاضد فى أول الأمر يتفرج كأن الأمر لا يعنيه . لقد اطمأن أنه باق على العرش مهما تكن النتيجة . أليس قد كتب إلى نور الدين يستغيث به هو أيضا من طغيان ضرغام ؟ بل لعله الآن يميل إلى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه كما فقدته فى ضرغام . هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض ما بلغه ضرغام ؟ ولكنه لم يجاهر بميله إلى فريق شاور وأسد الدين ، إلا حين أيقن أن الدائرة ستدور على ضرغام .

أما ضرغام فقد أحس أنه يقاتل فى المعركة وحده . فالقصر يكرهه ويضيق به ، والناس يكرهونه لظنهم أنه فى صف القصر ، وأسد الدين لم يستجب إلى ما دعاه لأنه لا يثق بغير شاور . والجند قد انشقوا عليه كعادتهم حين يظهر فى الميدان منافس جديد ، فامتألت نفسه بأسا وتنزى قلبه ألما ، ولكنه لم يجد بدا من المضى فى القتال ، فقاتل مستبسلا وهو يرى جنوده يتفرقون عنه ويتسللون ، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء السخن من سطوح

منازلهم ، ثم اجترأوا عليه بعد ذلك ، وقد تفرق عنه رجاله جميعا .
فأدركوه فى الجسر الأعظم بين القاهرة والفسطاط ، فأردوه عن
فرسه ، ثم قتلوه ، وهو يقول :

ويح فتى ضيعه قومه يرجز لهم خيرا وهم ضده ا
يريد أن يكشف ظلّامهم عنهم ، فظنّوا أنه عبده
غدا يرون السويل من شاور واليوم هم - يا ويحهم - جنده ا
كان يوم مصرع ضرغام وانتصار شاور عيدا للناس ، أهل عليهم بعد
طول انتظار فتلقوه بالبشر والترحاب ، واحتفلوا به احتفالا عظيما .
فأقاموا الزينات ، وتبادلوا التهنئات ، وسموه يوم النصر .

عم الفرح كل بيت من بيوت القاهرة والفسطاط فى ذلك اليوم
السعيد ، ولكن بيتين منهما كانا أعمق شعورا به ، وأشد اهتزازا به ،
أحدهما فى القاهرة تقيم به أم شجاع والآخر فى الفسطاط تقيم به
حبييته ، وقد حار شجاع لا يدري أهلقاه أمه هو أفرح أم بلقاء حبييته ؟
هنا الحنان الغامر وهناك الحب الأسر . هنا تشوى ذكريات الأمس ،
وهناك ترفرف أحلام الغد . وقضى يومين موزع القلب بينهما ، يتنقل
بين القاهرة والفسطاط ، كأتما يريد أن يتملنى من هذه ومن هذه قبل أن
تفرق الأيام بينه وبينهما مرة أخرى .. فمن ذا الذى يأمن غدر الأيام ؟
وما كان أشد فرحه لما اجتمع شطرا قلبه ذات يوم وذلك عندما انتقل
أبوه بأهله من دار سعيد السعداء إلى دار الوزارة ، فحضر أهل سمية
إليهم زائرين مهتئين .

وكان مجلس جميل اجتمع فيه الشمل بالشمل ، والتقى الأهل بالأهل ،
وتحدث صديق إلى صديق ، وحنّت أخت إلى أخت ، وتناجى حبيب

وحبيبة ، ثم امتد المجلس إلى سمر ممتع ، قدمت فيه الألطاف وأدبرت الأكواب ، وتشقق الحديث بينهم فى شئون مختلفة بين عامة وخاصة . فتتهلل وجوههم حيناً بالبشر إذا ذكروا شيئاً يفرح ، وتكتب حيناً إذا مال بهم الحديث إلى ذكرى مؤلمة ، ولكنهم فى الجملة يشعرون كأنما قد خلعوا الأحزان ، فألقوها وراء ظهورهم ، وأنهم لن يستقبلوا بعد ذلك غير الأعراس والأفراح .

هذا شاور يقص عليهم - وعلى أبى الفضل خاصة - ما جرى له من الأحداث منذ هرب من القاهرة ناجياً بنفسه ، إلى أن رجع إليها سالماً متصراً ، فذكر كيف وصل إلى الشام ، وكيف أكرمه نور الدين ، وأخذ يحدثهم طويلاً عن نور الدين وصفاته وأخلاقه ، ونشاطه فى حرب الفرنج واستغراق فكره فى ذلك ، ثم حديثهم كيف سارت الحملة من الشام ، وما لقيت فى طريقها من مناوشات الفرنج ، ثم كيف فوجئ قبل معركة بلبس بظهور شجاع ابنه رسولا من ضرغام . وهذا شجاع يترحم على ضرغام ويقص عليهم كيف وقع فى أسرهم ، وكيف أبقى عليه ، وكيف اعتقله فى نفس الحجرة التى يسكنها من الدار . وكيف كان يعامله معاملة طيبة ، ويتردد عليه فيجلس عنده يحادثه ويلطفه ، حتى صاراً صديقين حميمين ، وكيف فاضه بعد ذلك فى أمر التوسط بينه وبين أبيه وقائد الحملة التى أرسلها نور الدين ليتفقوا على حقن الدماء . وجهاد الأعداء . وكيف رحب بهذا الأمر فأطلق ضرغام سراحه ، واستصحبه معه فى الجيش إلى بلبس حتى كان هناك ما كان .

وكانوا جميعا يصنفون إلى شجاع متعجبين ، ما خلا شاور ، فقد كان ضيق الصدر ، وكثيرا ما قاطعه فى أثناء الحديث محاولا وصف ضرغام بالمكر وسوء القصد فيما فعل ودبر ، وأنه استطاع أن يخذع شجاعا عن حقيقته ليستخدمه فى مصلحته ، وأنه هو لو وثق بصدقه فيما عرض يوم بلبيس لوافق على اقتراحه ، ولسعى حتى يقنع أسد الدين بقبوله .

ولم يعجب شجاع لذلك من أبيه ، ولكنه عجب من أمه ، إذ أيدته فى أول حديثه عن ضرغام ، فذكرت لهم ما لقيت من حسن الرعاية طول عهده ، فيما خلا الليلة الأولى من حكمه ، ولكنها انقلبت فى النهاية لما سمعت مقال أبيه ، فقالت :

- أجل يا شجاع لقد صدق أبوك .. ما أحسن ضرغام معاملتى ومعاملتك لوجه الله ، بل ليستغلك فيما بعد .. وقد فعل لولا أن والدك فهم مكره فأجبط تدبيره !

ثم أخذت تروى مصداقا لذلك ما جرى لها من أخيه همام ، إذ اقتحم بيتها تلك الليلة فروعها وروع من فيه .

وزيدة أم شجاع امرأة فى الخمسين سمراء البشرة مليحة الوجه كآختها أمينة التى تصغرها بأعوام ، إلا أنها أطول منها قاما ، وأميل منها إلى البدانة ، وقد وخطها الشيب ، وزاد اشتعالا فى شعرها الأسود بعد فجيعتها بولديها طيء وسليمان ، إذ حزنتم عليهما أشد الحزن وبكهما أحر البكاء ، حتى عمشت عيناها ، وكانت من قبل كعينية آختها واسعتين حوراوين ..

سيرة شجاع

وهي تمتاز على أختها أمينة الوديدة الدمة بقوة الشكيمة وصلابة الإرادة وشجاعة القلب . وذكاء الرأي . إلا أنها تحب زوجها شاور حبا يشبه العبادة ، ويجعلها تعمى عن مساوئه ولا ترى غير محاسنه ، فهو عندها المثل الأعلى في كل شيء لا يعلو على رأيه رأى ، ولا يفوق سلوكه سلوك . وإنها لترى الرأى أو تقول القول ، فإذا وجدت عنده ما يخالفه ، رجعت إلى رأيه أو قوله . دون مراجعة أو مناقشة . وزوجها يبادلها حبا بحب ، فهو يعزها ويدللها ولا يضمن عليها بأى شيء تطلبه . وقد نشأت أولادها على هذا النهج فى النظر إلى أبيهم ، واتخذوا أمهم قدوة لهم فى ذلك ، فنشأوا وهم يعظمونه تعظيما شديدا ويرونه المثل الكامل فى كل شيء .

أما أبو الفضل فلم يشترك فى الحديث إلا قليلا ، بل كان صامتا طول الوقت يستمع ويفكر فيما يسمع ، ولا سيما فيما رواه شجاع من قصة ضرغام ، وذلك العرض الذى عرضه على أسد الدين وشاور . فقد اهتم به اهتماما عظيما ، إلا أنه لم يبد لهم رأيا فيه أو يعلق عليه بشيء . أحقا كان ضرغام بتلك الصورة اللامعة ؟ أما ما عامل به شجاعا من الرقة والكرم فإنه على روعته غير مستغرب كثيرا من ضرغام ، فقد أثر عنه من الفعال ما ينم على شهامة وأريحية ، ولكن أحقا كان ينوى أن يعاهد أسد الدين على محاربة الفرنج والبدء أولا باسترداد عسقلان من أيديهم ؟ ثم أحقا كان من الحرص على ذلك بحيث يقبل أن ينزل لخصمه شاور عن الوزارة بعد استنقاذ عسقلان ؟ إن كان ذلك حقا فقد أخطأ أسد الدين وأساء شاور !

ثم مضى يقول لنفسه : « ماذا يجدى كل ذلك الآن ؟ ... قد ذهب
 ضرغام مظلوماً أو غير مظلوم ، ولن يعود ! ولكن ماذا نقول فى شاور
 هذا الذى عقدنا الآمال على رجوعه إلى الحكم ؟ أحقا شك فى صدق
 ضرغام وخشى أن يكرر به فرفض هذا العرض منه ؟
 ولم يستفق أبو الفضل من سرحان فكره ، إلا لما نبهه شاور قائلا :
 - ماذا بك يا أبا الفضل ؟ فيم سرح فكرك ؟
 فأجابه :

- لا شيء يا أبا شجاع .. إنما قلت لنفسى .. ماذا لو صدق ضرغام
 فيما عرض فقبلته أنت وأسد الدين ؟
 فتضاحك شاور قائلا :

- ويحك يا أبا الفضل .. حاشاك أن تنخدع به ميتا كما انخدع به
 ابنى حيا .. إنما كانت منه توبة الفاجر فى السفينة الغارقة .
 أما سمية فقد كانت فى أثناء استماعها إلى حديث شجاع عن ضرغام
 تراقب وجه أبيها جلسة ، وتلاحظ ما يرتسم عليه من أثر ذلك الحديث ،
 فاستطاعت أن تدرك بعض ما يضطرب فى ذهنه ويختلج فى صدره من
 الأفكار والخواطر .

وسمية فتاة رقيقة الحس عميقة الشعور ، تدرك بصيرتها أكبر مما
 تدرك بكائها . وهى صموت خجول منطوية على نفسها ، قلما تنطلق
 أو تميل إلى الكلام . وقد ورثت عن أمها وداعة النفس ودماثة الطبع .
 فكانت تبدو للناظر من رقتها ولينها كأنها قارورة من قوارير الزينة ،
 مصنوعة من البلور الهش تصدع من أهون رجة وتنكسر من أيسر
 صدمة ، غير أنها تنطوى على شجاعة فى القلب وقوة فى الإرادة ،

تظهران عند الشدائد والملمات ، فإذا قارورة الزينة هذه ليست من رقيق البلور ، بل من أصلب المعادن كلها .. من الألماس !
وقد نرعت فى هاتين الخلتين إلى أبيها فى خلقه . كما نرعت إليه فى كثير من صفات خلقه ، فالوجه الأبيض المشرب بالحمرة ، والعينان الزرقاوان ، والشعر فى لون الذهب ، والشفقتان الرقيقتان كل أولئك قد تحدر إليها من أبى الفضل ، وما اختلست من أمها إلا استطالة الوجه ، وامتدادا فى الجيد ، وشما فى الأنف .

وكان هذا الشبه الغالب بينها وبين أبيها قد جعلها أشد التصاقا به منها بأمها . فنشأت شديدة التعلق به والحدب عليه والاهتمام بمشاركته فى همومه وشواغله العلة .

ولعل مما قرى هذا الميل فيها أيضا ما ترى من قلة غناء أمها فى هذا السبيل ، فهى امرأة بسيطة التفكير محدودة الأفق ، لا يعنىها غير تدبير منزلها ، وخدمة زوجها فى شئونه الخاصة ، وإذا امتد اهتمامها إلى أبعد من ذلك ، فإلى الأحوال المتعلقة بتجارته من زيادة ونقصان أو رواج وكساد . أما ما وراء ذلك مما يهتم به زوجها من شئون السياسة والإصلاح فقلما تدرك شيئا منه . وقصارى ما تشعر به حيال ذلك أنها تشفق على زوجها من عواقب الدخول فيما لا يعنيه وتود لو وهبت شيئا من الشجاعة وقوة المنطق . فاستطاعت أن تقنعه لينفض يده من ذلك كله . وإن لم يكن ذلك فى وسعها صارت تكتفى بالدعاء إلى الله أن يهدى زوجها إلى قصد السبيل وبجنبه غوائل السوء .

وأبو الفضل ليس يميل بطبعه إلى اشتراك النساء فى غير شئون البيت ، فهن عنده ضعيفات الرأى ، قصيرات النظر ، لغلبة أهوائهن على عقولهن ،

فلا يكدن يميزن بين الحسن والقبيح والنافع والضار ، إلا فيما يتصل بشئون معيشتهم وزيتتهم من الأطعمة والثياب والحلى . وتميل ألسنتهم إلى الثرثرة ولغو القول . فإذا ضمهم مجلس . فأشهى شىء عندهن الخوض فى حديث جاراتهن ومعارفهن ، لا يتأمن من غيبة ، ولا يتكرمن على شماتة ، وأمثل ماتلغظ به ألسنتهم وأبعده عن السوء أن يقلن : فلاتة تزوجت وفلاتة طلقت ، وفلاتة راجعها زوجها ، وفلاتة حملت ، وفلاتة توشك أن تضع !

هكذا كان رأى أبى الفضل فى النساء ، فلم يفتقد فى زوجته شيئا مما يجيبها إلى قلبه من كمال الطاعة والاستقامة وحسن الأدب وأداء الواجب على أحسن وجه .

أما حسن رأى والمشورة والمشاركة فى الاهتمام بالشئون العامة فلم يلمس ذلك منها قط حتى يفتقده . فعاش ماعاش معها لم يحاول يوما أن يشاركها فى شىء من همومه العامة ، أو يستشيرها فيه . وماذا تفيد من ذلك لو فعل إلا أن يثقل كاهلها فوق ما ينوء به من هموم البيت والزوج والولد دون أن يخفف ذلك عن كاهله شيئا ؟ وإنه لقادر على أن يضطلع بحمل أعبائه وحده فعلام يحمل زوجته منها مالا تطيق ؟ إنها لأغلى عنده من أن يثقل قلبها بما لا شأن لها من همومه وآلامه ، وحسبه منها أن تسربها عنه جهد ما تستطيع بما تغمره به من حب وحنان ورحمة وعطف .

ولكن سمية استطاعت - على الأيام - أن تتسلل إلى مكن هذه العقيدة الثابتة فى نفسه فتزعزعها شيئا فشيئا ، من حيث لا تشعر هى أو تقصد ، ومن حيث لا يشعر هو أيضا . فإذا به يفضى إليها ببعض

همومه مما ليس بخطير ، فيجد عندها فوق ما يتوقع من فهم وعطف ، ويستشيرها فيجد عندها رأيا لا يخلو من الأصالة والرجاحة ، ثم يلوها فيري عندها من كتمان السر حتى على والدتها ما يجعلها محلا لثقتها ، وإذا هو بعد لأى يفضى إليها بالخطر من همومه وأحلامه ، ثم بأخطر الخطير دون خشية ولا حرج ، وإذا هو يجد من راحة القلب وطمأنينة النفس كلما أفضى إليها بذات نفسه بين جدران بيته فوق ما يجد من خاصة أصحابه فى مجتمعاتهم السرية .

ولكن أبا الفضل لم يشأ بعد ذلك أن يغير عقيدته فى النساء ، وإنما استثنى ابنته وحدها منهن ، والمستثنى عنده لا ينسخ القاعدة بل يثبتها .

وهكذا أخذت سمية تعقل شيئا فشيئا ما يجري من الأحداث فى مصر خاصة وفيما وراءها من بلاد العرب والإسلام عامة ، حتى صارت ملمة بكثير من دقائق أحوالها وأسرار سياستها ، وأخذ شغلها بذلك يزداد واهتمامها يتضاعف يوما بعد يوم حتى شغلها عن كثير مما يشغل قلوب الفتيات فى مثل سنها من حب الزينة والتطرية ، وإن لم يشغلها عن حبيبها شجاع . ومن يدري لعلها كانت تشغل عنه أيضا ، لو لم تكن تتوسم فى حبيبها الشاب من سلامة الفطرة وطهارة النفس ونقاء الضمير ما عسى أن يكون عوناً لأبيها فى مستقبل الأيام على تحقيق آماله وأحلامه ؟ ولا سيما إذ تذكر أنه ابن وزير ، فليس بعزيز أن يجلس يوما على كرسى الحكم ، فيتم على يديه من الإصلاح ما لم يتم على يد غيره من تجار السياسة وعبيد السلطان ومطاييا الطغيان .

وقد أثبتت الأيام فى كثير من الأحوال - وما زالت تثبت - صدق فراستها فيه . ألم يكن هو وحده الذى شذ من أبناء شاور وبطائته فكف عن استغلال نفوذ أبيه فى وزارته الأولى ، حتى شهد الناس بفضله فأتوا عليه من حيث لعنوا أخويه ؟ .

ألم يعجب حتى ضرغام عدو أبيه إذ بلغته كلمة خير قالها فيه فهزت من أريجته ما جعله يبقى عليه من دون أخويه ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يستبقه عنده فى دار الوزارة ليقفه من بطش العاضد ، ثم يتخذ صديقا حميما بلغ من ثقته به أن كاشفه بسرّه ، واختاره رسولا يحمل إلى أبيه وإلى أسد الدين تلك الخطة التى كتمها عن الناس أجمعين ؟

نعم ، إنها أحبته قبل أن تعرف هذه المعانى فيه ، أحبته منذ كانا صغيرين يلعبان معا فى البيت والشارع . وهى لا تذكر اليوم سر انجذابها إليه إذ ذاك ، فرمما لا يعدو انجذاب الصبية إلى رفيق صباها الذى تجمعها به القرابة والرحم ، غير أنها تذكر أن أخويه طيتا وسليمان كانا يتحبيان إليها أيضا ، فكانت تعرض عنهما ولا تقبل إلا عليه . لأنه كان أصبح منهما وجها وأرق حديثا ، وأحب إلى قلب غالتها زبيدة ، التى كانت لا تفتأ تقول حين تراهما يدرجان معا . « سنزوجها لك يا شجاع ، سنزوجك له ياسمية !؟ » .

ولكنها تدرك يقينا أن حبها الصحيح له . وإنما بدأ فى الحقيقة يوم عاد مع أهله من الصعيد ، فما كاد الصراع ينتهى بين أبيه وبين زريك حتى ترك أباه وأهله منهمكين فى تهيئة نزولهم بدار الوزارة ، وأقبل هو مسرعا إلى بيت أهلها ، فتقدم إلى أبيها يخطبها بنفسه . ونظرت إليه يومئذ - وكان مرتديا بذلة الفارس متوشحا سيفه - فرأت فى عينيه السوداوين من خلال أهدابهما الوطف معنى لم تره من قبل . وتسنى لها

— ٧٢ —

أن تتأمله ، إذ كان لا يرفع بصره إليها حياءً ، ولا ينظر إليها إلا مسارقة ، فأحست - لا تدري كيف - أن لهذا الفارس الجميل شأنًا ، وأنه ينطوى على شيء لا تدري ماهو على التحديد ، غير أنها تستطيع أن تشق به ، وتعتمد عليه !

ثم رأت أباهما بعد ذلك يحب هذا الشاب ويدنيه ، ويعزه ويحله ، ويتوسم فيه كما توسمت ، فمما حبها وازدهر ، فكان مثل قلبها كممثل التربة الصالحة ألقى فيها البذر الطيب ، لينمو على هيئته بما يتيسر من ماء ، فإذا غمام صيب جادها يومًا فرواها ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج !

١٧

وأوشك السمر أن يبلغ نهايته حين تذكر أبو الفضل أنه يريد أن يعود صديقه القاضي الفاضل في بيته ، فهو عليل منذ كان في السجن حيث بقى محبوسًا طوال عهد ضرغام حتى أطلقه عهد شاور الجديد . والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني صديق قديم لأبى الفضل ، لقيه أول مالمقيه في غزة حيث كان قاضيًا بها ، وكان أبو الفضل عائدا من إحدى رحلاته في الشام ، فأحبه من أول اجتماع ولا سيما إذ قصّ عليه كيف كان هو وأهله في عسقلان حين حاصرها الفرنج ، ثم كيف هربوا منها لما سقطت في أيديهم .

واستمررا بعد ذلك زمنا يتكاثبان وما يزداد أبو الفضل إلا حبالة وإعجابا بأسلوبه البديع في رسائله ، فخطر له أن يستقدمه إلى القاهرة ليدفع به إلى حيث يهيئه له فضله ، فيتولى « كاتب إنشاء » في ديوان الوزارة ، عسى أن يفيد من وجود مثله هناك في خدمة حركته السرية .

ولبى القاضى الفاضل دعوته ، فقدم بأهله إلى مصر . فتلقاه أبو الفضل وأحسن ضيافته . واستأجر له بيتا حسنا فى القسطنطينية يسعى لتوليته المنصب الذى يريده . وفى خلال ذلك كثر اجتماعه به ، وتوثقت علاقته الصداقة بينهما ، فصار أبو الفضل لا يصير يوما عنه ، ولكيلا يثير الريبة كثرة تردد صاحبه الغريب عليه التمس منه أن يتولى تعليم ابنته سمية وتأديبها ، فقبل القاضى الفاضل ذلك عن طيب خاطر .

وقد سبق لأبى الفضل أن صنع مثل هذا مع الشيخ نجم الدين يوم بدأ اتصاله به ليصطفيه ويضمه إلى جماعته ، فقد طلب إليه أن يعلم ابنته القرآن والفقه . فكان يتردد على بيته كل يوم فيخلو إليه بعد أن يفرغ من درسه لابنته .

ولم يلبث أبو الفضل أن وثق بالقاضى الفاضل فأطلعه على سر جماعته وعرفه بهم فصار من أقطاب حركته منذ ذلك اليوم ، ولكنه لم ينجح فى السعى للقاضى الفاضل لتوليته المنصب فى ديوان النوزارة ، إذ كان ذلك فى عهد زريك بن طلائع ، وقد أخذت الأمور تضطرب فى يده ، منذرة بوشك سقوطه ، فلما تولى شاور الحكم بعده ، رأى أبو الفضل أن يستأنف مسعاه للقاضى الفاضل فقدمه إلى شجاع بن شاور ، إذ كان يختلف إليه بعد ما صار خطيب ابنته ، ولم يلبث شجاع أن شغف بالقاضى الفاضل وأعجب بفضله وأدبه ، فحدث عنه أباه ، واقترح عليه أن يجعله كاتب إنشائه ، فلما استدعاه شاور واجتمع به بهر فضله ، فلم يتردد فى توليته ، وسرعان ما سطع نجمه فى الديوان ، وظهر تفوقه على الأقران ، حتى كان شاور كثيرا ما يقول له : « اقتصد يا عبد الرحيم ، فإنى أخشى أن يحسدنى العاضد عليك فيطلبك لنفسه ! » .

١٨

فلما نهض أبو الفضل مستأذنا ليعود صديقه أبدى شاور رغبته هو .
أيضا فى أن يعود معه ، فللقاضى الفاضل فضل كبير عليه ، ولن ينسى
أبدا أنه أودى فى سبيله ، وعذب ليقر أين فر شاور . فاحتمل العذاب
صابرا وأبى أن يقر . ولو فعل لأعلى ضرغام منزلته ، ولجعله كاتب
الإنشاء فى ديوانه كذلك .

وتحركات أم الفضل لتصرف أيضا . فصاحت أختها بصوتها الجهورى :
- إلى أين يا أمينة ؟

فأجابت أم الفضل بصوتها الخفيض الناعم :
- ائذنى لنا يا أختى ننصرف !

- تنصرفون ! لا والله لا تبيتون إلا عندنا الليلة !

- نريد أن نروح إلى دار الفضل ابنى فنييت عندهم !

- هيه .. الفضل وامراته أعز عندك منى ؟

- كلا يا زبيدة .. ولكننا قد وعدناهم اليوم .

- وعدتموهم ؟ نلغى الوعد الآن .. ميمون .. تعال يا ميمون .
فأقبل ميمون مسرعا :

- نعم يا مولاتى ..

- انطلق الساعة إلى دار الفضل ابن أختى ..

- لكن يا زبيدة ..

- اسكى أنت ! اسمع يا ميمون .. قل لهم : إن الجماعة سيبيتون

الليلة عندنا فلا تنتظروهم ...

- حالا يا مولاتى ..

قال ذلك وانطلق ..

— ٧٥ —

ونظرت أمينة إلى زوجها كأنها تستنجد به ، وكان لا يزال واقفا مع شاور إذ استوقفهما هذا الحوار بين الأختين ، فاستمعا إليه يضحكان ، وكان شجاع أيضا واقفا ليشيعهما إلى الباب ، وسمية واقفة خلف أمها تسمع وتبتسم .

ولم تنتظر زبيدة حتى يتكلم أبو الفضل إذ أسرعت فقالت لأختها :
- أظنين زوجك يستطيع أن ينفك ؟
فضحكوا جميعا ، ومضت أم شجاع تقول :
- اشهد يا أبا الفضل بنفسك ، أنها تريد أن تتخلص منى بكل سبيل !

- أبدا والله يا أختي !
- أختك ! لو كنت أختي حقا لما هان عليك أن تركيني الآن ولم ير بعضنا بعضا من شهر !
- سنعود لزيارتكم عن قريب ..
- كلا .. لاترين وجهي ولا أرى وجهك .. لاعن قريب ولا عن بعيد ..

وتتم شاور مبتسما : « سبحان من جعلهما أختين شقيقتين ! »
قال أبو الفضل حينئذ وهو يغالب ضحكه :
- وجب يا أمينة .. رضا أم شجاع عندنا بالدنيا !
- تسلم يا أبا الفضل .. ويسلم حسك !
ثم التفتت إلى زوجها قائلة :
- والآن رح يا سيدى مشوارك مع ابى الفضل ثم عد به معك !
حذار أن يفلت منك ..
فأجابها شاور :

- ٧٦ -

- اطمئنى يا أم شجاع ! -
- وقبل أن يتحرك أبو الفضل وشارو صوب الباب ، التفت أبو الفضل إلى شجاع قائلاً :
- وأنت يا شجاع ألا تحب أن تعود معنا صديقك القاضى الفاضل ؟
- وأجاب شجاع :
- قد عدته اليوم يا سيدى ...
- ونظر إليه أبوه نظرة ذات معنى ، كأنه يقول له ، قد فهمت قصدك ، ثم قال لأبى الفضل :
- دعه هنا ، فإنه لم يقض الشوق بعد من حالته ولا من أمه ..
- فتبسم أبو الفضل ، وخرج ، وتبعه شارو .
- وخف المجلس بعد خروج الشيخين ، ورقت حاشيته ، وأخذ الباكون يتحدثون فى جو أقل وقاراً وأكثر طلاقة .
- قالت زبيدة لأختها :
- لم لا تخلعين هذا الشال يا أمينة .. فإن الدنيا حر ؟
- الجو متقلب يا أختى .. تارة حر وتارة برد ..
- كل سنة وأنت طيبة يا أمينة ، نحن فى آخر الصيف ... لكن الساعة ..
- صدقت !
- قالت ذلك وخلعت شالها ، فتناولته سمية منها وعلقتة على المشجب .
- وأنت يا شجاع .. لم لا تخرج مع سمية إلى الشرفة ... وتدعنى أنا وأختى نتحدث وحدنا ؟ أم صحيح ما قال أبوك ... إنك لم تقض الشوق بعد منى ومن خالتك ؟
- فضحكوا جميعاً ، وأجاب شجاع قائلاً :

- نعم يا أماء .. هذا صحيح .. لن أقضى الشوق منكما أبدا ... ولو
جلست معكما ليلا ونهارا .. ولكن ينبغي أن أطيع أمرك .. هلمى باسمية ..
وترددت سمية قليلا ، ثم خرجت معه إلى شرفة واسعة مستطيل تشرف
من جهة على جانب من الميدان الكبير ، ميدان بين القصرين، وتطل من
جهة أخرى على حديقة الدار ، أما الميدان فتتألا الأنوار من جوانبه ، ومن
وسطه ابتهاجا يوم النصر ، وأما الحديقة فما يضيئها غير نور القمر ،
تنسكب أشعته ، فتسقط على أرضها من خلل الشجر والغصون .

وهبت من ناحية الحديقة نسمة عليله ، كأنها تحية من الطبيعة الرؤوم
الحبين كريمين يوشكان أن يؤديا رسالة الحياة بعد قليل .

ووقف الحبيبان مليا ينظران إلى ماحولهما صامتين ، ثم التقت
عيونهما فابتسما ، ولكنهما لم يدريا ماذا يقولان ؟ وما حاجتهما إلى
القول ، وقد تكاشف قلباهما ، فليس بينهما حجاب ؟

ولكن للنجوى بعد لذتها في السمع ، وبشاشتها في القلب ، وقد
أتاحت لهما الليلة بعد ما حرماها زمنا طويلا ، فلم لا يتناجيان ؟

وبدأ شجاع يناجيها فتحيه هي في حياء واقتضاب ، واستمر
يناجيها وأخذ لسانها ينطلق شيئا فشيئا ، وماهى إلا لحظات حتى اطرده
الحديث بينهما ، وتسلسل ، وعجبا كيف استطاعا أن يتحاورا كل هذا
الحوار ، وقد كانا يظنان منذ قليل أن ليس بينهما شيء يقال !

وكان حديثهما يجري في تسلسل واطراد ، كالجدول الطليق حتى
إذا ما انتهى إلى ذكر موعد الزفاف المأمول اعترضته الجنادل والصخور
فتعثر واضطرب ، إذ لم تزل دون ذلك اليوم المنشود شهور طوال
سيقضيانها في الصبر والانتظار حتى تنتهى أم شجاع من عام حدادها
على ابنيها الذبيحين .

لك الله يا يوم الزفاف الحبيب ! لقد كنا نستعجل انقضاء الشتاء لنلثاك
فى الربيع ، فإذا نحن اليوم نستعجل انقضاء الخريف لنلثاك فى الشتاء !

١٩

وانقضت أيام وما برح الناس مبتهجين لهزيمة ضرغام ، إذ اعتبروها
هزيمة للقصر ، ومستبشرين بعودة شاور إلى الحكم إذا اعتبروا ذلك
انتصارا للشعب ، أليس العاضد قد كرهه ، وأثار ضرغاما عليه حتى
أسقطه لأنه كان يتحدى القصر ، ويتقرب إلى الشعب ؟ فما هو ذا الآن
يعود إلى كرسى الحكم مؤيدا من قبل الشعب وأنف العاضد راغم !
وانتفش أملهم فى عهد جديد تستقر فيه الأمور ، وتنتظم الأحوال ،
وتصان فيه الحقوق والحرمات ، وإن كانوا لا يعلمون كيف يتم ذلك ،
إذ لا يدرون ماذا ينوى أسد الدين أن يفعل بالعاضد أيلخلعه عن العرش أم
يقيه ، ولا متى يغادر مصر ويعود برجاله إلى الشام ، وهل يأمن بعد
ذلك ألا يعود العاضد سيرته الأولى . فيقيض لشاور ضرغاما آخر ؟
ومما أثار ريبتهم وزاد من قلقهم أن العاضد قد أسرع بإرسال الخلع
النفسية والهدايا القيمة إلى أسد الدين وكبار رجاله ، وإلى شاور أيضا
ليعرب بذلك عن رضائه ، وتأييده ، وهم يعلمون أنه غير صادق فى
وده لهؤلاء ، وإنما يظهر لهم خلاف ما يبطن ريثما تسعفه الحيلة وتواتيه
الفرصة فيمكر بهم كعادته فى ذلك ، ويخشون أن ينخدع أسد الدين به ،
وإن كانوا يرون فى وجود شاور معه عاصما له من ذلك .
وكان أسد الدين قد عسكر برجاله فى خيم عظيم فى التاج بظاهر
القاهرة حيث توافد الناس عليه من جميع الطبقات مسلمين مرحبين ،
فكان يتلقاهم بالبشاشة واللفظ مسرورا بما يشهد منهم من خالص
المودة وصادق التكریم .

ولم يلبث أن أقبل إليه رسل العاضد يحملون إليه الهدايا والخلع وينهون إليه رغبة مولاهم الخليفة في استقباله صباح الغد بالقصر ، فأمرهم برفع شكره إلى الخليفة وإبلاغه أنه سيحضر هو وكبار رجاله للسلام عليه .

واتصل بشاور وعرض عليه الأمر واستشاره في عدد من يستصحبهم معه من رجاله ، فقال له شاور :

- خذ من رجالك على عدد الخلع التي بعثها إليكم العاضد ولا تزد ..

- أترأه قد قصد ذلك ؟

- نعم ..

- إنما هي خمس عشرة خلعة فقط .

- إن أردت أن تشعره بأنك لا تأمن غدره ، فزد على هذا العدد ماشئت ، أما إذا شئت أن تشعره بثقتك وطمأنيتك فانقص إن شئت ولكن لا تزد ..

فحرك أسد الدين رأسه متعجبا ، ثم سأله هل يخشى عليهم منه غدرا ، فأطرق شاور قليلا ثم أجابه قائلا : « إن العاضد لغدور ، ولكنه لن يأتيها اليوم هكذا علانية ، فهو أحصف من ذلك » .

فاقتنع أسد الدين برأى شاور ، وعزم على ألا يستصحب معه غير أربعة من رجاله هو خامسهم ، وراجع رجالة في ذلك ، ولا سيما ابن أخيه صلاح الدين ، إذ قال له :

- يا عم لأن يظن بك العاضد قلة الثقة به خير من أن تقع في فخه ..

. وإنا لا نعرف ما في قصره من الحبائل والشباك .

ولكن أسد الدين صمم على عزمه ولم يتردد .

— ٨٠ —

وقبل أن ينصرف شاور من عنده ، قال له :
 - إذا شئت سبقتك غدا برجالى إلى العاضد لأستطلع ما عنده ،
 فأزدد طمأنينة :
 فقال له أسد الدين : « ذلك خير » .
 وانفرد به صلاح الدين بعد انصراف شاور ، فقال له : « الآن زاد
 شكى وارتياى » .
 - ماذا تعنى ؟
 - إن قلبى لا يطمئن إلى هذا الرجل ؟
 - شاور ؟
 - نعم ...

فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « دع عنك هذه
 الوسوس يا ابن أختى .. إنه صاحبنا ونحن سيوفه وحماته ، فأى شىء
 يدعوه إلى ما تظن ؟

٢٠

وأشرق الصباح ، فغدا شاور إلى القصر الشرقى ، واستؤذن له على
 العاضد ، فأذن له ودخل عليه شاور فى منظرته فتلقاه مرحبا كأن شيئا
 لم يحدث بينهما قط ، ثم دعاه إلى الجلوس ، فلما جلس قال له :
 « كنت أظن يا أبا شجاع أنك ستأتى فى ركب أسد الدين ترشده
 الطريق ! » .

فأدرك شاور أن العاضد قد بدأ يلاعبه فأجابه متجاهلا قصده :
 « مولای إن مطلع القمر لا يخفى على أحد ، وقد رأيت من واجبى وأنا
 وزيرك أن أسبقهم إلى مجلسك لأكون فى خدمتك عند استقبالهم .

فأبدى العاضد ارتياحه لما سمع ثم قال له : « خبرنى يا شاور مارأيك فى هؤلاء القوم ؟ » .

- متبلوهم يا مولاي بنفسك فتعرفهم ..

- إنك خالطتهم قبلى .

- أنت يا مولاي أخبر بالرجال منى .

فأطرق العاضد لحظة ، ثم قال :

- أتدرى يا شاور لماذا سألتك عنهم ؟

- لا يا مولاي ..

- أردت ان أطمئن أنهم لن يتجاوزوا ما جاءوا من أجله فيطمعوا

فيما ليس لهم .

- فى أى شىء يا مولاي ؟

- فى الحكم مثلاً .

فشعر شاور برجفة ، ولكنه تجلّد وقال : « كلا يا مولاي ، لقد عقدت بينى وبين السلطان نور الدين عهدا وليس نور الدين ممن ينقضون العهد » .

- صدقت يا شاور .. الآن اطمأن قلبى أنك ستبقى فى الحكم .

فنظر إليه شاور فى شىء من الارتياح لم يستطع كتمانها ، كأنه

يقول له : « ألسنت أنت الذى سعت أمس فى عزلى ؟ » .

فمضى العاضد يقول : « لاريب أنك تعلم يا شاور أنى استتجدت

بنور الدين ليخلص البلاد من بغى ضرغام .. ويعيدك أنت .. ألم يطلعك

نور الدين على كتابى هذا ؟ » .

- لعل الكتاب ورد إليه بعد سيرنا من عنده .

- كلا يا شاور فقد أرسلته من أول ما حكم ضرغام ..

فحار شاور فيما سمع ، إذ لم يستطع أن يتبين صدق دعوى العاضد من كذبها فأجابه قائلاً :
 - شكراً لك يا مولاي على كل حال .. يسرنى أن قد عدت فأترتنى بثقتك على ضرغام من زمن بعيد ..
 - هذه عادتي يا شاور ، أولى الوزير من ثقتي على قدر ما يستقيم ويخلص .

وأعلن العاضد بقدم أسد الدين وصحبه ، فانتقل من منظرته إلى الإيوان ليستقبلهم فيه .
 وترجل أسد الدين وصحبه عند باب القصر ، فوجدوا شاور قد خرج لا ستقبالهم مع الحجاب ، ودخلوا فأعجبهم مارأوا من الزينات التي أقيمت تحية لهم ، فالبساط المفروش في طريقهم ، والأعلام المرفوعة ، وطاقت ورود الرياحين منصوبة في كل ركن ، في أشكال جميلة مختلفة .

ومشوا في ردهات القصر وهم يتعجبون من فخامة ما يرون وجمال ما يشهدون حتى لم يستطع أسد الدين أن يملك نفسه من الدهش ، فمال على ابن أخيه الذي كان يسير بجانبه فهمس في أذنه قائلاً : « أين صاحبنا المسكين نور الدين من كل هذا يا يوسف ؟ »

فأوماً إليه صلاح الدين أن يملك نفسه الآن لئلا يغض ذلك من قدره عند هؤلاء ، فأمسك أسد الدين وواصل سيره حتى إذا بلغ باب الإيوان ، نسي ما بهه ابن أخيه إليه ، فوقف يتطلع إلى نقوش الباب وزخارفه وهو يقول : « سبحان الله ! ما أبدع هذا الذي أراه ! » فقال شاور بصوت خفيض : « داخل الإيوان أبدع وأجمل » .

ودنا صلاح الدين من عمه قاصدا فى الظاهر أن يصلح الخلعة العاضدية التى عليه ، ولكنه أراد فى الباطن تنبيهه ، فقال له همسا : « أنت داخل عليه ، فانظر إليه ولا تنظر إلى إيوانه » . فابتسم أسد الدين هامسا : « لا تخف .. إن عمك يعرف سبيله عندما يجد الجلد » .

وقد صدق أسد الدين فيما قال ، فما إن جاز عتبة باب الإيوان حتى مشى قدما صوب العرش لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يحيد بصره عن الشخص الجالس عليه حتى اضطرب العاضد أن ينهض له قبل أن يدنو زائره من قوائم العرش ، وصعد نحوه وهو يضم أطراف خلعته الفضفاضة من السندس الفاخر المزركش ببنايق الفضة وقصب الذهب ، فسلم عليه بإمارة المؤمنين ، فرد العاضد السلام ، وصافحه ثم عانقه ، وهو يقول : « مرحبا بأسد الدين ومندوب نور الدين » . ثم صعد رفاقه الأربعة : فقدمهم واحدا واحدا إلى العاضد ، والعاضد يصفحهم مرحبا ، وكان قد نصب كرسيان عن يمين كرسي الخليفة وشماله ليجلس أسد الدين عن يمينه ، ويجلس الوزير عن شماله ، ولكن العاضد لأمر ما نزل عن العرش ودعاهم إلى الجلوس على الأرائك فى القاعة وجلس هو بين أسد الدين وصلاح الدين من حيث جلس شاور أمامه فى الأريكة المقابلة .

وطاف الساقى عليهم بشراب الرمان المعطر . ثم أوما العاضد فانسحب الحجاب واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق فى القاعة غير كهلين أسمرين واقفين عن يمين العرش وشماله ، لا يتحركان كأنهما تماثلان .

وأخذ العاضد يثنى على نور الدين ، وما يضطلع به من جهاد الفرنج وأنهم لولاه لحاولوا امتلاك مصر ، ولا سيما والوزراء فيها يتقاتلون

دائما على كرسى الحكم ، ولا يهتمون بغير مصالحهم الخاصة ، بل إن بعضهم لا يتورعون عن الاستنجاد بالعدو لتوطيد مركزهم .

وكان شاور قد أحس من أول الحديث أن العاضد يعنيه ، ويعرض به ، فلزم الصمت متجلدا متجاهلا ، وصلاح الدين يراقبه من طرف خفى ، ويلاحظ أثر الحديث فى وجهه ، أما أسد الدين فقد أظهر أنه لم يفهم تعريض العاضد بشاور فبقى ينظر إليه مستحسنا حديثه عن الوزراء عامة .

ولكن لما بلغ العاضد من حديثه إلى هذه الجملة الأخيرة ، اهتز أسد الدين قليلا ، ولاح الشك فى وجهه وهم أن يستوضح العاضد عما قصد ، لولا أن سبقه شاور إلى الكلام فقال وقد ظهر الامتعاض فى وجهه ولم يستطع صبرا : « على رسلك يا مولاي .. إن كان مولاي يعينى ، فإنى ما استنجدت بغير نور الدين ، ونور الدين صديق لا عدو . »

وأبدى أسد الدين ارتياحه لقول شاور .. ونظر إلى العاضد مستفهما ، فما كان من العاضد إلا أن ضحك ، ثم قال : « أنت معذور يا أسد الدين إن أشكل عليك قصدى لأنك لاتعرفنى . ولكن لا عذر لوزيرى شاور » .

قال شاور : « ماذا يعنى مولاي ؟ » .

فقال العاضد محتدا : « هل يعقل عندك أننى قصدت بالعدو نور

الدين ؟ ألم تجد غير نور الدين عدوا حتى ينصرف ذهنك إليه ؟ »

فاضطرب شاور قليلا ثم قال : فمن ذا قصدت يا مولاي ؟

- ويليك ! قصدت الفرنج ، عدونا .. وعدو الجميع !

- لكننى لم أستجد بهم ؟

- ومتى قلت أنا ذلك ؟ إنما كنت أعنى صاحبك ضرغام .. فأسأت

أنت الفهم .

- ضرغام ؟

- نعم ..

وظهر العجب فى وجوه الجميع ، فالتفت العاضد إلى أسد الدين وقال :

- أنت تدرى يا أسد الدين أنى استنجدت بنور الدين ، ليخلص بلادى من ضرغام ؟

- نعم ...

فأدرك شاور حينئذ أن العاضد كان صادقاً فيما زعم .

ومضى العاضد يقول : « أتدرى ماذا حملنى على ذلك ؟ خشى ضرغام على مركزه لما بلغه لحاق شاور بكم فى الشام ، فأراد أن يستنجد بالفرنج فنهيته أنا عن ذلك . فلما لم يتنه وركب رأسه ، لم أجد بدا من الكتابة إلى نور الدين .

ولاح الرضا فى وجوه الحاضرين ولا سيما فى وجه شاور . حتى هم أن يعتذر للعاضد ويشكره ، ولكن صلاح الدين سبقه - وكان قد تلمل لما سمع من العاضد ، فلم يستطع صبراً عن الكلام فقال : « يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن نقع فى رجل قد أسكنه الموت عن الإدلاء بحجته ، وحسبنا أنه قد لقي مصرعه وكفينا شره ! » .

وكانت كلمة مفاجئة بهت لها الجميع ، وتغير وجه العاضد ، وظل ينظر ملياً إلى صلاح الدين ، حتى اعتذر له عمه أسد الدين قائلاً : معذرة يا مولاي إن يوسف ابن أخى لم يزل حديثاً ولم يجرب الرجال بعد ، وإنه سريع التصديق . لأقوالهم وقد خدعه ضرغام عن حقيقة لما قابله !

- وأين قابله ؟

- فى بلبس .

وسرعان ما أظهر العاضد أنه أقتنع وقبل العذر ، إذ قال وقد زال
العبوس من وجهه : « لاملام على ابن أخيك إذن .. فإن ضرغام
يستطيع أن يفتن بمحدثه حتى الشيطان » .
ولم يطل الاجتماع بعد ذلك ، إذ نهض أسد الدين مستأذنا ، ونهض
رجاله فقام العاضد يشيعهم وهو يقول لهم :
- أنتم على الرحب والسعة ، وأى شىء تحتاجون إليه بمذول لكم ،
وأنت يا أسد الدين باب قصرى مفتوح لك ليلا ونهارا ، تدخل عندى
كما تشاء ، فى أى وقت .
وأسد الدين يشكره مرددا ، حتى بلغوا باب الإيوان فودعهم العاضد
وانصرفوا .

٢١

وركب أسد الدين وصحبه يرافقه شاور ورجاله راجعين إلى
المعسكر بالتاج ، وقد اصطفت الجماهير طول الطريق تحييههم ، وتهتف
لأسد الدين وشاور ، وأطلت النساء من شرفات المنازل يتطلعن ويرسلن
الزغاريد .
وفى المعسكر جلس أسد الدين بين خواص رجاله ، ومعهم شاور ،
فتجاذبوا الحديث فيما شهدوا فى القصر ، وما سمعوا من الخليفة العاضد .
قال أسد الدين :
- قد سمعت أنه شاب صغير ولكنى ما كنت أتصوره بهذه الحداثة .
أنا لا أستطيع أن أعطيه أكثر من عشرين سنة .
فقال شاور :
- بل هو دون العشرين ! فى الثامنة عشرة .
- فى هذه السن وعنده كل هذا الدهاء .

- أجل ، لتعلم أنى لست مبالغا فى وصفه لك .
- ومن ذاك الكهلان الواقفان على جانبي العرش ؟
- هذان كبيرا أستاذى القصر .. مؤمن الخلافة .. وزعيم الخلافة !
- وماذا يصنعان ؟
- هما مستشاراه فى كل شىء .. ولا يعصبى لهما مشورة ..
ثم أخذ شاور يقص عليهم بعض ما جرى بينه وبين العاضد قبل مجيئهم ، وكيف حاول العاضد بأسلوبه الثعلبى أن يوغر صدره على أسد الدين ، فلما لم يجد عند شاور ما أراد عاد فأخذ يثنى على أسد الدين ونور الدين . وختم شاور حديثه بأن قال : « بذلك فىأنى لا آمن يا أسد الدين أن يلقاك يوما فيوغر صدرك على ليفرق بيننا فحذار منه » .
- لا تخف يا أبا شجاع .. إنى قد عرفت الرجل اليوم : وفهمت أسلوبه !
- خير ما نصنع يا أسد الدين .. لتتقى شره .. أن تكاشفنى بما يقول لك عنى .. وأكاشفك بما يقول لى عنك ...
- أجل .. سنصنع ذلك .. ولن نمكنه إن شاء الله مما يريد ..
- وأحسن من ذلك كله أن نسرع بخلعه .. ونولى أميرا غيره . فماذا ترى ؟
فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « كلا يا شاور ليس عندى أمر من نور الدين بخلعه .. ولن أقبل على ذلك من تلقاء نفسى إلا فى حالة واحدة » .
- ماهى : ؟
- إذا تبين لى أن فى بقائه خطرا من جهة أعدائنا الفرنج ..
- إنه لن يتورع عن الاتصال بهم عند الضرورة ..

— ٨٨ —

- حيثئذ يكون لنا معه شأن آخر ...
- ثم قام شاور يتفقد حاجات المعسكر من المؤن والمرافق وغيرها ليأمر بإرسالها إليهم ، فلما انتهى من ذلك ودع أسد الدين وانصرف .
- ودنا صلاح الدين من عمه فقال له :
- لقد أحسنت يا عم في ردك على شاور ..
- ماذا تعنى ؟
- أغلب الظن عندى أن هذا الرجل لم يقصد ما قال عن خلع العاضد .. وإنما أراد أن يسير ما عندك ..
- عمن تتحدث يا ابن أخى ؟ أما برحت تشككنى فى شاور ؟
- إنى لا أطمئن إليه أبدا ..
- فالتفت أسد الدين إلى شهاب الدين الحارمى قائلا :
- تعال يا شهاب الدين كن حكما بينى وبين ابن أختك هذا .. ماذا يريدنى أن أصنع بصاحبنا شاور ؟ هل أنقض عهدنا معه وأعلن الحرب عليه ؟
- فأجابه الحارمى ضاحكا :
- لا شأن لى يا أسد الدين بما بينك وبين يوسف .. إن أكن أنا خاله فأنت عمه .. ولست أولى به منك ..
- فقال يوسف صلاح الدين بلهجة الحادة التى لم تتغير :
- أنا م أذكر نقض العهد ولا إعلان الحرب .. وكل ما أريده منك أن تتيقظ له لتأمن شره ..
- فتنهذ أسد الدين وقال :
- والله لا أدرى فى هذا البلد أتيقظ للعاضد أم أتيقظ لشاور ؟!
- تيقظ لهما معا ..

فقال أسد الدين مداعبا ، وقد نهض إلى خبائه ليخلع ثيابه
ويستريح : « سمعا يا صلاح الدين ... سأتيقظ لهما وسأتيقظ لك أيضا
ولخالك !

وتوارى فى خبائه ، وتركهما يضحكان ...
واضطجع أسد الدين فى فراشه لينام ، فاستعصى النوم عليه ، إذ
ظلت كلمات صلاح الدين فى شاور ترن فى أذنيه وتضطرب فى رأسه
فيتقلقل لها جنباه ، ثم نهض فنادى ابن أخيه إليه ، فلما دخل أجلسه
على جانب فراشه فقال له :

- طار النوم من عينى يا يوسف من أجلك ..
- من أجلى ؟ فيم يا عمى ؟
- اسمع .. إياك أن تظن يا ابن أخى أنى لا أقدر رأيك قدره ..
فبدره صلاح الدين قائلا : « أو قد تركت نومك ودعوتنى لتعتذر ؟
ويحك يا عمى ! أمتلى يحتاج إلى اعتذار من مثلك مهما قلت
وفعلت ؟ » .

- كلا .. ما الا اعتذار قصدت .. ولكنى سأطلعك على سر ثقتى
بشاور .. أجل قد آن لى أن أطلعك على هذا السر .
- أى سر يا عمى ؟

- أتذكر ذلك الشيخ الذى زارنى البارحة بعد العشاء ؟
- ذلك الشيخ الأشقر الذى خلوت به ؟
- نعم ..

- قلت لى إنه من كبار تجار الحرير ...
- أجل .. ولكنه لم يحضر ليبيعنى شيئا من بضاعته كما زعمت لك
وللآخرين .. اسمع هذا السر ولا تخبر به أحدا .. إنه صديق نور
الدين ...

- ٩٠ -

- صديق نور الدين ؟
- نعم .. ومن أكبر من يثق بهم .. وقد ظل يكتابه ويراسله سرا من قديم .
- والله يا عمى لقد وقع فى قلبى حين رأيته أن له شأنا ..
- دعنى الآن من حديث فراستك .. فىانى سأحدثك عن علم لا عن محض تفرس وتخرص ...
- أنا مصنع إليك ..
- لولا رسائل هذا الشيخ إلى نور الدين لما وثق نور الدين بشاور ولا استحباب له .. أو قد فهمت الآن قصدى ؟
- نعم أنت تثق بشاور لأن هذا الرجل يثق به ؟
- هو ذاك .. فماذا ترى الآن ؟
- فنهض صلاح الدين قائلا : « نم الآن قيلولتك أولا . فىانى لا أريد أن أطير النوم من عينك ... »
- فجذب أسد الدين وأعاده إلى الجلوس وهو يقول : « ويلك ياشقى ! قد طار النوم من عينى وانتهى .. قل لى الآن ما رأيك ؟ » .
- فى شاور ؟
- نعم ..
- لم يتغير ولن يتغير !
- فأخذ أسد الدين بأذنه فقرصها وقال متغاضبا فى عطف وحنان :
- اخرج من عندى يا عنيد ، ودعنى لأنام .
- وخرج صلاح الدين ضاحكا وهو يقول : نم يا سيدى واطرد هذا الكابوس من رأسك .

ولم يستطع أسد الدين أن ينام قيلولته ، بل لم يستطع بعد ذلك أن يهناً بنومه فى الليل أيضا ، فقد ظل التفكير فى أمر شاور يقلقه ويؤرقه دون أن يعرف لذلك سببا واضحا ، فهو باق على ثقته بشاور ، إذ لم ير منه ما يزعزعها . وما قيمة تخرصات ابن أخيه وعنده هو علم اليقين ؟ لكن شبها خفيا من القلق يتسلل إلى نفسه ، فيتقلقل ظله فى أرجائها كلما طرده من ركن ظهر له فى ركن آخر . حسبك الله يا صلاح الدين ! أنت السبب فى هذا كله .. هيه .. هو الآن مع الملاحكة فى سلام .. وأنا مع الشياطين فى جهاد وصراع ..

وبات يتقلب فى فراشه صاحيا ، حتى رق له النوم فى الهزيع الأخير من الليل فجاد عليه ببعض الوصال .

٢٢

وما كان يعلم أسد الدين أن شاور الذى أرقه التفكير فيه لم يكن تلك الليلة أسعد حالا منه ، فقد ضل فى بيداء الفكر أيضا ، ولم يهتد إلى النوم سيلا ، فكأنهما حبيبان عاشقان فرق بينهما الزمن ، فجمع بينهما الأسى والسهاد ، غير أن الذى أرق شاور ليس الفكر فى أسد الدين ، بل فى العاضد ، وليس الذى سمعه من العاضد ذلك اليوم هو السبب وحده ، وإن كان كافيا لإقلاقه وتأريقه . بل وقع له تلك الليلة حادث خطير ، ضاعف من قلقه ، وزاد من أرقه .

ذلك أنه لما أراد أن يأوى إلى فراشه بعد عشية قضائها فى هم وكبد ، ودخل عليه غلامه ميمون فأخبره أن بالباب رجلا سريا اسمه ابن الخياط يريد أن يقابله فى أمر مهم .

وابن الخياط هذا يعرفه شاور رجلا من أعيان المدينة ، مشهورا بحب الترحال ، له ضياع فى جهة بليس. وغيرها ، ويقتنى فى داره بالقاهرة غرائب الآثار ونوادير التحف يجمعها من رحلاته . ترى ماذا جاء به فى مثل هذه الساعة ؟ وهم شاور أن يقول لغلامه : قل له يرجع لزياتى غدا فى الصباح ، غير أنه لم يقدر من فرط القلق الذى به أن يؤجل لقاء هذا الطارق عسى أن يجد عنده تفريجا لكربه من حيث لا ينتظر .

فارتدى جلبابه الديبقي ، وأخذ خنجره ، فدسه فى وسطه ، ثم نزل ليلقاه فى قاعة الضيوف ، وفى أثناء نزوله لقى ابنه شجاعا يصعد الدرج عائدا من عند آل أبى الفضل فى الفسطاط حيث سمر قليلا عندهم ، فأخبره أبوه بقصة الضيف ، فعجب وارتاب ، وقال : « دعنى يا سيدى أستقبله معك » .

- لا يابنى ، لعله يريد أن يفضى إلى بسر ، ولكن انتظر أنت بباب القاعة لتكون قريبا منى إذا احتجت إليك ..

ودخل شاور القاعة فوجد ابن الخياط واقفا ينتظره :

- معذرة يا أبا شجاع إن أثقلت عليك فى مثل هذه الساعة .. ولكن الحاجة التى أتيت من أجلها تقتضى ذلك ..

- لا بأس يا ابن الخياط .. إنى ما أويت إلى فراشى بعد .. اجلس .. مرحبا بك ..

فجلس ابن الخياط وجلس شاور قريبا منه .

- لا أحد يسمعنا هنا ؟

- لا أحد .. قد نام الجميع .. خير إن شاء الله ..

- خير يا أبا شجاع .. ما دمت قد عدت إلى الحكم فالدنيا بخير ..

- شكرا لك ..

ومضى ابن الخياط يعرب عن سروره بعودة شاور ، وابتهاج الناس ذلك ، وأملهم في استقرار الأحوال في البلد ، ثم قال : « ولكنى لا أكنم عنك يا أبا شعجاع أن سرورى كان يكون أعظم لو تم هذا الأمر غير أن يأتى هؤلاء الغزّ إلى بلادنا ويتصرفوا في أمورنا » .

وقدح الشك حيثئذ في نفس شاور أن يكون هذا الرجل مدسوسا عليه من قبل العاضد ليفسد ما بينه وبين أسد الدين ، ولكنه لم يبد ذلك بل أجابه قائلا : « كلا يا ابن الخياط .. إن هؤلاء لا يتصرفون في أمورنا اليوم ، ولن يفعلوا ذلك ، وإنما جاءوا لمعاونتى على طرد ضرغام بعهد بينى وبين سلطانهم نور الدين ، ثم يعودون إلى بلادهم ونور الدين رجل شريف لا ينقض العهد » .

قال ابن الخياط : « أجل إنهم ربما لا ينوون سوء اليوم ولكن لاتنس أن العاضد لم يطق وجودك من قبل ، فكيف يطيقه اليوم وقد فرضت فرضا عليه ؟ » .

- وما شأن العاضد فيما ذكرت ؟

- لا ريب أنه سيتتهز وجود هؤلاء فينقلب بهم عليك ..

- كلا إنهم أصدقاؤى ولن يقدر العاضد على الإيقاع بينى وبينهم .

- عجباً لك يا أبا شعجاع ! إنك تعرف العاضد وأحاييله ..

وتعجب شاور من قدحه في العاضد وقد ظن أنه من قبله ، ولكنه رأى أن يسايره في الحديث إلى نهايته ، لعله يكشف سره ، فقال له :

- هيهات قد كان ذلك فيما مضى .. أما اليوم فلن يجد له ضرغام

آخر ..

- ٩٤ -

- اعلم يا شاور أن العاضد إن لم ينجح مع هؤلاء ... فسينجح مع قوم آخرين أقوى منهم ...

- من تعنى ؟

- أصدقاءه الفرنج !

فدهش شاور لما سمع وطرب فى الباطن لذكر الصلة بين العاضد وبين الفرنج وإن لم يسمع بعد دليلا عليها من زائرته ، وتوقع أن يسمع الدليل ، وقد تغير رأيه فى ابن الخياط الساعة ، إذ استبعد أن يكون من طرف العاضد ، ورجح عنده أن يكون حسن النية ، يخشى على وطنه أن يقع فى أيدي الفرنج .

- ماذا تقول يا ابن الخياط ؟ الفرنج أصدقاؤه ؟

- لم لا يكونون كذلك ؟ إنهم لا يريدون عصص سوعا .. وإنما يخشون أن يملكها نور الدين فيقوى بها عليهم .. فإشارة من العاضد أو من غيره كافية عندهم لبذل الصداقة والنجدة ...

فعجب شاور مما قال ، وحار فى أمره مرة أخرى ، ولكنه مضى فى حواراه يقول :

- دعنى من هذا وقل لى أولا .. هل اتصل بهم العاضد ؟

- نعم .. ولكنهم لا يثقون بقوته اليوم ويؤثرون لو صادقوا من هو أقوى منه .

- لكن كيف عرفت أنه اتصل بهم ؟

فنظر إليه ابن الخياط مليا ثم قال له : « هل يعينيك هذا كثيرا ؟ »

- نعم ...

- ٩٥ -

- إني كثير الأسفار كما تعلم ، وأحب جمع التحف والآثار والوثائق التاريخية ، وأبذل فيها المال الكثير ، وقد وقعت في يدى وثيقة تثبت ما تريد ...

- أين هي ؟

- عندى .. ولكن لا أستطيع أن أطلعك عليها ولا أحداً غيرك ..

- لمه ؟

- يا أبا شجاع أتريد أن تؤخذ منى وتؤخذ معها حياتى ؟ ولكنى أقسم لك بالله وملائكته أنها بخط العاضد وعليها توقيع وختمه ! ألا يكفيك هذا ؟

فأطرق شاور هنيهة ، ثم قال له : « لكن ماذا جاء بك لتسمعى هذا الذى قلت ؟ » .

- هذا بلدى يا شاور .. وله علىّ حقوق .. أوتظن أن رجال الحكم وحدهم هم الذين عليهم أن يهتموا بخير بلادهم واستقامة أحوالها ؟
- كأنك جئت لتنصحنى وتشير علىّ ؟

- هذا واضح يا أبا شجاع .. أنت رجاء هذه الأمة ومعقد آمالها ..
- فبم تشير علىّ ؟

- قد أشرت عليك بما فيه الخير ..

وسكت شاور قليلا وقد أخذ مرمى الرجل يتكشف له شيئا فشيئا .
إنه يشير عليه بمصادقة الفرنج ، لا ريب فى ذلك ، ولكن لحساب من يصنع ذلك ؟ لحساب الفرنج أنفسهم أم لحساب العاضد ؟ هذا مابقى حائرا فيه ، غير أن قلقه من جهة العاضد جعله يميل إلى ترجيح الاحتمال الثانى . واستجمع شاور كل ما أوتى من فطنة وسرعة بديهته ، فلاح له

— ٩٦ —

الرأى الحاسم الذى ينبغى أن يأخذ به فى هذا الموقف الحرج ، فقرر أن يصدع به وليكن ما يكون !

- إياك يا ابن الخياط أن تريدنى على مصادقة الفرنج ..

- وأى بأس فى ذلك ؟

- أى بأس فى ذلك ؟ هذه خيانة !

- إن لم تصادقهم فسيصادقون العاضد .

- فليذهب العاضد إلى الجحيم .

- العاضد لا يعنينا بل مصلحة البلد ، ليس من مصلحة البلد أن يجيئوا

- فلا يجدوا رجلاً قوياً مثلك يقدر أن يقفهم عند حدود ما جاءوا من

أجله ..

- ويلك ! ليس من مصلحة البلد أن يجيئوا ألبتة .

- هذا لو بقى هؤلاء الغزّ بعيداً عن مصر ، أما وقد وطئوا أرضها ،

فالفرنج آتون لا محالة لنصرك أو لنصر العاضد ..

- احسناً يا خائن ! اخرج من عندى !

فنظر إليه الرجل نظرة ملؤها الحقد ، ثم نهض من مجلسه وهو يقول :

- تسبنى وتطردنى يا شاور ؟ واللّه لتندمنّ على هذا !

- ارجع إلى من أرسلوك ... فانقل إليهم ما شهدت ...

- كلا .. أنا لم يرسلنى أحد ..

- بل أعرف من أرسلك .

- دعنى أختبر فطنتك يا أبا شجاع .. من ؟

- العاضد ... ودهاقينه .

— ٩٧ —

فتنفس الرجل الصعداء ، وابتسم قائلاً : « أما عدت تخاف العاضد
يا شاور ؟ إنه الخليفة وإنه من تعرف ؟! »

- كلا لا أخافه .. انطلق إليه الساعة وقل له إنى لا أخافه ...

- صدقت .. صرت اليوم تخاف أسد الدين مولاك وسيدك !

فاستشاط شاور غضبا ، وانقض على الرجل فطرحه أرضا وبرك
عليه ثم حل عمامته وجعل يكتفه بها ، ودخل شجاع حين سمع الهدة
على الأرض وخلفه ميمون العيد ، فوجد أباه باركا على الرجل ولم
يكذب ينحنى ليعين أباه حتى فرغ أبوه من تكيف الرجل فقام عنه وتركه
يصيح ويرفس الأرض بقدميه .

قال شجاع وقد شعر خنجره : « دعنى أقتله يا سيدى فإنه خائن ! » .

- كلا يا شجاع دعه لميمون .

وخلع شاور حذائه فألقاه إلى ميمون قائلاً : خذ الحذاء يا ميمون
فاضرب به وجهه !

وطفق العبد يضرب وجه ابن الخياط بالحذاء ، وهو يتقلب ذات
اليمين وذات الشمال إلى أن صاح شاور : « حسبك يا ميمون حل عنه
الآن كتافه ! » .

فقام الرجل يئن ويتوجع والدم يسيل من جبينه ومن فمه .

- خذه معك يا ميمون فأوصله إلى الباب .

فساقه ميمون والرجل يترنح كالمخمور حتى إذا بلغ باب القاعة
التفت إلى شاور قائلاً فى غيظ وحقد : « بينى وبينك يوم يا شاور !
ثم خرج ووقف شاور صامتا ولم يجب .

ثم التفت إلى شجاع فوجداه واقفا فى شبه ذهول .

سيرة شجاع

— ٩٨ —

- سمعت الحديث الذى دار بيننا يا شجاع ؟
- نعم يا سيدى سمعت شطرا منه .
- فمال شاور إلى الأريكة فجلس وغرق فى فكر عميق .
- ولم يشعر يعد حين إلا وابنه شجاع قد انفجر ييكي أمامه ، وجعل يقبل رأسه وهو يقول : « ساحنى يا سيدى ... ساحنى » .
- ما خطبك يا شجاع ؟ فيم أسأحك ؟
- فيما أسأت الظن بك على غير حق .
- وأجفل شاور من هذه الكلمة ولكنه تجلد :
- متى يا شجاع ؟ متى كان ذلك ؟
- يوم بلبيس يا سيدى .. يوم بلبيس .
- وسرى عن شاور لما سمع هذا فأخذ ييد ابنه فأجلسه بجواره وأخذ يطبطب على كتفه .وهو يقول :
- لا جناح عليك يا بنى . لقد سآحتك فى هذا منذ ذلك اليوم ..
- لكنى ما تحققت صدقك وصواب رأيك فى ضرغام إلا الساعة .
- الحمد لله .. الحمد لله ..
- وظهر ميمون على الباب .
- ماذا فعلت يا ميمون ؟ أوصلته بخارج السدة ؟
- نعم يا سيدى .
- اذهب إذن لتنام ..
- وما لبث شاور أن عاد إلى فكره وإطراقه ، فهاب شجاع أن يتكلم أو يتحرك فلزم مكانه صامتا إلى أن رفع أبوه رأسه كأنما اهتدى إلى حل ارتضاه :

- ٩٩ -

- كنت فى الفسطاط عند خالتك أمينة يا شجاع ؟
 - نعم يا سيدى .. وهم يسلمون عليك .
 - اسمع يابنى ، إبنى قد عزمت على أن أعجل بزواجك فى الحال ..
 فإن لم يوافق هؤلاء على ذلك اخترنا لك عروسا أخرى !
 فعجب شجاع مما سمع من أبيه :
 - التأخير يا سيدى ليس منهم بل منا حتى تنتهى والدتى من
 حداثها ..
 - فليته حداثها من اليوم .. الحداث لن ينفع من مات .. فلا ينبغي أن
 يضر من عاش .. غدا سنذهب جميعا إلى الفسطاط لتتفق معهم على
 موعد الزواج .
 - أحقا يا سيدى !؟
 - نعم .. أتدرى يا شجاع ماذا أنا صانع ؟ لأقيم لك عرسا تتحدث
 به الناس من المالح إلى أقصى الصعيد !

٢٣

وغدا شاور من الصباح الباكر إلى مخيم التاج ، ليلقى أسد الدين ،
 فأدرك أسد الدين أن أمرا ذا بال قد جاء به فى مثل هذه الساعة ، فقاده
 إلى خبائه ليجتمع به على انفراد ، ولكن صلاح الدين أطل برأسه من
 سجف الخباء ، فحيا شاور ثم قال لعمه : « هل تريد منى شيئا ؟ »
 - إن شئت يا أبا شجاع حضر يوسف هنا معنا .
 وكان شاور لا يرتاح كثيرا لصلاح الدين ، كأنما يحس أن صلاح
 الدين لا يحبه ولا يرتاح إليه ، ولكنه لم يجد بدا من تلبية رغبة عمه أسد
 الدين .

- ليفعل ، لا مانع عندي .. لعلنا نحتاج إلى رأيه .
فلما استقر بهم المجلس قال شاور : « قد جئتكم اليوم بما يستوجب
خلع العاضد عن العرش ، فقد اتصل بالفرنج وكاتبهم » .
قال أسد الدين وقد بدا الاهتمام في وجهه : « وكيف علمت ذلك
يا شاور ؟ » .

فأخذ شاور يقص عليهما حديث ابن الخياط معه وما جرى بينهما
من أوله إلى آخره ، والاثنان يصغيان متعجيين فلما انتهى من حديثه قال
له أسد الدين : « إننا لا نستطيع أن ندين العاضد ، ما لم نطلع على تلك
الوثيقة ، فهل تستطيع أن تحصل عليها ؟ » .

- ما إحال ذلك في الإمكان .. فالرجل لاريب حريص على
إخفائها .. وعنده دور كثيرة ...

- إذن فلا سبيل إلى إدانة العاضد ...

- يكفي أنه بعث هذا الرجل ليستدرجنى ...

- صدقت .. ولكن هذا شيء آخر ...

وهنا اعترض صلاح الدين قائلا : « ولكن ما يدريك يا أبا شجاع
أن العاضد هو البذي بعثه ؟ لم لا يكون هذا الرجل جاسوسا من
جواسيس الفرنج ؟ » .

- فأجفل شاور قليلا إذ أدرك الآن قوة هذا الاحتمال ، وعجب في
نفسه كيف استبعده هو من قبل ، ولم يعطه ما يستحق من الاعتبار .
ولكنه قرر أن يمضى في الدفاع عن رأيه .

- كلا يا صلاح الدين ... ما كان الفرنج يرسلوا إلى رجل مثلي
يعلمون عداوته لهم وصداقته لنور الدين ...

- إنها محاولة ...

قال شاور وقد لاح الضيق فى وجهه : « إن فعلوا ذلك فهم أغبياء » .

ورأى أسد الدين أن ينقذ الموقف فقال : « أيا ما تكن الحال فقد أحسنت عقابه يا شاور إذ وكلت إلى عبدك ضربه بالنعل ... فإن كان الفرنج هم الذى أرسلوه فسيبلغهم فيكبت صدورهم وإن كان العاضد ، فسيبلغه فيكبت » ..

قال شاور وقد سره ما سمع : « واللّه يا أسد الدين ما كنت لأخفى لك هذا الذى حدث لولا حرصى على ألا ندع أحدا يفسد ما بينى وبينك ، سواء كان العاضد أم غيره » .

وأحس صلاح الدين أن شاور قد عناه فى كلمته هذه .. ولكنه تجاهل ذلك ولزم الصمت .

فأجاب أسد الدين قائلا : « هذا محال يا أبا شجاع .. نحن زميلان فى السلاح ، عيب علينا أن ندع أحدا يفسد ما بيننا » .
ونهمز شاور لينصرف ، فقال له أسد الدين : « لم لا تبقى قليلا نتحدث ؟ » .

فأخبره شاور بأنه على موعد مع أهله فى الفسطاط ليسعوا فى تزويج ابنه شجاع .

فصاح أسد الدين مبتهجا : « مرحى يا شاور مرحى ! أجل أرونا يا أهل مصر كيف يكون العرس عندكم .. لكن إياك أن تنسانا فى الوليمة » .

- أنساكم ؟ كيف .. وما قررنا التعجيل بالزواج إلا لتشهدوه . خذ الدعوة من الآن .. للمعسكر كله ..

- ١٠٢ -

- بوركت يا أبا شجاع .. سيجد عسكرنا ما يسليهم ...
- ولما انصرف شاور أقبل أسد الدين على ابن أخيه يقول له :
- « هيه .. ماذا ترى الآن يا يوسف ؟ »
- فى أى شىء ياعمى ؟
- فى شاور ، هل بقى فى نفسك شىء منه بعد الذى سمعت ؟
- نعم !
- لا ، لا .. إنك عنيد لاتطاق ...
- هذا رأى وما ينبغى أن تغضب منه .
- أنت حر ..
- ثم دنا منه صلاح الدين قائلا .. « ثم كيف ياعمى ترك هذا الأمر الخطير يمر هكذا دون أن تصنع شيئا ؟ »
- ماذا تريد أن نصنع ؟
- نجتمع الثلاثة فى مكان واحد ليواجه بعضهم بعضا ، ونسمع أقوالهم ..
- من هم ؟
- ابن الخياط هذا .. والعاضد وشاور ...
- ويليك ! ماذا تقول ؟ أتريدنا أن نثير فتنة فى البلد ولما يمض على قدومنا غير أيام ؟
- بل سنكشف بذلك الحقيقة .. فنتقى الفتنة الكبرى ..
- وأراد أسد الدين أن ينهى النقاش ، فأخذ بيد ابن أخيه ليخرجه من الخباء وهو يقول : « اسمع يا ابن أخى .. أنت شاب بعد .. وأنا شيخ . فلا تجعل اندفاع الشباب يغلب حكمة الشيوخ . »

٢٤

أما شاور فقد رجع إلى الديوان ليطلع على المهم من الشئون ويصرف المستعجل منها ، فلما قضى من ذلك ما أراد ركب إلى القسطنطينة وقصد بيت أبى الفضل ، حيث وجد شجاعا ووالدته قد سبقاه من أول الصباح ، ووجد أبا الفضل فى انتظاره لم يذهب إلى دكانه ذلك اليوم ، فرحب به ترحيبا بالغا ، وأقبلت سمية ووالدتها - وكانتا منهماكنتين فى إعداد الغداء - فرحبتا به .

قال لهم شاور : « إننا دعونا أنفسنا عندكم اليوم إذ هزنا الشوق إليكم فلم نتظر حتى تدعونا » ونظر عند ذلك إلى سمية فتورد خدوها حياء .

فأجابه أبو الفضل ضاحكا : « وما يدريك يا أبا شجاع ألا يكون شوقنا إليكم هو الذى جذبكم إلينا ، ونظر عند ذلك إلى شجاع فابتسم .

قالت أم الفضل : البيت بيتكم على كل حال ... أنتم فى بيتكم .
- اليوم فقط يا أم الفضل ؟

- بل اليوم وغير اليوم يا أبا شجاع .

- كلا يا أم الفضل لا ينبغي لنا أن نقيم فى بيتكم .. عليكم أنتم أن

تقيموا فى بيتنا ...

فلم تدرك أم الفضل قصده إلا حين رأتهم يضحكون ورأت ابتها سمية تنسل خارجة فى لطف وحياء . ثم قاموا إلى المائدة فجلسوا حولها جميعا . وأخذوا يأكلون ويتحدثون فى صفاء وأنس .

وكان أبو الفضل وأهله قد عجبوا فى الصباح لما أقبلت عليهم أم شجاع وقد خلعت عنها السواد وارتدت الزينة ، ثم عجبوا لما فاتحتهم

فى التعليل بزواج شجاع من سمية ، وذكرت أن ذلك قرار زوجها الذى صمم عليه ، وكان مثار عجبهم أن ذلك لم يكن منتظرا من قبل ، وأن شاور لم يفتح أبا الفضل فيه أو يشر إليه ، فأخبرتهم زبيدة أن زوجها لم يفتحها هى ولا ابنها فى ذلك إلا الليلة البارحة ، فازدادوا عجبا .

ولكن زبيدة لم ترض عنهم بما عندها فى تعليل ذلك ، فقالت لهم : « لعل أبا شجاع عزّ عليه أن يرانى متسلّبة فى السواد ، أجزر حزنى على ولدىّ ، فأراد أن يخرجنى سريعا من المأتم إلى العرس » . ثم ترجمت أبا الفضل أن يجيب شاور إلى طلبه لأنها تعلم من خلقه أنه سيستاء كثيرا إذا لم يجب ، فقال لها أبو الفضل : اطمئنى يا أم شجاع فإن رضا زوجك عندى غال وعزيز .

وهكذا لم يحضر شاور إلى بيتهم حتى تمهد كل شيء ، فلم يجد أى عسر فى إقناع أبى الفضل فيما طلب ، ثم لم ينصرف من عندهم عقب صلاة العصر إلا بعد ما اتفقوا على تعيين موعد الزفاف فى أقرب وقت مستطاع ..

أما شجاع وسمية فلا تسل عن ابتهاجهما بهذه المفاجأة السارة التى هبطت عليهما من السماء ، من حيث لم تخطر لهما على بال ، فاختصرت أمد انتظارهما الطويل إلى نصف شهر فحسب . وما نصف شهر ببعيد ، بلى إن نصف شهر فى حساب العاشقين لجد بعيد .

وانهمك البيتان السعيدان فى إعداد ما يلزم لذلك اليوم القريب البعيد ، وكان شاور نفسه أشدهم اهتماما وأكثرهم نشاطا على كثرة ما يضطلع به من مهام الحكم ، وما يشغل فكره من ناحية مصيره

المضطرب . ولم يعلم أحد سواه أن اهتمامه بتأمين ذلك المصير ، هو السبب الأكبر لا اهتمامه بإقامة هذا العرس الكبير .

وأقبل اليوم الموعود ، فشهد أهل القاهرة ، ومن قدموا إليها من مختلف الأقاليم عرسا لم يشهدوا مثله فخامة وبذخا منذ وقت ابنة الوزير طلائع إلى الخليفة العاضد ، بل إن عرس اليوم يفوق عرس الأمس في كثرة من دعوا إلى وليمته من كبير وصغير ، وقريب وبعيد ، ومقيم ونازح ، ثم في الموائد العامة التي نصبها شاور في كل حي من أحياء القاهرة ، وملأها بأفخر الطعام وأشهى الحلوى وأجود الفاكهة بغير حساب ، فطفق العامة يأكلون منها ما يأكلون ، ويحملون إلى بيوتهم ما يحملون .

وزفت سمية إلى شجاع في موكب من شعاع .. وتجاوبت الأنغام ، وتراقصت الأحلام ، ونعم الحب بطيب القرب ، وطاب الوصل ، واجتمع الشمل ، ونادى الحب ولبي الحبيب !

السفر الثانى

١

مر شهران على يوم العرس الميمون ، قضاهما الزوجان السعيدان فى نشوة لم تنقطع ، فكأنهما يومان أو ليلتان .

وما زال الناس يتحدثون عن ذلك اليوم المشهود ، وما رأوا من كرم شاور وأبهته فيقول بعضهم لبعض : أبشروا فقد عاد حكم شاور ، وعاد معه اليسر والرخاء .

وسما شاور وتالأ نجمه فى السماء ، فبدأ كأنما طمس اسم العاضد طمسا ، وأوشك أن يطوى اسم أسد الدين أيضا بين أشعته التى تبهر الأبصار .

سيذهب أسد الدين ويعود إلى بلده عما قليل ، ولن يبقى إلا شاور . أما العاضد فإن لم يخلع اليوم فسيخلع غدا ، ولن يعود إلى طغيانه على أى حال .

هذا ما كان يجول فى أذهان عامة الناس إذ ذاك . وما تحرك به الستهم فيما بينهم ، وهم لا يعلمون ما يدور فى الخفاء بين هؤلاء الأبطال الثلاثة ، ولا ما يحاك أويدير حولهم من الدسائس والخطط فيما وراء حدود البلاد .

هذا العاضد قد اتصل بأسد الدين سرا عقب العرس بأيام ، فشكا إليه من تباير شاور فيما أنفق على عرس ابنه من أموال البلاد ، وجعل يشككه فى قدرته بعد ذلك على دفع ما التزم به من المال لنور الدين .

وهذا أسد الدين قد رأى حقا عليه بمقتضى الاتفاق الودى بينه وبين شاور ، فكاشفه بما قال العاضد فى حقه ، فأكد له شاور أنه سيحبط دسيسه العاضد ويكذب بفعله ما زعم ، وأن الخير كثير ، والمال المطلوب منه على طرف التمام حالما يريد ، ثم مضى فأحضر إليه ثانى يوم ثلاثين ألف دينار نفقة الحملة ، حسبما تعهد به لنور الدين ، أما ثلث الخراج فإنه يستأنيه ريثما يتم جمع الحصاد وضبطه ، إلا إذا تفضل نور الدين فنزل عنه لأهل مصر ، فعهد به بنور الدين سخي النفس، طلق اليدين :

قال له أسد الدين : « أما هذا يا أبا شجاع فلا .. لن يرضى نور الدين أن ينزل عما اشترط عليك ...

- لو استغنى عن أخذ ذلك لكان أفضل له وأكرم حتى لا يقال إنه إنما أنجد مصر حبا فى المال ، ونحن نعلم خلاف ذلك .

- إنك تعلم يا شاور أن نور الدين لا يعنيه المال فى شىء إلا من حيث يستعين به على الجهاد فى سبيل الله ، وبلدكم أغنى من بلده وهو أحوج إلى المال منكم ، وأنتم ترونه واقفا فى وجه العدو يجالدهم وحده عن دياركم وسائر ديار العرب والمسلمين ، فما أحراكم أن تعينوه على ذلك ولو لم ينجدكم بهذه الحملة ، فما بالك وقد اتفقت أنت معه على ذلك ..

- إنى لعلى عهدى له يا أسد الدين وإنما أريد أن أستوهبه ذلك ..

- إذن تستوهبه مالا يملك .. هذا ليس حقه بل حق الجهاد ..

- إنى والله لا أضن' على نور الدين بشىء : فلو كان يأخذ ثلث

الخراج هذه السنة فحسب لكان هينا . أما أن يبقى ضريبة كل عام

فإنى أخشى ألا أستطيع أن أقنع الناس هنا بقبوله ، وأنتم تعرفون حال العاضد معى وتحفزه على ...

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « إنى أعرف نية نور الدين ، فليس المال عنده إلا قوة للحرب ، ونحن نرجو أن تشرّكوا أنتم منذ اليوم فى جهاد الفرنج من ناحيتكم ، وبذلك تقومون بما عليكم ، فلا يجد نور الدين بأسا إذا منعمت المال الذى اشترطه ، بل لعله يتقدم من تلقاء نفسه فيحلّكم منه » .

وهذا العاضد قد اتصل بعد ذلك بشاور أيضا فى السر فقال له : « قد بلغنى ما دار بينك وبين أسد الدين فأرضانى ذلك منك لحرصك على أموال البلاد ، وإذا كان نور الدين يطمع فى مالنا ، فأى فرق بينه وبين أعدائنا الفرنج ؟ ... ثم قال له فى نهاية الحديث : « على كل حال يمكنك التحلل من ذلك الشرط ، لأنك أمضيته عن نفسك وأنت خارج الحكم » .

وانصرف شاور دون أن يبدى للعاضد أى موافقة أو اعتراض ، ولكنه أطل التفكير فيما سمع منه ، ثم لم يشأ أن يفضى به إلى أسد الدين فكتمه عنه فكان ذلك أول الوهن .

ولم تمض على ذلك غير أيام معدودة حتى اتصل بشاور رجل اختلى به فإذا معه كتاب خاص من « مرى » ملك الفرنج ، هذا نصه بعد الديباجة :

« إننا قادمون إلى بلدكم لمحاربة جيش نور الدين المقيم عندكم ، ولا غرض لنا فى محاربتكم أنتم ولا فى احتلال بلدكم ، فإن خلّيتم بيننا وبينهم ، ولزمتهم الحياذ حمدنا لكم ذلك وانسحبنا من أرض مصر بعد

— ١٠٩ —

أداء مهمتنا ، وإلا اعتبرناكم أعداء وقتلناكم معهم وملكنا بلادكم بحد
السيف ، ونحن واثقون بالنصر ، فقد أعدنا جيشا عظيما لذلك ،
وانضم إلينا خلائق كثيرة قدموا إلينا من مختلف بلاد أوربا وسواحل
البحر المتوسط ليحاربوا نور الدين فسنشغله بهؤلاء عن إنجاز جيشه
الصغير الموجود عندكم ، فاحتر لنفسك يا شاور ما يحلو لك .. إما
الحياة وصدقنا وإما القتال وعداوتنا ، ولا شك أنك ستختار ما فيه
المصلحة لك ولوطنك . وقد بعثنا مع رسول آخر نسخة من هذا
الكتاب خاصة بالخليفة العاضد سيسلمها إليه حين يكون جوابك الرفض
لعرضنا هذا أما إذا قبلت ، فلن تسلم إليه ، وقد بدأنا بك لمزيد ثقتنا
فيك وفي حكمتك وقوتك .

حاشية :

إذا لم يعد رسولنا هذا إلينا حملناك تبعة اغتياله ، فسنتطلبك حيثنذ ولن
تنجو منا مهما اعتصمت ، وأينما هربت ، ولو إلى أقصى الدنيا ،
وحاشاك أن تفعل ذلك ، ولكن قد أعذر من أنذر .

حاشية أخرى :

في حالة القبول لا حاجة بك إلى كتابة الرد ، ويكفى أن تشافه
الرسول .

وبعد أن فرغ شاور من قراءته ، أطرق قليلا ، ثم طوى الكتاب
وقال للرسول : « اذهب إلى من أرسلك قل له إنني سأنتظر فيما فيه
مصلحة بلدي » . واكتفى الرسول بذلك وانصرف .

واضطرب فكر شاور بعد انصراف الرسول ، وهم أن يبعث خلفه
من يلحقه ليعيده إليه ولكنه وقف مترددا ، فلم يفعل شيئا ثم غتم
لنفسه : قد فات الأوان !

ثم جلس تراجع نفسه فيما فعل ، فأحس بشيء من الندم ، وهم بأن ينطلق من ساعته فيطلع أسد الدين على الكتاب لينذر به . غير أنه لم يلبث أن استخف هذا الرأي لما قد يثيره على نفسه من الريشة عند أسد الدين ، وأخرج الكتاب فاستعاد قراءته . ووقف مليا عند الحاشية الأخيرة . فسكن جأشه وقال لنفسه : إنى ما خسرت شيئا فما زال زمام الأمر فى يدي ، وأنا بالخيار غدا إن أقبلوا فيما أقاتلهم مع أسد الدين ولما .

وهنا اعتزته رجفة ، فلم يكمل جملة .

وتشجع ثانيا يوم ، فلقى أسد الدين ليرى إن كان قد رابه شيء من أمره ، فلم ير من أسد الدين غير ما يعهد فيه من البشر والإناس ، ولم يسمع منه غير الشكوى التى يرددها من تأخر جواب نور الدين إليه وملله من طول الانتظار . فاطمأن شاوور وتبسط معه فى الحديث .

- يا أسد الدين ألا تكف عن تذكرك وشكواك .. فيم تتعجل العودة

إلى الشام ؟

هل رأيت منا تقصيرا فى حقك وحق رجالك ؟

- كلا يا أبا شعاع .. لقد قمتم بالواجب وزيادة .. ولكن رجالى

ملوا الإقامة فى الخيام .. واشتاقوا إلى لقاء أهليهم ، وأنا أريد أن أعرف ماذا يأمر نور الدين لأتصرف فى شأنى وشأنهم بمقتضاه .

- لا تقلق كثيرا فسيأتيك جواب نور الدين وشيكا ، وآمل ألا

يستعجل عودتكم لنستمع بوجودكم بيننا مدة أطول .

فقال له أسد الدين فى دعابة لطيفة محبة : « آه منك يا شاوور من

مكرك ! إنما تريد ذلك لتوجل دفع ما عليك من ثلث الخراج » .

- ١١١ -

فتضاحك شاور قائلا : « إنك يا أسد الدين لا يفوتك شىء أبدا ..
أجل إنى أريد الحسنين معا طول صحبتك وتأجيل الدفع » .
وقهقه أسد الدين ضاحكا ، ثم قال له وهو يتلفت حوله : « اسمع يا
شاور نكتة تضحكك .. الحمد لله .. ليس هو الساعة بيننا ... »

- من هو ؟

- يوسف ابن أخى .. أتدرى ماذا يقول عنى ؟ يزعم بسلامته أنى
طيب القلب سهل الانخداع ...
وانفجر الاثنان يضحكان .

ثم قال شاور : « لاین أخيك عذره يا أسد الدين ، فإن مظهرك
يخدع عن مخبرك » .

- لكنى أحبه كثيرا يا أبا شجاع .. إنه بطل وسيكون له شأن !

٢

و ذات صباح ورد جواب نور الدين بعد طول انتظار ، فتلقاه أسد
الدين فرحا يفضه بيد مرتعشة من شدة التوق إلى الاطلاع على ما
فيه ، ولكنه لم يكذب يتصفحه حتى غاض الفرح من وجهه وحل محله
الاهتمام الشديد ، فقد ورد فى الكتاب أن الفرنج يجمعون جموعهم
ويعدون العدة لدخول مصر ، فعلى أسد الدين أن يقاتلهم دونها
كما يقاتلهم فى الشام وأشد ، وأنه ما أرسل الحملة للخلع وزير
وإعادة وزير ، بل الغرض الأول تأمين مصر وحمايتها من يد العدو ،
ثم أنذره فى آخر الجواب بأنه يرتاب فى وجود صديق للفرنج .
فعلى أسد الدين أن يأخذ حذره .

واستدعى شاور ، فأطلعه على الجواب ، وكان صلاح الدين يرقب شاور من بعد ليرى أثر الكتاب فيه ، فإذا شاور يستبعد أن يكون للفرنج صديق في مصر ، فلما راجعه أسد الدين في ذلك استدرك ، فقال : « إن جاز أن يكون لهم صديق هنا ، فهو العاضد » .

ولما انصرف شاور أخذ صلاح الدين يشكك عمه من ناحية شاور قائلا : إنه لمح أثر الريبة في وجهه في أثناء قراءة الكتاب ، ثم فهم ذلك من كلامه أيضا ، فحار أسد الدين وداخله الارتياح .

ورأى أن يستشير صديقه أبا الفضل الحريري فأرسل يستدعيه سرا إليه ، فلما سمع أبو الفضل ذلك قال : « كلا يا أسد الدين ، محال محال أن يفعل ذلك شاور ، إنه قد يماطل في المال لأنه يحبه حبا جما ، ويطمع أن يسقطه نور الدين عنه ، أما الخيانة مع الفرنج فمعاذ الله أن يقع فيها شاور ، التمسوا ذلك إن شئتم عند هذا الصنم الذي لم تشاءوا حتى اليوم أن تخلعوه على شدة إلحاحنا عليكم بذلك » .

فقال أسد الدين : « ويحك يا أبا الفضل ! ما عندنا أمر من نور الدين بخلعه ، ولكن إذا ثبت أنه كاتب الفرنج خلعناه في الحال » .

واتصل أسد الدين بشاور ليستطلع رأيه في الخطه المثلى لمواجهة الفرنج إذا أقبلوا ، وكان شاور قد فكر في ذلك واستبعد بالجواب ، فقال لأسد الدين : « إن الفرنج قادمون لقتالكم أنتم وسيطلبونكم حيث كنتم ، فعليكم أن تنتظروا في مكانكم حتى يقتربوا ، وحينئذ تتحرك بجيشك إلى حيث تضع العدو بين جيشك وجيشي فنحلق به من كل جانب وننقض عليه » .

- ١١٣ -

- أليس خيرا من ذلك أن نسير إليهم فنلقاهم بعيدا عن العاصمة ،
حتى إذا كسرونا فى معركة وجدنا خلفنا ظهرا نحتذى به فنعاود الكرة
عليهم ؟

- ربما يكون هذا أفضل لو استطعنا أن نطمئن إلى الظهر الذى نتركه
هنا فى القاهرة .

- تعنى العاضد ؟

- نعم ..

ثم عقد أسد الدين اجتماعا من كبار رجاله ، فبسط لهم خطته ، ثم
عرض عليهم خطة شاور ليقروا أى الخطتين أمثل ، فاحتفلوا بين مؤيد
لهذه ومؤيد لتلك ، وكان صلاح الدين أجهرهم صوتا فى معارضة
الخطة التى اقترحها شاور ، قائلا : إنه ما اقترحها إلا لأمر .

قالوا له : مادليلك على هذا ؟

- ما عندى الدليل الذى تطلبون ، ولكن شاور يزعم أنه متخوف من
خيانة العاضد فقد ثبت أن فى العاصمة صديقا للعدو ، قد يكون
العاضد ، وقد يكون شاور نفسه ، فإن يكن شاور ، فلا ريب أنه أراد
أن يكيدنا بخطته ، وإن يكن العاضد فلن يعجزه أن يحدث حدثا حين
يرى أصدقاءه قد صاروا على أبواب القاهرة إذ لن يعدم من الجيش من
ينشق بهم على شاور .

· قال الحارمى مؤيدا كلام صلاح الدين : « قد فاتك يا يوسف
احتمال ثالث لهذين الاحتمالين ، فلم تذكره » .

- كلا ما فاتنى يا حالى ، ولكنى اكتفيت بهما عنه ،

قال أسد الدين : ماذا تعنيان ؟

فأراد صلاح الدين أن يترك الجواب لحاله الحارمى ، ولكن الحارمى
أوماً إليه أن يجيب هو فقال : « إنها ثلاثة الأتافى يا عمى : أن يكون
صديقهم العاضد وشاور معا مجتمعين !

- ١١٤ -

وعندئذ صاح أسد الدين معجبا : « لله درك يا ابن أخى ! » فنظر إليه الحارمى كأنما يقول له : « ليس هذا من جهة أبيه بل من جهة أمه ! : » .

وأدرك أسد الدين ذلك فطامن من زهوه ، والتفت الحارمى إلى صلاح الدين يقول : « إنك إذن تؤيد الخطة التى اقترحها عمك ... »
- نعم فهى الخطة المثلى :

- ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا !

- أجل ، ولأننا نستطيع بها أن نكشف نية شاور قبل أن يقع المحذور ،
ثم إننا سنكون أقرب إلى حدود الشام وأيسر على نور الدين أن ينجدنا عند اللزوم .

وما أتم صلاح الدين كلامه حتى اقتنعوا جميعا ، فاجتمعوا على الأخذ بهذه الخطة ، فشرعوا يتأهبون للمسير .

وعلم شاور ، فأقبل يناقشهم فى الأمر مدافعا عن خطته محاولا إقناعهم بها ، ولكن أسد الدين أفهمه أنهم قد أجمعوا على هذا القرار .
فلا سبيل إلى العدول عنه . فالتمس من أسد الدين أن يكلمه على انفراد ، فلما اختليا قال له :

- إذن فدعنا نتخلص من العاضد اليوم أو نعتقله .

- اليوم ، والعدو على الأبواب ؟ كلا يا شاور لا أوافق على هذا أبدا . لتكونن فتنة فى البلد ..

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « إذن فسأرى ماذا نستطيع أن نصنع لكم ، أما أنا فليس فى وسعى أن أبرح العاصمة لأدع العاضد يكيد لى ولكم .

قال له أسد الدين ، وقد عاد إليه بعض ثقته بشاور لما سمعه يقترح التخلص من العاضد : ابق إذن في العاصمة ، وامدنا بالرجال والمؤن وسنكفيك العدو إن شاء الله .

فلاح الرضا في وجه شاور ، وقال : « الآن وجدنا ما نريد ، نهزم العدو ونأمن جانب العاضد » .

٣

وسار أسد الدين بعسكره ميمما شطر بلبيس ، فلما أشرف عليها بلغه أن الفرنج قد بلغوا فاقوس في جمع أكبر كثيرا مما قدر من قبل ، فرأى أن يتوقف عند بلبيس ، فعسكر خارجها في انتظار المدد من شاور وأبرد عليه يستعجله .

وقد فزع أهل بلبيس مما سمعوا من قدوم الفرنج ، فخرج وفد منهم يعرضون على أسد الدين العون والمؤن ، فشكرهم وأخبرهم بأن المدد سيأتيهم من القاهرة فلاخوف عليهم .

ومضى يوم ثم يوم ، ولما يأت خير من شاور ، فلم يجد أسد الدين بدا من أن يتحصن داخل المدينة ليرتفق بما فيها من المؤن ، ولأنه خشى أن يسبقه الفرنج إلى احتلالها ، وقد وجد من أهلها ترحيبا ، فلم يتردد .

وتطوع أهلها من كبار وصغار ورجال ونساء ، فأخذوا يعملون مع رجاله ليلا ونهارا في تحصين أسوار المدينة ونصب المجانيق عليها وحفر الخنادق حولها . وقد أدركوا أن هذا الجيش الصغير لن يقوم لجموع الفرنج ، فلم يفت ذلك في عضدهم إذ رأوا من شجاعة أسد الدين ورجاله واستقامتهم واندماجهم مع الصغير والكبير ، ما ألهب حماسهم للود عن الدين والوطن وهم يأملون بعد في وصول الإمداد من القاهرة .

وأقبل الفرنج فأحرقوا بالمدينة وحاولوا اقتحام أسوارها ، فجعلت السهام تنطلق إلى أفرادهم فتغوص في أكبادهم ، والمجانيق تقذف

صخورها على جماعاتهم فتهدمها تهشيمًا ، والحفر المستورة في كل مكان تترى للمتهورين منهم ، حتى إذا أحست مس أقدامهم ، فغرت أفواها فإذا هم في أحشائها لحم أحمر شهى !

ولما أخفقت محاولاتهم لاقتحام المدينة وكثر منهم القتلى ، قرروا أن يحاصروها ليضطروا أسد الدين إلى التسليم حين ينفد القوت منها ، فيضيق أهلها ذرعا به وبرجاله ، فضربوا خيامهم صفوفًا صفوفًا حول المدينة ، فكأنما قامت مدينة جديدة من الخيام ، تتوسطها خيمة حمراء نزل فيها قائدهم مرى ملك بيت المقدس ، وقد وطن نفسه على المقام لحصار طويل .

وكانت المناوشات تجري بين الفريقين متفرقة هنا وهناك ، عند أبواب المدينة أو حول أسوارها ليحول الفرنج دون وصول المدد إلى أهلها . أو ليحول أهلها دون دخول الفرنج إليهم ، فإذا كان الليل تهدأ الفريقان ، فلزم الفرنج خيامهم وسكنت المدينة إلا ما يكون من حراسها المرابطين على الأسوار .

وكان أسد الدين قد آيس من نجدة شاور وتحقق أنه قد خان ، فوطن نفسه على الصبر لحصار طويل . ولذلك اهتم بضبط الأقوات والمؤن في المدينة لسد حاجات أهلها أطول مدة ممكنة ، وأوصى جيشه فتقشفوا وتبلغوا بالقليل ، وكان هو في ذلك قدوة للجميع .

وكان ينام قليلا بالنهار ويبيت طول الليل ساهرا ينتقبل في الأسوار يتفقد الحراس ويرقب خيام العدو من بعيد .

وسمع ذات ليلة جلبة عظيمة من ناحية العدو تردد صداها في سكون الليل وظلامه ، ونظر فرأى المشاعل تضطرب بين خيامهم وسمع تصهال خيولهم ، فنبه رجاله فاستعدوا لمواجهة ما يطرأ ، وقد ظنوا أن الفرنج سيهاجمونهم بالليل ، ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا حركة الخيول تبعد كأنها

- ١١٧ -

انطلقت لتطارد قوما أغاروا عليهم ثم فروا ، فسكن جأشهم واطمأنوا ، ولكن زاد تشوقهم لمعرفة ما حدث .

وتطوع نفر من أهل المدينة فتسللوا من الأسوار وانطلقوا إلى بعض القرى المجاورة ليستطلعوا الأخبار ، ثم رجعوا في الليلة القابلة يروون نبأ عجبا : إن جماعة من الفتيان المصريين قد انقضوا على بعض جنود الفرنج وهم نيام فذبحوهم ثم ولوا فرارا تحت ستار الليل .

وتكرر هذا الفعل ليلة بعد ليلة ، ورجال أسد الدين يرقبون ذلك من الأسوار وهم جدلون مستبشرون ، إلى أن انقطع ذات ليلة ، فلم يعد بعد ما استمر خلال نصف شهر أو أكثر ، فأسفوا واكتأبوا ، ثم علموا بعد ذلك أن الفرنج قد ظفروا بالجماعة واحدا بعد واحدا فقتلوهم إلا قائدهم ، فقد استبقوه أسيرا بينهم .

٤

ولم يكن ما بلغ أسد الدين من نبأ جماعة الفتيان المغاوير صحيحا كله ، وإنما استشهد بعضهم وتفرق الباقون بعد وقوع قائدهم في أسر العدو . أما ذلك القائد الأسير فقد سيق في الصباح إلى خيمة « مرى » ملك الفرنج ، فلما مثل أمامه . وقف منتصب القامة مرفوع الهامة ، يبدى تجلدا غير أن وجهه الشاحب ينبئ عما يطوى بين جوانحه من أسى دفين .

قال له مرى وهو يقلب رسائل بين يديه : « أيها الشاب .. ما حملك على ما فعلت وأنت ابن صديقنا شاور ؟

فأجابه شجاع بصوت أعلى مما يلزم لإسماع مخاطبة : « كلا .. لم يكن شاور صديقا لكم ولن يكون !

- ويلك ! أحقا تجهل ذلك ؟

- بل أعلم علم اليقين أنه ليس كما تعتظن .. أنتم عدو المصريين جميعا

من أصغر صغير فيهم إلى أكبر كبير ، فما بالكم بوزيرهم ؟

- ١١٨ -

فنظر إليه « مرى » متعجبا ثم قال : « هل تعرف خط أيك وتوقيعه ؟

فاضطرب شجاع قليلا وارتعش صوته وهو يقول : « نعم » .
- خذ هذه الرسالة إذن وانظر إليها .

ونشرت الرسالة أمام شجاع ، فاضطربت عيناه بين سطورها ،
ولاح فيهما الذبول والانكسار ، ثم لمعنا لمعانا عجيبا كأنهما جمرتان
متقدتان ، فحملق بهما إلى وجه الملك وقال : « أيها الملك إن الحرب
خدعة . وقد خدعك شاور بما كتب إليك ليشغلك هنا بحصار هذه
المدينة المنيعه حتى يستعد لكم فيطويكم طيا .
فأطرق الملك لحظة ثم قال له : « علام إذن جئت أنت وجماعتك
لقتالنا قبل أيك ؟

- غلبنا الشوق إلى قتالكم .. فلم نستطيع أن ننتظر ...
- إن كنت صادقا فيما تزعم .. فلم كشفت لنا خطة أيك ؟ أردت
أن تحبطها ؟

- نعم .. لأنى على يقين أننا منتصرون .. وإنكم مهزومون .. ولو
لم يلجأ أبى إلى هذه الخدعة . فإن كنت شجاعا فتقدم بجيشك صوب
العاصمة .

- لو أردت لفعلت ، ولملك القاهرة عنوة ..

- هيهات !!!!!

وضاق « مرى » بجواره ، فأمر بجيشه حيث كان ، وكتب إلى شاور
يعلمه بما حدث من ابنه ، ويستوضحه حقيقة نيته ، فرجع الرسول
بجواب شاور يستنكر ما وقع من ابنه ويؤكد بقاءه على العهد ، ويتوسل
إليه أن يبعث بابنه إليه ليعاقبه على فعله ويرجعه عن غيه ، وهم « مرى »
أن يجيبه إلى طلبه ، لو لم يشر عليه رجاله بأن يبقيه رهينة عنده ، ليضمن
وفاء شاور بعهده ، فاستصوب رأيهم .

واستمر الحصار شهرا بعد ذلك ، فأكمل ثلاثة أشهر ، وقد اشتد لضييق على أهل بلبيس ، وكاد ينفد صبرهم من قلة القوات ، وشدة الجهد ، وحرار أسد الدين فيما يفعل حتى هم أن يخرج إلى العدو فينازل جموعهم بجيشه الصغير ، وليقض الله ما يشاء ، فلأن يموتوا جميعا كراما شهداء خير من ذل التسليم للعدو .

وإنه لذلك إذ جاء الفرنج من حيث لا يحتسب . هذا رسول أقبل من عند الفرنج يحمل علما أبيض .

- ترى ماذا ييغون ؟ افتحوا له الباب واثنوني به مكرما .

وقد اختار أسد الدين أن يستقبل الرسول فى خيمة نصبت له بقرب باب المدينة ، لئلا يشهد رسول العدو ما بها من الشدة والجهد .

رفع الرسول خوذته وانحنى محيا لما دخل ، ثم سلمه رسالة ملك الفرنج ، فلما قرأها أسد الدين عجب وسر فى الباطن ، غير أنه اجتهد أن يخفى سروره فتصنع قلة الاكثراث ، وناول الرسالة لأصحابه ثم قال : « قد توقعت أن تطلبوا الصلح آخر الأمر ، ولكنى كنت أظنكم تصيرون مدة أطول من ثلاثة أشهر ، فإنى ربت أمورى لمواجهة حصار عام كامل .

- سيدى القائد :- إن مولاي الملك لا يستحذى الصلح منكم ، بل يعرضه عليكم . وليس الصلح الذى يريده صلح ضعف وعجز ...

- أى صلح يريد ؟ إنه لم يبين ذلك .

- إنه فوزنى أن أشرحه لك إذا قبلت .

- هات ما عندك ..

- سأحدثك عن الباعث أولا لتعرف منه أساس هذا الصلح : إننا ماجئنا لقتال المصريين بل لقتالك أنت وجماعتك ، ولكننا وجدناك اعتصمت بهذه المدينة فحصرناها لئلا نلينا فلم تفعل وآثرت أن تجهد أهلها المساكين معكم حتى يموتوا من الجوع دونكم . وقد رثى ملكنا

- ١٢٠ -

وقائدنا هؤلاء الذين لا ذنب لهم فرأى أن ينزل من أجلهم عن نصر محتوم محقق في المستقبل القريب أو البعيد ..

فتفتح أسد الدين وقال : « نحن والمصريين شيء واحد ، يجمعنا الجنس واللسان والوطن والدين ، ثم يجمعنا العدو الدخيل الذي هو أنتم . وأنا وجماعتي ماجئنا كذلك إلا لقتالكم وتحصين هذا الوطن العربي منكم ، أما بلبيس فما دخلناها إلا برضى أهلها وطلبهم . وقد أعانونا بكل ما يقدون في سبيل الله لا في سبيلنا ، فليحفظ ملككم « مرى » برثائه وبكائه لأولئك الذين لقوا مصارعهم منكم والذين تنتظرهم مصارعهم بعد في الرمال . فالنصر محقق لنا لا لكم ، وكأني بالمدد من نور الدين قد جاء اليوم أو غدا ، وإذن فلن ينجو منكم رجل واحد ليرى الكارثة لأصحابه .

قال الرسول : « رويدك يا سيدى القائد ! إنى رسول صلح لا رسول خصام . وإنما ذكرت الباعث لأخلص منه إلى أساس الصلح ، وهو أن نخلو نحن وأنتم عن البلاد ونتركها لأهلها .

- هذا يحتاج إلى موافقة أهل مصر ..

- قد وافق الوزير شاور عليه .. وما جئنا نعرضه عليك إلا بعد اتفاقنا

معه ..

فاتقد قلب أسد الدين غضبا عند ذكر شاور ، ولكنه تجلد ليخفى مافى قلبه .

- لا بد من حضور مندوب عنه .

- قد حضر مندوبه منذ أمس ... فهو عند ملكنا وسيشهد الاتفاق .

وبعد يومين ترددت في خلاهما الرسل بين أسد الدين « ومرى » ثم عقد الصلح بينهما ، فرحل الفرنج أولا بمقتضى الشرط الذى اشترطه أسد الدين . وبقي أسد الدين ستة أيام يواسى أهل بلبيس ويحاملهم بالتنقل في بيوتهم زائرا شاكرا ، ثم ودعوه بعيون دامعة يوم رحل ، ولم

يعلم إلا فى طريقه إلى الشام أن نور الدين هو الذى استطاع بتدبيره فى الشام أن يفك الحصار عن بلييس ، فقد سير حملات عنيفة هاجمت حصون الفرنج بالساحل والداخل حتى استولت على بعضها فروعهم واضطروهم إلى عقد الصلح فى مصر ليفرغوا لنور الدين بالشام .

٥

أما شجاع قائد الفتيان المغاوير ، وأسير الفرنج فقد أطلقوا سراحه قبل رحيلهم ، وسلمه ملكهم « مرى » إلى مندوب أبيه ليرجع به إلى القاهرة .

وكان أسد الدين قد رغب فى لقائه بعد ما عرف أنه هو ذلك القائد الأسير ، فأرسل فى طلبه فاعتذر شجاع ولم يقبل ، وجعل يتوارى عن الناس ، ولا يكلم أحدا منهم ، فقال أسد الدين لأصحابه : « إن الفتى حجل أن يلقانى مما فعل أبوه ! »
غير أنه قال للمندوب أبيه لما آذنه بالرحيل : « ارجع أنت قبلى وسألحق بك .

قال المندوب : إنى سأنتظرك .

فغضب شجاع غضبا شديدا ، وقال له : « ويلك ! ماشأنك بى ؟ أتريد أن تعتربنى أسيرك ؟ » .

فلم يجد المندوب بدا من تركه فتركه ورحل .

ومضى شجاع يجاهد نفسه ، ويدفع جسمه دفعا حتى دخل مدينة بلييس ، والناس ينظرون إليه متعجبين ويتهايمسون فيما بينهم : « هذا قائد الفرقة .. هذا ابن شاور ... » فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم ، وإنما اتخذ سبيله أما إلى حيث رأى جماعة من جيش أسد الدين ، فسألهم أن يصلوه إلى قائدهم .

- ١٢٢ -

وحفى أسد الدين به وأحسن لقاءه ، فأجلسه بجانبه ، وقال « لله
درك يا شجاع ! لقد بيضت وجوهنا » .
فانبرى صلاح الدين يقول : « أجل ، وباليته استطاع أن يبيض وجه
أبيه ! » .

فنظر إليه عمه نظرة عاتبة .

- دعه يا أسد الدين ، فقد قال خيرا ، إذ تمنى لي أفضل ما تتمناه
نفسى :

قال شجاع ذلك ، وتقلصت قسماات وجهه حتى أشفق الحاضرون
أن يغلبه البكاء ، ولكنه مالبث أن تملك فانبسطت أساريه وهو يقول :
إني جئت يا أسد الدين لأشهر عليك برأى ، فهل تقبله منى وإن كنت
ابن شاور ؟ » .

فأجابه أسد الدين وقد جاشت الرقة فى قلبه حتى بلغت ذروتها :
« نعم ، يا بنى وكرامة عين ! قل ما عندك » .

- إن الأمر يا سيدى أعظم مما بينك وبين شاور ، وما ينبغي أن تعود
هكذا إلى الشام وبينك وبينه هذه القطيعة ، حتى تزيلها وتصلحها لخير
البلد وأهله .

- ولكن كيف السبيل إلى ذلك يا شجاع ؟ وأنت تعلم أن أباك هو
الذى نقض العهد .. ولولا إشفاقى عليك لقلت خان !
- معاذ الله يا سيدى أن تظن به الخيانة .. ولكنه اجتهد فأخطأ وما
هو إلا بشر يخطئ ويصيب .

فتعجب أسد الدين وأطرق مليا ثم التفت إلى أصحابه قائلا : « ماذا
ترون فيما يقول هذا الشاب الكريم ؟ » وأوماً إلى صلاح الدين أن دع
القول لغيرك .

فنظر بعضهم إلى بعض ثم انبرى الفقيه عيسى الهكارى يقول : إن
الله لا يستحي من الحق ، وشاور قد غدر بنا وتواطأ مع عدو الإسلام

- ١٢٣ -

والمسلمين فسجل على نفسه الخيانة السافرة .. هذا مبلغ علمنا فإن كان عند هذا الشاب الكريم برهان على خلاف ذلك فليقل له ماذا قصد أبوه بما فعل ؟ » .

- أحسنت يا سيدى الفقيه .. هذا ما أردت تبينه لكم .. إن شاور كان ولم يزل ينوى التعاون مع نور الدين على قتال الفرنج ، وكان يريد تنظيم ذلك على أساس ثابت بعد أن يستقر له الأمر فى مصر ، ولكن الفرنج باغتونا قبل أن يستعد لذلك فحشى أن يغلبوكم ويغلبونا فيستولوا على مصر ، ويعسر إخراجهم منها ، كما تعسر إخراجهم من بلاد الشام ، فرأى أن يحدد هذه المرة عن حقيقة قصده ليصرفهم عن البلاد . ثم يجاهدكم بعد ذلك متحالفا معكم فى خطوة واحدة .

قال أسد الدين : « ولكن هل يليق به شجاع أن يعدنا بالمدد ثم يتركنا ثلاثة أشهر فى أشد الحصار ندافع الأعداء من مدينة من مدن مصر ، ووزير مصر قاعد فى العاصمة يتفرج علينا ؟ » .
- أشهد لقد هم يا سيدى أن ينجدكم لما بلغه نبأ الحصار ، ولكنه . عدل حين علم أنكم فى منعة ، وأن العدو لم يبلغ منكم شيئا ، وأعلم أن ذلك خطأ منه جسيم .. قولوا ما شئتم فى ذلك إلا أن تصموه بالخيانة ...

- أفما ناقشت أباك فى ذلك يا شجاع ؟
- بلى يا سيدى ، ولكنه صلب الرأس إذا اقتنع بشيء صمم عليه فلم يقدر أحد أن يثنيه عنه ..

- كأنك حضرت هنا بغير مشورته ؟
- أجل أردت أن أحمل الفرنج على محاربتهم ، وإذن لحاربهم بكل ما أوتى من قوة وبسالة ..

ولم يتزعزع أسد الدين عن رأيه فى خيانة شاور ، ولكنه لم يشأ أن يجرح ابنه الطيب فى شعوره إذ مضى فى مناقشته :

- ١٢٤ -

- وماذا تقترح علينا أن نصنع يا شجاع ؟
 - لو عدتم معى إلى القاهرة لتسمعوا اعتذاره ، بأنفسكم ثم تتفقوا معه على شىء بصدد محاربة الفرنج فى المستقبل .
 - ليس لنا أن ننقض العهد الذى أمضيته بمغادرة البلاد .
 - فانتظروا هنا حتى أجيء به إليكم ..
 قال له أسد الدين فى عطف بالغ : « ويحك يا بنى ! إن أباك يكره أن يلقانا ويريد أن يتحلل ما التزم به لنور الدين من ثلث الخراج ...
 - لا بأس أن تنتظروا حتى تروا ما يكون من أمره .
 - كلا يا بنى ، لا بد أن نعود إلى نور الدين فى الحال لنرفع إليه ما حدث فبرى رأيه فيه .

وهكذا انصرف شجاع من عنده بقلب كسير ، وقد حدثته نفسه فى الطريق أن يعود ليذهب مع أسد الدين إلى الشام ، حتى يشرح لنور الدين عذر أبيه عسى أن يقبله فيعود الصفاء بينهما ، ولكنه تذكر زوجته الحبيبة وما تعانیه من قلق عليه ، وهزه الشوق إلى لقائها بعد فراق شهرين طويلين ، فمضى يخب به جواده صوب القاهرة - لا بل صوب دارها بالفسطاط !

٦

. وهذه سمية فى دار أبيها بالفسطاط فى هم وقلق ، وإنها لتخفى من ذلك أضعاف ما تبديه :

ترى ما حال حبيبها الآن ؟ وهل يعود ؟ ومتى يعود ؟
 لقد بلغها أنه لم يقتل ، وإنما وقع فى الأسر ، ثم بلغها أن ملك الفرنج أبقى عليه من أجل أبيه ، وإنما احتفظ به رهينة عنده ، ثم بلغها آخر الأمر أنهم سيطلقون سراحه بعد أن يعقدوا الصلح مع أسد الدين .

ولكن قلبها بقى على حاله دائم الوجيب ، ولكن قلقها لم يزل
يزلزلها بياض النهار ويقلقها سواد الليل .

إنها لتذكر يوم خرج من عند أبيه ضحى وهو دامع العين كسير
القلب ، فأسرع إليها فى حجرتها ، وارتمى فى حجرها ييكى ويتحب ،
فلما سألتها ما خطبه ، قال لها والعيرة تخنقه : « أبى ياسمية .. سيجعل
الناس يقولون عنه إنه خائن ا » ثم مازالت به تواسيه وتهون عليه حتى
سكن جأشه ورقاً دمه ، فما كان أجمله وهو ينظر إليها مبتسما
ابتسامته الساحرة وبقايا الدمع تتلألأ فى عينيه ا

وإنها لتذكر يوم أقبل إليها بعد ذلك بأيام باسم الثغر منشرح
الصدر . يكاد يخرج من إهابه جذلا ومرحا ، فطفق يعانقها ويقبلها تارة
فى الرأس وتارة فى الوجه وتارة فى صفحة العنق ، كأنه ثمل ، فقالت له :
« ماخطبك اليوم ؟ .. أأنت مخمور ؟ قال لها : « نعم أنا مخمور ياسمية
من غير ما يغضب الله .. إنى قد اهديت إلى ما أحمل به أبى على قتال
الفرنج مع أسد الدين . » فلما سألتها : كيف ؟ همس فى أذنها : « صه ،
لا تبوحى بهذا السر لأحد » ، وطبع على فمها قبلة ثم قال : « هأنذا
قد ختمت هذا الفم الصغير على السر الخطير ا » .

ويوم جاء يودعها غداة رحيله ، فوقف أمامها بين التجلد والجزع فى
حالة عجب ، فكأنما كان يستنجد بشجاعته فتعينه ، ويعتمد على حبه
فيخونه ، وكانت آخر كلمة قالها وهو يمسخ دمعها : « ثقى يا حبيبتى
أن الله لن يخذلنى أبدا وأنا أسعى فى جمع كلمة المسلمين » .
يسعى فى جمع كلمة المسلمين ...

أجل .. هذا زوجها وحبيبها هو الذى يقول ذلك ويفعل ما يقول
هذا زوجها هو الذى غاضب أباه فى سبيل الله وانطلق من وراء
ليشن الغارات على جموع الفرنج ، وليس معه إلا شربة قليلة .

- ١٢٦ -

هذا زوجها الذى يحبها أشد الحب وأعظمه حتى لا يكاد يصبر عنها لحظة ، قد رحل عنها ليلبى نداء الواجب لله وللوطن ، ولما ينصل خضاب العرس من كفيها ومن قدميه !

هذا الأمل المنشود الذى ظلت طويلا تحلم به قد حققه الله فى أكمل صورة وأروعها ، لقد تزوجت بطلا يجاهد فى سبيل الله ، ويسعى فى جمع كلمة العرب ، فعلام إذن ياسمية تأسين ؟ وفيم تقلقين وتجزعين ؟ - إنى أحبه حبا ...

- ولكنك هكذا تحبينه أن يكون :

- أجل ولكنى أخاف عليه ..

- تخافين عليه مما يجعله بطلا كما تمنيت ؟ .

- ليته أجل ذلك قليلا حتى يتملى قلبى منه ، وقلبه منى !

- إن لم يكن هكذا اليوم فلن يكون .

كذلك كانت سمية تناجى نفسها لتسكن جأشها وتثبت قلبها ، ولكن هيهات ..

كانت لا تفتأ ترقب الأنباء فى كل لحظة عسى بشير تسمعه يقول : عاد شجاع !

وزاد ترقبها حين سمعت أن الصلح قد تم بين الفريقين فى بلبس ، وأن حبسها يوشك أن يعود مع مندوب أبيه .

ولكن المندوب رجع إلى القاهرة وليس معه شجاع .

لك الله أيها البطل الحبيب ! أى شىء أخرجك ؟ ومن ذا يصدقنى خبرك ؟ يقول المندوب : إنه ألح عليه أن يصحبه ، فأبى ، وسأله أن يسبقه ووعده أن يلحقه ، ليت هذا المشنوم لم يجرى ، فما زادنى بجيئه إلا قلقا على قلق .

ومضى على وصوله يوم ثم يوم ، وهذا اليوم الثالث قد أوشكت شمس أن تغيب وما من نبأ عن الحبيب ..

- ١٢٧ -

ترى ماذا جرى لك يا زوجي الحبيب ؟ خشيت من غضب أيك فلم
تشأ أن تعود ؟ خجلت من صنيعة فكرهت أن تراه . ولكن كيف
تنساني يا شجاع ؟ كيف تنسى سمية زوجك وحيبتك ؟
وإنها لفي هذا البحر من القلق والخيرة ، ولم يكن في الدار معها غير
الجارية مسيكة ، فأمرها تزور بعض الجيران ، وأبوها خارج البيت كعادته
بعد العصر ، إذ صاحت مسيكة من عند الشباك : « مولاتي ! مولاتي !
هذا زوجك قد وصل ... »

فاستحقت مسيكة حلوان البشير !

- أين هو يا مسيكة ؟

- في الفناء يربط فرسه .

وعرا سمية ما عراها من ذهول وارتباك . ماخطبها ؟ أليست فرحة ؟
بلى ! إن فرحها لعظيم ، ولكن هلا تأخر قليلا حتى تنهيها للقاءه ؟
وناداه صوت من باطنها يهديها السبيل ، المرأة باسمه ! أسرعى إلى
المرأة ، أين هي ؟ في حجرتك ! انطلقى إلى حجرتك !
وانطلقت كالشهاب !

تعالى يا مسيكة .. أنجديني يا مسيكة . ناوليني الحلة . كلا ليست
هذه .. التي يحبها زوجي .. اللازوردية .. أجل هذه .. ساعديني
شعري ! ناوليني المشط . العطر .. قنينة العطر .. رشى على شعري .
والعقد .. أين عقدي اللؤلؤى ؟ هاتيه ...

ونادى صوت من جهة البهو : سمية ! !

هذا صوته يا مسيكة ، صوته حقا .. صوت شجاع !

وخرجت تنهaddy في حلتها ..

سمية !

شجاع !

واعتنق الحبيبان هذا أسمر ضامر ، وهذه شقراء ممشوقة ، فكأنهما
فيما يرى الخيال ، فارس من جيش العرب الفاتحين ، قد ضمَّ إلى صدره
عروسا حسناء من بنات أقيال الروم !

٧

ودعا شجاع زوجته لتعود معه إلى مسكنها عند أهله بدار الوزارة
في القاهرة ، وهمت سمية أن تطيع ، ولكن أباه عارض في ذلك ،
فوقفت حائرة .

ذلك أن أبا الفضل كان قد هاله ما فعل شاور ، فكلمه في نجدة أسد
الدين ، إذ لا يليق الغدر به هكذا وتركه يقاتل الأعداء دفاعا عن أرض
مصرية ، وأهل مصر واقفون يتفرجون ، ولكن شاور أصر على موقفه .
من لزوم الحياء ، وأخذ يسطر الأسباب التي تدفعه إلى ذلك ، وجعل أبو
الفضل يناقشه ويشرح مافي عمله هذا من الخطر على البلاد ومن سوء
الاحدوثة على نفسه ، مما قد يفضي إلى سقوط حكمه ، فيماريه شاور
ويغالبه بفصاحته وقوة حجته حتى ضاق أبو الفضل ذرعا ، فقال له :
ويلك يا شاور إن الله قد فتق لسانك ولكنه طمس قلبك ..

فقال شاور : « يا أبا الفضل ، يدك في الماء ويدى فى النار ، أنت
غير مسئول إذا وقعت البلاد فى قبضة الفرنج ، ولكن أنا المسئول .

— ولذلك تحالف الفرنج على أسد الدين ؟

— معاذ الله .. ولكنى أؤجل قتالهم إلى يوم أمثل .

وهكذا أيس أبو الفضل من هداية شاور إلى الحق ، فعالنه بالقطيعة
وصارحه بالعداوة ، وغالى فى ذلك حتى منع امرأته من زيارة أختها
زوجة شاور . وقد همت سمية إذ ذاك أن ترح دار شاور وتلتحق بأهلها
لولا أنها أشفقت على زوجها الحبيب الذى تعرف سخطه على خطه

أبيه ، فبقيت هناك حتى رحل شجاع ليجاهد الفرنج فلحقته هي بأهلها ولم تستمع لرجاء أبيه وأمه أن تبقى عندهم .

وأقبل شاور يزورها في بيت أبيها لما وقع شجاع في أسر الفرنج ليثبت قلبها ويؤكد لها ألا خوف عليه منهم ، وأنهم سيطلقون سراحه عما قليل . وكانت تنوء بالهم الثقيل فلم تملك أن قالت له : « وماذا عليه إن قتلوه ؟ سيذهب إلى ربه شهيدا ويتحمل تبعته قوم آخرون !

وحضر أبو الفضل فوجد شاور في بيته فلم يسلم عليه .

- ماذا جاء بك إلى بيتي ؟ إنني لا أريد أن أرى وجهك !

- جئت لأرى زوج ابني !

- ابنك نفسه قد خرج عليك وكره عملك فما شأنك بعد بزوجه ؟

- شاب لا يدرك أنني فعلت ما فيه الخير لمصر ..

- هذا عار .. هذا عار لقد جللت وجه مصر بالعار !

- يا أبا الفضل تذكر أن بيننا رحما وقرابة ..

- لا رحم ولا قرابة بيننا اليوم ...

فنهض شاور مغضبا وهو يقول : « لكنني سأظل أراهما على رغم أنفي » .

- أتوعدني ؟ أفعل ما بدالك ..

- أقتل العجز عجز القادر !! قال ذلك وخرج ..

وقفت سمية اليوم حائرة لا تدري أتطيع زوجها أم تطيع أباه ، وتقدم شجاع إلى أبيها يستعطفه ويناشده فأبى أن يجيبه إلى ما أراد .

- أنت بمكان ابني يا شجاع ، فأقم هنا بيننا عند خالتك وزوجتك .

- ولم لا تقيم هي عند زوجها وخالتها ؟

- كلا ، لن أذن لابنتي أن تقيم في دار خائن لدينه ووطنه .

فصمت شجاع مليا وقد ساءه ما سمع في حق أبيه ، وهم أن يشور على حميه فيكذب ما زعم ، ولكنه أثر الإغصاء ، إذ تذكر أن أبا الفضل

سيرة شجاع

قد قال كلمته خلصا ولم يقصد بها التغيير ، وأن ذلك ليس رأيه وحده بل رأى سائر الناس ، وأنه فوق ذلك والدسمية .

وحار شجاع ماذا يفعل ؟ أقيم فى بيت حميه كما اقترح ؟ إن أنفته تحول دون ذلك . أيقاضيه ليحكم له بالطاعة ؟ ولكن سمية لم تعصه ولم تنشر عليه . وماذا يكون شعورها نحوه لو فعل ؟ وهو يعلم أنها تحب أباهما حبا جما ، أفيجدر به أن يغضبها فيه ؟ وأى حب أم أى حنان بين الزوجين ، يبقى على حاله ، إذا صار سر بينهما كرة تتقاذفها الصوالج فى المحاكم ؟ وألح الهم على شجاع ، ولج به الأسى والحنين ، فأخذ ينطوى على نفسه ويميل إلى العزلة والوحدة ، حتى أشفقت أمه عليه وجعلت تنحى باللوم على زوج أختها وتسفه عمله ..

أما شاور فكان قد لام ابنه حين رجع من بلبس ، وعاتبه على ما كان منه من التهور والاندفاع دون الرجوع إليه ، فدافع شجاع عن نفسه متمسكا بصواب ما فعل حتى غضب شاور فأغلظ له القول وأسمعه ما يكره . وكره الولد البار أن يسىء الأدب مع أبيه فسكت ولم يرد عليه .

ولكنه ظل بعد ذلك زمنا لا يجلس إليه إلا إذا أمر ، ولا يكلمه إلا إذا بدأه بالحديث أو وجه إليه سؤالا فيرد عليه ردا مقتضيا ، ولكن مع كمال الأدب .

وجاءت محنة سمية فزادت الهوة بينه وبين أبيه اتساعا . قالت له أمه : « لا جق لك يا شجاع أن تحفو والدك هذه الجفوة من أجل أن سمية قد منعها والدها عنك » ...

- معاذ الله أن أجفو أبى يا أماء .. ماذنبه هو فى ذلك .
- إذن فمن أجل السياسة التى اتخذها .. ويمحك يابنى ! إن أباك أعرف منك بهذه الشتون . دع الناس يقولون عنه ما يقولون ، فأكثرهم لا يفقهون .. أما أنت فلا ينبغى أن يخاطبك شك فى أهلك .

- ١٣١ -

— كلا لا تظني يا أماه أني أظن بأبي ما يظن الناس .. فحاشاه من ذلك .. ولكنه نخانه الصواب فيما رأى وشكك ..
— كلا إنه لا يخطيء أبدا في رأى أو عمل ..
أشفق شجاع أن يغضب أمه فتركها تقول ما تريد ..

وعز على شاور ما يرى من حال ابنه ، فأخذ يتألفه ويتودد إليه حتى دعاه ذات يوم ، وكانت أمه جالسة معه فجلس شجاع بينهما فأخذا يلاطفانه ويياسطانه ، فلما اطمأن بهم المجلس شرع شاور يشرح لابنه ما خفى عليه من أسرار سياسته بأسلوبه البليغ وبيانه الواضح ، وكلماته الموجزة الحزمية ، فذكر له أنه كان يعلم ما بين العاضد والفرنج من الصلة والاتفاق على أن يثب العاضد بالقاهرة حين يخرج شاور بجنوده منها لنجدة أسد الدين ، فلو أنه فعل ذلك لضاعت البلاد ، ولفنى جيش أسد الدين على بكرة أبيه ، فقد أنقذ هو البلاد بسياسته هذه وأنقذ أيضا جيش صديقه وحليفه نور الدين . وقال له : « إنك تعلم يا بنى أننى طالما ألححت على أسد الدين بخلع العاضد ، فلو أنه خلعه لما حدث شيء مما حدث ، ولكنه خالفنى فأبقاه ، ثم إنى أشرت عليه بعد ذلك ألا يبرح القاهرة بجنده بل يبقى حولها ، فإذا جاء الفرنج قاتلناهم دونها من غير أن نخشى غدر العاضد ، فخالفنى أيضا ورحل مسرعا إلى بلييس ، وطلب منى أن أنجده هناك ... »

وهنا تكلم شجاع بعد ما لزم الصمت طول الوقت مكتفيا بالإصغاء ، فقال : « كان فى إمكانك يا سيدى أن ترسل إليه المون فتغيث أهل بلييس » .

قال شاور وقد لاح السرور فى وجهه : « أحسنت يا بنى إذ سألتنى .
إنى قد شرعت أرسل إليه ولكن الفرنج استولوا على ما أرسلت ،
فخشيت أن يتقوا بذلك عليه فقطعته . ألم يبلغك ذلك يا بنى ؟ » قال

- ١٣٢ -

شجاع : « بلى يا سيدى ولكن الناس فى تلك الجهة قد ظنوا أنك أرسلته لإغاثة الفرنج أنفسهم » .

قال شاور : « هذا ما خشيتة أيضا وتوقعته يا شجاع ما أسرع ما يسمي الناس الظن . أنا مظلوم يا بنى ، أنا مظلوم ! » .

ورأى شاور وجه ابنه قد تبلج عن بعض الرضا ، فمضى يقول له : « سلنى أيضا يا بنى ، سلنى عما يشكل عليك لأشرح لك كل شيء » .

- ما عندى الدليل الذى تطلبون ، ولكن شاور يزعم أنه متخوف من خيانة العاضد فقد ثبت أن فى العاصمة صديقا للعدو ، قد يكون العاضد ، وقد يكون شاور نفسه ، فإن يكن شاور ، فلا ريب أنه أراد أن يكيدنا بخطة ، وإن يكن العاضد فلن يعجزه أن يحدث حدثا حين يرى أصدقاءه قد صاروا على أبواب القاهرة إذ لن يعدم من الجيش من ينشق بهم على شاور .

قال الحارمى مؤيدا كلام صلاح الدين : « قد فاتك يا يوسف احتمال ثالث لهذين الاحتمالين ، فلم تذكره » .

- كلا ما فاتنى يا خالى ، ولكنى اكفيت بهما عنه .

قال أسد الدين : ماذا تعنيان ؟

فأراد صلاح الدين أن يترك الجواب لخاله الحارمى ، ولكن الحارمى أوما إليه أن يجيب هو فقال : « إنها ثلاثة الأنافى يا عمى : أن يكون صديقهم العاضد وشاور معا مجتمعين !

وعندئذ صاح أسد الدين معجبا : « لله درك يا ابن أخى ! » فنظر إليه الحارمى كأنما يقول له : « ليس هذا من جهة أبيه بل من جهة أمه ! » .

وأدرك أسد الدين ذلك فطامن من زهوه ، والتفت الحارمى إلى صلاح الدين يقول : « إنك إذن تؤيد الخطة التى اقترحها عمك ... »
- نعم فهى الخطة المثلى :

- ١٣٣ -

- ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا !
- أجل ، ولأننا نستطيع بها أن نكشف نية شاور قبل أن يقع المحذور ،
ثم إننا سنكون أقرب إلى حدود الشام وأيسر على نور الدين أن ينجدنا
عند اللزوم .

وما أتم صلاح الدين كلامه حتى اقتنعوا جميعا ، فاجتمعوا على
الأخذ بهذه الخطة ، فشرعوا يتأهبون للمسير .
وعلم شاور ، فأقبل يناقشهم فى الأمر مدافعا عن خطته محاولا
إقناعهم بها ، ولكن أسد الدين أفهمه أنهم قد أجمعوا على هذا القرار .
فلا سبيل إلى العدول عنه . فالتمس من أسد الدين أن يكلمه على
انفراد ، فلما اختليا قال له :

- إذن فدعنا نتخلص من العاضد اليوم أو نعتقله .
- اليوم ، والعدو على الأبواب ؟ كلا يا شاور لا أوافق على هذا
أبدا . لتكونن فتنة فى البلد ..
- أريد أن أسالك يا سيدى عن ثلث الخراج .. ذاك الذى التزمت به
لنور الدين .

- هذه مسألة هينة . فقد قلت لأسد الدين إنى سأفهم فى ذلك مع
سيده نور الدين ، فإن نور الدين ، رجل عظيم لا يهمه المال ، وما
أرسل حملته معى إلا ابتغاء مرضاة الله بحماية هذا القطر العربى ، وتأمينه
من خطر الفرنج .

- فلم لا تكذب إلى نور الدين يا سيدى فتشرح له عنك ؟
- سأفعل يا بنى .. سأمر صاحبك القاضى الفاضل أن يتولى كتابة
ذلك بأسلوبه وإنشائه .

وكانت زبيدة تصغى إلى الحديث معجبة بفصاحة زوجها وقوة حجته
وتتابع بصرها ما يحدثه من الأثر فى وجه ابنها ، فلما رآته قد سكت
سكوت المقتنع انبرت تقول :

— ١٣٤ —

— هل اقتنعت الآن يا شجاع ؟

— نعم ..

— هل بقي في نفسك شيء ؟

— لا يا أماء ..

— قم يا بني إذن وقبل رأس أبيك !

— حبا وكرامة يا أماء ...

وقام شجاع وقبل رأس أبيه ، فعانقه أبوه عناقا حارا وهو يقول :
« لقد فقدت أخويك طيعا وسليمان .. أفينبغي أن أفقدك أنت أيضا يا

شجاع .. أفقدك وأنت حي ترزق ؟

فاستعبر شجاع وهو يلثم كف أبيه ويقول : « كلا يا سيدى لن
تفقدنى أبدا ما حييت » .

فقامت زبيدة تعانق ابنها وهي تقول : « الحمد لله يا بني ! الآن قرت
عينى بك » .

وانزاح عن كاهل شجاع كفل من همه ، فاستنار فكره ، وأخذ
يقلب الرأى فى أمر سمية ، كيف يقنع والدها ليعدل عما تشبث به ،
فهدها الفكر إلى أن يستعين عليه بصديقه القاضى الفاضل ، وعجب
كيف لم يخطر له هذا من قبل .

ولبى القاضى رغبة شجاع ، فركب إلى أبى الفضل ، فناشده أن
يرحم ولديه شجاعا وسمية ، فكفى ما فرق بينهما لغير ذنب جنياه فما
ترر وازرة وزر أخرى ، وذكره ألا حق له فيما يفعل ، فلو أن شجاعا
قاضاه لحكم له عليه ، وما زال به كذلك حتى رضى أبو الفضل .

وهكذا عادت سمية إلى بيت زوجها ، فكان ذلك من أسعد أيامها
وأيامه .

غير أن القطيعة بين أبيها وأبيه ظلت على حالها ، بل اشتدت بعد ذلك اشتدادا خطيرا .

ذلك أن شاور لما رأى سوء رأى الناس فيه بعد الذى حدث من خذلانه أسد الدين وإيثاره الفرنج عليه ، رأى أن يشرح لهم حقيقة مسلكه ويقيم لهم عذره . هذا ابنى قد شك فى ثم اقتنع ، فلم لا أصنع مثل ذلك مع الناس ؟ ثم هذا العاضد لى بالبرصاد ، فلن يغفر لى أبدا تحريض أسد الدين على خلعه ، وسيسعى لا ريب إلى إسقاطى ، وسيجد من سحق الناس علىّ عوناً له على ما يريد .

فأخذ شاور يفتح بابه للناس من جميع الطبقات ويدعوهم إليه فيشرح لهم أسرار سياسته ودوافعها ، وما عادت به على البلد وأهله من الخير وحسن العاقبة ، ومن كشاور فى حسن الإقناع ؟ . ثم اختار من بينهم دعاة أذنانهم وحباهم لينشروا فى الناس ما سمعوا منه .

ولم يلبث أن ظهر أثر ذلك فى الناس ، فأخذوا فى مجالسهم وفى الشوارع يتناقشون ويتجادلون فى هذه الشؤون ، من مقتنع بسياسة شاور قد أصبح يدافع عنها ، ومن منكر لا يزال يندد بها ويصمها بالخيانة والغدر ، ومن مذبذب بين ذلك لا إلى هؤلاء إلى هؤلاء ..

وكان أبو الفضل وجماعته قد قرروا قبل ذلك وجوب السعى لإسقاط شاور لما ثبت عندهم من خيائته للدين والوطن ، وقد كتب أبو الفضل إلى نور الدين يعلن براءته وأهل مصر مما فعل شاور ، ويناشده أن يعيد أسد الدين فى حملة أخرى لتخليص مصر من هذا الذى خان الملة والوطن . وقد كان يرى من سحق الناس على شاور أكبر عون للحملة الثانية على أداء مهمتها إذا أتت .

فلما رأى هذه الفتنة التى انتشرت فى الناس من عمل شاور ودعائه ، هاله أن يضل الناس هذا التضليل فيعرض لهم الباطل فى صورة الحق والحق فى صورة الباطل ، فعول هو وجماعته على مقاومة هذه الدعوة ، ومناقضتها ومقارعة الحجة بالحجة ، فانتشروا فى الناس يدعون ويدكرون .

وكان أبو الفضل أشدهم تحريحا لسياسة شاور وتنديدا بما اجترم ، حتى انتبه شاور لشأنه فبعث إليه من ينهاء عن ذلك ويتوعده . فلم يبال بوعيد شاور ، ومضى فى التأليب عليه ، فأرسل إليه القاضى الفاضل عسى أن يقنعه لما بينهما من المودة والصداقة ، ولكن القاضى الفاضل لم يقم بما أرسل من أجله ، بل أسر إلى صديقه أبى الفضل أن يحتبئ أو يهرب فى الحال لأن شاور قد قرر القبض عليه ، لا من أجل لسانه بل خشية أن يكتب إلى نور الدين ويحرضه عليه ، فقد عزم شاور أن يبعث رسالة إلى نور الدين ليشرح له فيها عذره وحسن نيته فيما فعل ، وكلفه هو أن يتولى إنشاء هذه الرسالة ثم قال له : « لا ضير أن تحتجب أنت ، فى جماعتنا الكفاية ، وهم سيواصلون الحملة عليه » .

قال أبو الفضل : « صدقت يا عبد الرحيم .. الحمد لله إذ لم أطلع هذا الخائن على سر جماعتنا ، إذن لقضى اليوم عليهم جميعا » .
— اسمع يا أبا الفضل .. إنى سأدأب من اليوم على القدح فىك حتى لا يرتاب الرجل فى أمرى ..

— افعل يا عبد الرحيم .. قل فى ما تشاء عنده .. هذا ينبغى ..
ورجع القاضى فقال لشاور : « إنه قد وعدنى بالكف ، ولكنى أخشى ألا يفى بما وعد ، فإنه شديد الحقد عليك ... »

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انطلق رجال شاور يبحثون عن أبى الفضل فى كل مكان ليقبضوا عليه فلم يعثروا له على أثر

واستدعى القاضى الفاضل لمقابلة شاور !

— ألم يخبرك أبو الفضل بأنه سيهرب ؟

— ١٣٧ —

— لا يا سيدى الوزير ، أوقد هرب ؟
 — إنهم بحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه .
 — أرى أن ترسلوا فى طلبه فى طريق الشام ، فلعله أراد اللحاق بنور
 الدين ليحرضه عليك . ما علمت أنه رجل حقوق قليل المروءة إلا اليوم ...
 — قليل المروءة ...
 — نعم ... أتدرى ماذا قال لى لما ناشدته بحق الصداقة أن يكف عنك
 ؟ قال لى : « لا تذكر الصداقة ، فقد نسيتها يا عبد الرحيم ونسيت
 فضلى عليك إذ جئت فقيرا لا عمل لك .. فرشتك ، ثم قدمتك » ،
 فلم أملك نفسى أن قلت له : « احسب ما أنفقت علىّ إذ كنت فى
 ضيافتك لأدفعه لك » ، وخرجت من عنده غاضبا .
 — خشى منك أن تحرضنى عليه فهرب .
 — لو كان ذا مروءة تامة ما ظن بى ذلك .
 وأعلم شجاع سمية بالحادث ، فكان عليهما محبة جديدة كدرت
 صفو لقاتهما قبل أن ينعما به إلا قليلا ، يايجهما ! أو قد قضى عليهما
 ألا يخلصا من محنة إلا إلى محنة ؟ أكتب عليهما ألا يضمهما بساط وثير
 من الورد والريحان حتى يجدوا شوكا يخرجهما من خلاله ؟
 ولاذ الحبيبان بحجرتهما حيث جلسا واجمين ، ماذا عسى أن تقول
 هى ، وماذا عسى هو أن يقول ؟ هى فى جزع على أبيها وقلق ، وهو
 فى حجل مما صنع أبوه . الدمع الصامت يسح من عينيها ، والدمع
 الصامت يترقرق فى عينيه !
 ودخل شاور عليهما فجأة فاستويا قائمين ، ولكن ظلا على حالهما
 واجمين . وحياهما فردا التحية بالإيماء .
 وطفق شاور يعرب عن أسفه لما حدث ، ويقسم لهما أنه لم يكن فى
 نيته قط أن يلحق بأبى الفضل أذى أو يحسه بسوء ، وقصارى ما كاد
 منه أن بعث إليه مرة بعد مرة ليكف عن التشهير به وتحريض الناس عليه

ولما لم ينته عن ذلك أراد أن يجتمع به ليناشده بنفسه ، فأرسل فى استدعائه فلم يجده ، وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يلقوا له على أثر ، ثم أقبل على سمية خاصة فقال « غفر الله لأبيك ياسمية ، لقد ظن أنى سألقى به أذى فاستخفى منى ، والله مانويت ذلك ولا فكرت فيه ولو فعل ما فعل . وسأجهد فى طلبه حتى أزيل ما فى نفسه منى ، فيعلم أنه فى أمان مهما يفعل » .

ثم جعل يمسح على رأسها فى حنان وهو يقول : « لا تبئسى يابنتى . فلن يصيب أباك أى سوء » .

ولما خرج شاور من عندهما أقبل شجاع على زوجته يقول : « اطمئنى الآن يا حبيبتى ، وثقى أن أبى لا يكذب أبدا » . فنظرت سمية إلى زوجها فى رقة وعطف ، ولكنها لم تجب .

٩

وظل رجال شاور يطلبون أبا الفضل فى كل مكان دون أن يجده ، فانقطعوا . وانتظر شاور أن يظهر نأ عنه عند نور الدين بالشام ، فلما لم يظهر شيء وأبلغه أن نور الدين يستعد للانتقام منه ، رجح أن أبا الفضل هناك ولكنهم كتموا وجوده .

أما أبو الفضل فقد اختبأ عند أحد جماعته ، ثم صار يتنقل عندهم من بيت إلى بيت كلما أحس بخاطر عليه ، والجماعة ماضون فى التحريض على شاور والتنديد بخيائته ، وقد قبض على بعضهم كما قبض على كثير غيرهم دون أن يعلم سر ارتباطهم واتسابهم إلى جماعة واحدة .

وكان شاور يظن أن العاضد هو القائم بتدبير هذه الحركة من خلف الستار . فوجه اهتمامه إلى القصر يرصد حركات العاضد ويتبع أسرارهم . وصار يضطهد رجال القصر وينفي أو يعتقل من يخشى أن يرشحه العاضد لمنازلته فى المستقبل على كرسى الحكم ، ثم تسرب إلى

علمه أن العاضد قد كتب إلى نور الدين يستنجد به عليه ، ويلتزم له بمثل ما التزم به شاور من نفقات الحملة وثالث الخراج والتعاون على جهاد الفرنج .

فأسقط فى يد شاور ، وضاع كل أمل عنده فى أن يقبل نور الدين عنده ويصالحه ، وتأكد عنده أنه سيرسل أسد الدين لاجمالة للانتقام منه ، وقد بدأ الناس يعودون إلى اتهامه بالخيانة من جديد إذ أخذت الدعوة التى بثها تنحسر عنهم شيئاً فشيئاً .

وحدثته نفسه أن يكتب الفرنج ولكنه تردد قليلاً ، وأومض فى ذهنه خيال ابنه شجاع فازداد تردده ، إلى أن قرر العدول عن ذلك حين تذكر أن الفرنج سيأتون من تلقاء أنفسهم إذا وجدوا نور الدين يرسل حملته من جديد ، فعلام يربط نفسه من اليوم بميثاق معهم ؟ أليس أفضل من ذلك أن يدع الأمور تجري فى أعنتها ليملك حق الخيار بعد ذلك فى اتباع ما يراه أسلم له عندما يجد الجدد ، يلتقى العسكران فى أرض مصر ؟ ومن يدرى لعله حيثذ يتاح له أن يستميل عسكر نور الدين إليه فيشترك معهم فى حرب الفرنج ودرهم فيسترد بذلك اعتباره لدى نور الدين وعند الشعب ؟

ولم تطل الحيرة بشاور ، إذ مالبت الأنباء أن جاءت بأن « مرى » ملك بيت المقدس قد عاد فى جموع كبيرة فاجتازوا الحدود مسرعين إلى أرض مصر ، ففرع شاور فى أول الأمر إذ كان يتوقع مجيء جيش نور الدين أولاً ، ثم عاد فوجد أن سبق الفرنج أصلح له وأحرى أن يمكنه من تنفيذ خطة الخيار التى اعتزمها ، فليستقبل الفرنج اليوم مسالماً حتى يثقوا به ويطمئنوا إليه ، وليعمل معهم على أساس ما اتفقوا من قبل عليه من بقاء استقلال مصر عنهم وعن نور الدين حتى إذا أقبل جيش نور الدين مال إليه إن أمكن وإلا مال عليه .

وفزع الناس مما سمعوا وانتشر بينهم الهلع . فأمر شاور بتسكينهم ، وإعلامهم أن الفرنج ما جاعوا لقتال المصريين أو احتلال بلادهم ، بل

لقتال جيش الشام إذا أقبل ، فعليهم أن يخلدوا إلى السكينة حتى يرى ما يكون من أمرهم . ثم وصله كتاب من « مرى » يؤيد هذا المعنى ، فأمر به فقري على الناس في ميدان بين القصرين .

و لم تسكن نفوس الناس بل زاد اضطرابهم وحيرتهم ، وتلفتوا حولهم فوجدوا جنود الدولة ساكنين لا يتحركون كأنما لا يعينهم الأمر في شيء ، فقد اشتري شاور ذمم أمرائهم ، فهم لأمره طائعون وإرادته مسيرون . أما عامتهم فهم لأمرائهم تبع ، فارتدت أبصارهم حسيرة ، ثم توجهوا بقلوبهم شطر الشام لعل نجدة تأتي من نور الدين وشيكا ، فما لهذه الغمة غير نور الدين .

وصل ملك الفرنج فاستقبله شاور استقبال الصديق ، وأعد له ولكبار رجاله دورا خاصة في العاصمة فنزلوا بها ، أما سائر جنوده فعسكروا خارج العاصمة .

وما لبث « مرى » أن اقترح على شاور أن يعقدا ميثاقا يوطد الصداقة بينهما ، ويؤكد العهد الذي اتفقا عليه ، فتردد شاور أول الأمر وقال له : « أيها الملك .. إن الصداقة بيننا لا تحتاج إلى ميثاق يكتب » .

— بل ينبغي أن نبرم الميثاق حتى يعلم نور الدين ألا مطمع له في مصر ، فلا يعود إليها .

— قد أثبتنا له هذا بالفعل يوم بلبيس .. حين خلينا بينكم وبين أسد الدين ..

— إنني واثق منك يا شاور ، ولكنني أريد ميثاقا يوقعه الخليفة في مصر ، فلا يبقى لنور الدين مجال في استمالته إليه والجئيء باسمه ..

وما سمع شاور ذكر الخليفة حتى بدا له أن يغير رأيه فيوافق على عقد الميثاق ، فقال لمرى : « صدقت أيها الملك ... لقد غاب عني هذا الاعتبار فنبهتني إليه » .

وعرض الميثاق على العاضد ليقعه فداخله الشك فيما يكمن وراءه من كيد شاوور وسوء نيته ، ولكنه فوجيء بذلك فلم يجد وقتا للتدبر فيه فوقعه وهو كاره .

وما هي إلا أيام فإذا نبأ ورد إلى العاصمة بأن أسد الدين قد عاد بجيشه وعبر صحراء سيناء إلى الصحراء الشرقية .

ففرح الناس بهذا النبأ وإن أشفقوا أن تكون هذه النجدة من نور الدين قد وصلت متأخرة ، بعد ما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاوور . فها هو ذا ملك الفرنج وشاوور قد أخذوا يستعدان للقاء أسد الدين ويرتبان جنودهما ويعدان العدد ويدبران الخطط متعاونين متكافلين كأنهما فريق واحد .

ثم أخذت الأنباء تتوالى بعد ذلك بأن أسد الدين قد وصل إلى أطفيح ، وأنه عبر بجنده إلى الشاطئ الغربي ، وأنه اتجه بهم شمالا صوب الجيزة ، وأنه وصل إلى الجيزة فعسكر بها .

وأسرع جنود شاوور وجنود حلفائه فعسكروا حذاء عسكر أسد الدين من البر الشرقي ، فأصبح النيل يفصل بين المعسكرين ، وكان هذا النهر العظيم باعتراضه بينهما وفصله بين جند الحق وجند الباطل ، قد أراد أن يشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ إلى أى الفريقين انحاز شاوور بجند مصر !

٩٠

كان أبو الفضل مختبئا عند نعمان السقاء في القسطنطينية حين جاءت الأنباء بقدم أسد الدين . فعزم أن يعضى إليه ليلقاه قبل أن يصل إلى العاصمة ليطلع على حقيقة الأحوال لعله يفيد منها في الخطة التي سينتهجها لمحاربة شاوور وحلفائه .

فخرج متنكباً في زى السقائين ومعه صاحبه السقاء ، فمضيا يتنسمان أخباره حتى علما أن وجهته أطفيح فانتظراه هناك ، فلما وصل

تقدم إليه ففرح أسد الدين لما عرفه . وتلقاه هو وصاحبه ، فأنزلهما عنده في المعسكر . وأخذ أبو الفضل يروى له كل ما يهيمه من أخبار شاور والفرنج ، وما استعدوا به للقاء أسد الدين ، ثم أشار عليه بألا يعجل بمنزلتهم ، بل يؤجل ذلك ما أمكن حتى يتسامع أهل مصر جميعا أن شاور يحارب المسلمين مع الفرنج أعداء الدين والوطن ، فاستصوب أسد الدين رأيه قائلا : « إني قد خطر لي أن أستعين بشعب مصر ، بعد ما رأيت من بسالة أهل بلبس وحماسهم في معاونتنا على الفرنج » .

فقال أبو الفضل : « إن سائر الشعب لا يقلون عن أهل بلبس بسالة وحمية إذا استثيروا ، وأتيح لهم سبيل المعاونة والعمل » .

فعقد أسد الدين مجلسا من كبار رجاله فيهم صلاح الدين والحارمى وغيرهما ممن كانوا معه في الحملة الأولى ، وعرض عليهم رأى أبى الفضل واستشارهم في أفضل السبل لتنفيذه .

واتفقوا بعد التشاور على أن يعبر أسد الدين بجيشه إلى الشاطيء الغربى ثم يتوجه شمالا حتى يبلغ الجيزة فيعسكر بها ، وبذلك يتسنى لأهل القاهرة وأهل القسطنطينية أن يروا الحقيقة البشعة رأى العين ثم يتسامع بها سائر أهل القطر .

وبينما هم مجتمعون لم ينفض اجتماعهم بعد . إذا بالحاجب يعلن لأسد الدين أن شجاع بن شاور قد جاء يستأذن لمقابلته ، فتعجب أسد الدين وتعجب رجاله ، ولكن أبا الفضل أسرع ، فاقترح عليهم من باب الحيلة أن يكتموا وجوده عندهم عن شجاع فوافق أسد الدين على ذلك ، وأشار على أبى الفضل أن يختبئ خلف الخباء لسمع ما يدور بينه وبين شجاع ، وفض المجلس فلم يبق معه غير الحارمى وصلاح الدين .

ودخل شجاع فرحب به أسد الدين قائلا : « مرحبا بقائد فرقة الموت فى بلبس » : وبعد أن أجلسه قال له : « هل أوفدك أبوك إلينا يا شجاع ؟ »

- ١٤٣ -

فتردّد شجاع قليلا ثم قال : « نعم يا سيدى بعثنى والدى سرّا لأتصل بك » .

- خوفا من حلفائه الفرنج !

قال شجاع محاولا أن يخفى الامتعاض الذى لاح فى وجهه : « بل خشية أن يعلموا بسر خطته فيحبطوها » .

قال أسد الدين ماضيا فى سحرته الخفية : « إن كان يخاف عليها من حلفائه أفلا يخاف عليها من أعدائه ؟ » .

فقال شجاع محتدا : « يا سيدى إن كنت لا تريد أن تبستم لقولى فإنى منصرف » . فرق له أسد الدين وطيب خاطره قائلا : « بل قل يابنى فإنى مصغ إليك » .

- إنه لا يعتبركم أعداء ولا يعتبر الفرنج حلفاء ، وقد بعثنى لأعرض عليكم الخطة فتفقوا عليها معه .

- كأن أباك يريد أن يصلحنا ؟

- نعم ..

- بعد الذى كان منه ؟

وهناك قال صلاح الدين لعمه : « يا عم ألا تسأله ماهى الخطة أولا ؟ » .

قال أسد الدين : « أجل .. ما خطته يا شجاع ؟ » .

- أن يوهم الفرنج بأنه معهم ، كما فعل حتى الآن ، فإذا نشب القتال مال عليهم معكم ميلة واحدة .

فسكت أسد الدين مليا ثم قال له : « هذه خطة حسنة ، ولكن ماذا يضمن لنا أن شاور صادق النية فى ذلك ، وألا يكون قصده أن يغدر بنا كما فعل من قبل ؟ »

- كلا يا سيدى لا شك فى صدقه .. وسترون ذلك غدا بأعينكم .

قال صلاح الدين : « سله يا عم عن خير الميثاق » .

— ١٤٤ —

- أجل .. ألم يعقد أبوك ميثاقا معهم على محاربتنا ؟
- فأسرع شجاع يقول : « سأحدثك يا سيدى عن هذا الميثاق ، فاعلم أن أبى لم يوقعه ، وإنما وقعه الخليفة العاضد » .
- وهل وقعه العاضد إلا بموافقة أبيك عن رأيه ؟
- كلا يا سيدى ، إن والدى قد رفضه حينما عرضه عليه « مرى » ملك الفرنج ، وقال له : لا حاجة إلى عقده لأنه كان ينوى منذ ذلك الوقت أن يتفق معكم على هذه الخطة ، ولكن « مرى » بعث بالميثاق إلى العاضد فوقعه .
- ولم يوقعه شاور بعده ؟
- لا والله العظيم ورب الكعبة .. لقد اطلعت عليه بنفسى فما وجدت توقيع شاور فيه .
- إنك تقول قولاً عجيباً يا شجاع ..
- لم يغد هذا الأمر سرّاً يا سيدى .. فقد أصبح يعرفه كثير من الناس ، وستسمعه غدا أنت بنفسك ..
- ما وقع شاور الميثاق .. ولكن عمل بموجبه ..
- قد شرحت لك يا سيدى حقيقة غرضه من ذلك .. ثم إن هذا الميثاق ليس فيه محاربتكم .
- فأى شىء فيه إذن ؟
- فيه ضمان استقلال مصر عن الفرنج وعن نور الدين معا .
- ولا شىء غير ذلك ؟
- وفيه توثيق روابط الصداقة ...
- بين من ومن ؟
- بين مصر وبلاد الفرنج ..
- بلاد الفرنج الأصلية فى الغرب ؟
- لا يا سيدى .. بلادهم فى الشام ...

فعلا صوت أسد الدين قائلا فى غضب : « ويلك ! هذه ليست بلادهم ، وإنما اغتصبوها منا ومنكم ومن كل عربى ومسلم .. ويلكم ! ألم تعرفوا هذه الحقيقة ؟ ألم تعلموا أنهم دخلاء أفاقون من نفايات شعوب مختلفة فى الغرب . طرأوا على بلادنا فى غفلة منا وضعف فزعموا أنها بلادهم وأنهم باقون فيها إلى الأبد ؟ » .

فارتعد شجاع مما سمع ثم تمالك :

— بلى يا سيدى نعرف ذلك . ولكن الصداقة التى وردت فى الميثاق لم يقصد بها الإخاء والمودة ، وإنما قصد بها تيسير التجارة وتبادل البضائع والسلع مما ينتفع به الناس ...

فغضب أسد الدين غضبا أشد من الأول وقال :

— ويلك ! هنا ضربة السيف فى سواء العنق ، وطعنة الخنجر فى حبة القلب ! ألم تعلموا ألا بقاء لهم فى بلادنا إلا بذلك ؟ ألم تعلموا أن من يحالفهم فى سناحات القتال أقلّ خيانة وأهون إثما بمن يعاملهم فى الأسواق ؟ ألا لعنة الله على من فعل هذا ولعنة اللاعنين .

فسكت شجاع قليلا ثم تميم قائلا : « التبعة فى هذا على العاضد وحده ، ولا يد لشاور فيه كما بينت لك » .

قال أسد الدين وصدره يعلو ويهبط من أثر الغضب : « والغدرة التى غدرها شاور فى بلبيس ؟ » .

— تلك هفوة صدرت منه أمس ونحن أبناء اليوم ..

— هفوة !!

قال صلاح الدين : « أحبه يا عمى بلا أو نعم .. فإن المقام مقام سفارة فى وقت حرب وليس مقام وعظ أو تبكيت ..

— ماذا أصنع ؟ هذا أمر يثير حتى الحجر !

— إنك تريد أن تطمئن إلى صدق شاور فيما عرض اليوم عليك

فاقترح عليه شيئا .

— ١٤٦ —

— ماذا أقترح ؟ كيف أعرف ما فى قلبه ؟
قال الحارمى : « أرى أن تقترح عليه أن يثب شاور بالفرنچ أولا ،
ليثبت لنا صدقه » .

فقال أسد الدين فرحا : « أجل هذا حسن لو قبل شاور » .
قال شجاع : « كلا يا سيدى لن يقبل أبى ذلك » .
قال الحارمى : « إن لم يقبل فإنه ينوى الغدر » .
قال صلاح الدين : « مهلا يا عمى دعنا نسأل شجاعا أولا كيف
علم أن والده لن يقبل ؟ » .

— الحق أنى اقترحت عليه هذا الأمر ذاته ، فشرح لى أنه غير ممكن .
— كيف يا شجاع ؟

— إن الفرنج اليوم منتشرون فى كل مكان ، وتختلطون بيجيشنا فى
المعسكرات ، والملك وكبار رجاله يقيمون فى دور كثيرة بالعاصمة .
فقال أسد الدين : « الله الله ! .. اختلط الأسمر بالأحمر ... واسترج
الحليف بالخليف .. إن كان ذلك غير ممكن اليوم فهو غدا متعذر ...
— كلا يا سيدى ، غدا يمتاز عسكرنا من عسكر الفرنج ... حين
تعباً الفرق على كل فرقة قائدها .

— لعلهم يضعون شاور على رأس فرقة من فرقهم .. ويتولى «مرى»
قيادة فرقة من فرقكم .. أليس ذلك محتملا أن يقع ؟

فنهض شجاع غاضبا وقال : « كنت أظن يا أسد الدين أنك
سترحب بجمع كلمة العرب على عدوهم وتبسى فى سبيل ذلك ما
سلف من إساءة شاور إليك ، فإذا أنت تنسى قضية العرب ولا تذكر إلا
حفىظتك على شاور وحرصك على الانتقام منه » .

فقام أسد الدين ليستوقفه قائلا : « ويلك ! من قال لك ذلك ؟ »
— هذا واضح من حديثك وطريقة حديثك ..

— ١٤٧ —

— لا والله يا بنى ! ما قصدت ذلك .. وإنى لأعلم أنك مخلص صادق ...

— ووالدى أصدق وأشد إخلاصا منى .

— هذا عندك يا بنى لا عندى .

— أجبني الآن قبل أن أنصرف .. أتقبل أم لا تقبل ؟

— أقبل بشرط أن يثب أولا على العدو ..

فطفر الدمع من عيني شجاع وراح يقول بصوت متهدج حزين :
« لا حول ولا قوة إلا بالله ! .. ستحاسب على هذا يا أسد الدين غدا
يوم القيامة ، وتبعة دماء المسلمين على عنقك » .

وحاول أسد الدين أن يستوقفه ، فحذب شجاع يده منه بقوة
وخرج .

ووقف الثلاثة واجمين ينظر بعضهم إلى بعض فى دهش وتعجب ،
حتى لدخل أبو الفضل فقال له أسد الدين : « هل سمعته يا أبا الفضل ؟
سمعت زوج ابنتك ؟ » .

قال أبو الفضل : « أجل إنى أعرفه جيدا .. ليس بينه وبين شاور غير
لحمة النسب .. أما ما عدا ذلك فيبينهما بعد المشرقين » .

— أعجب ما أعجب له أن هذا الشاب على ذكاء وفطنة ، فكيف
تغيب عنه حقيقة أبيه ؟

— إنك لا تعرف يا أسد الدين أن شاور فى أهل بيته إله يعبد !

— ألم يشك يوما فى عمل من عمل أبيه ؟

— بلى ! ولكن تعرف شاور وقدرته الخارقة على الإقناع .. وحسبك

أنه خدعنى زما عن نفسه ..

— وخدعنى أنا أيضا ..

— وخدع الناس أجمعين .

قال الحارمى : « إلا يوسف ! ...

— ١٤٨ —

فقال أسد الدين فى دعابته المحببة : « أجل يا أبا الفضل .. إلا هذا الولد الشقى فإنه لم ينخدع به قط » .
وتبسم صلاح الدين ولم يجب .
قال أبو الفضل : « لعله رآه أول ما رآه فى أسوأ حالاته فنشأت فى نفسه كراهية له واشتمزاز » ...
فقال صلاح الدين متعجبا .. « أجل ، كيف عرفت ذلك يا أبا الفضل » ؟

— ما كنت لتنجو من سحر شاور لولا شيء كهذا ..
— حدثنا يا ابن أخى ماذا جرى ؟
— رأيته أول ما رأيته فى مجلس نور الدين .. وكان نور الدين يتحدث فغلط فى كلمة ثم عاد فصحيحها . ووقعت عينى على شاور خلسة فرأيته وقد كسر إحدى عينيه ازدراء وسخرية . فكبرته منذ ذلك اليوم وارتبت فيه ..
فالتفت إليه أسد الدين مغاضبا : « هيه وتركتنى أعتقد أن ذلك قوة فراسة عندك ؟! » ثم قال لأبى الفضل بعد أن سكت لحظة « لكنى قسوت على الشاب يا أبا الفضل ، وما كان لى أن أفعل » .
— ما كان لك أن تفعل غير ذلك . إبنى والله لو أعلم أن عند شاور ذرة من الصدق والإخلاص لدخلت عندكم فأشرت عليكم بقبول ما عرض .

— ماذا تخاله يقصد من ورائه .
قال الحارمى : « الغدر لاريب .. يريد أن يغدر بك وأنت مطمئن إليه » .

فقال أبو الفضل : « بل يريد أكثر من ذلك .. يريد أن ينظر غدا فإن رأى الريح معكم قام بما التزم لكم . وإلا بقى على حاله مع الفرنج وانتحل أى عذر » .

قال أسد الدين متعجبا : « إى واللّه .. هذا ما فعله معنا فى بلبيس . وعاد شجاع إلى أبيه حزينا كاسف البال . فأخبره أن أسد الدين لم يقبل ، فأسرع شاوور يقول : « ألم أقل لك يا شجاع إن أسد الدين يريد الانتقام منى لا غير ؟ ولكن لا بأس يا بنى ، أحسنت إذ ذهبت إليه ، فقد أبرأت ذمتى إلى الله » .

قال شجاع مستعظما : « ألا تستطيع يا سيدى أن تجد لك سييلا آخر . إنك لذو حكمة وإنك لخالل المشكلات » .
فأطرق شاوور قليلا ثم قال : سأنظر غدا لعل أسد الدين يعود فيقبل ونحن فى القتال حين يخشى الهزيمة ، فأمد يدى إليه وأنصره .
- ما أحسب ذلك ممكنا يا سيدى إذا احتدم اللقاء وولغت السيوف فى الدماء !

- إذن فذنبه على جنبه !
- ولكن أنت يا سيدى سيصمك الناس بالخيانة .
- لأن يصمنى الناس بالخيانة ، واللّه يعلم حسن نيتى ، خير لى من أن يحسبونى بطلا وأنا عند الله خائن ..
فسكت شجاع مليا كأنما ألقمه شاوور حجرا ، ثم عاد فقال :
« لكن لو أمكنتك إرضاء الناس أيضا كان أفضل ، ألا تجد يا سيدى مخلصا من قتال هؤلاء المسلمين ؟ » .

فغضب شاوور حينئذ وقال له : « إن شئت أن تقا تل معهم فاذهب إليهم . إنى على يقين من أمرى . واللّه مطلع على سرى ، فما أبالى ما يقول الناس ، ولا أبالى أن تكون أنت معى أو على . سأعترنى قد فقدت يوم فقدت طيئا وسليمان وكان ضرغاما قد ذبح أبناى الثلاثة ! » .

فما لبث شجاع أن استعير وقال : « كلا يا سيدى سأكون معك . حاشاى أن أتخلى عنك .. واللّه يغفر لى ولك وللمسلمين جميعا » .

بقى الناس أياها ينظرون إلى المعسكرين قد وقفا متحاذين لا يفصل بينهما إلا النيل ، ولا يدرون متى أو كيف يلتحم القتال بينهما ، ثم لا يدرون كذلك لأيهما غدا يعقد لواء النصر . وهم يتوجهون إلى الله بقلوبهم أن ينصر جيش أسد الدين على جيش شاور وحلفائه ، وإن كانوا يشفقون ألا يستجاب لهم لما يرون من التفات العظیم بين جيش القلة وجيش الكثرة . وهم قاعدون عما أوجب الله عليهم من نصره الحق على الباطل . على أن كثيرا منهم ، ولا سيما من أهل الفسطاط ، قد غلبتهم الحمية فأنستهم مصالحهم الخاصة ومصالح ذويهم في البر الشرقي ، فاختلستهم القوارب إلى البر الغربي حيث انضموا إلى جيش أسد الدين ليقيموا له بما يستطيعون من خدمة ، ويقدموا له ما يملكون من عون ، فأخذ المعسكر الغربي يتضخم بمن ينضمون إليه من المتطوعين .

وكان نعمان السقاء يتلقاهم ويقدمهم إلى أسد الدين ، ثم يرتب كل واحد منهم في العمل الذي يحسنه . أما أبو الفضل فقد بقى على حاله متكرا ومختبئا عند أسد الدين يرشده ويشير عليه ، لا يظهر للناس ولا يعرف حقيقته في المعسكر سوى أسد الدين والخاصة من رجاله .

وكان « مری » وشاور يتوقعان في أول الأمر أن يعبر أسد الدين النيل إليهما تحت ستار الليل بغتة . ولا سيما إذ رأياه يعد القوارب والسفن على الشاطئ ولا يعلمان أنه قصد بذلك تضليلهما عن حقيقة خطته . فلما طال بهما الانتظار ، ورأيا جماعات المتطوعين يتسللون إلى البر الغربي ، قررا العبور بجبوشهما إليه لمعاجلة القتال . فأخذا يعدان القوارب والسفن .

وبدأ أسد الدين يستعد للقائهم . ولكن أبا الفضل أشار عليه أن ينسحب من وجوههم ويسير بجيشه صعبا صوب الجنوب فيستدرج

شاور وحلفاءه إلى أقصى الصعيد ، حتى يعلم من لم يكن قد علم من أهل البلاد كيف انضم شاور إلى أعدائهم ليقاتل معهم المسلمين :
وفرّح شاور وحلفاؤه حين رأوا أسد الدين ينسحب ، وظنوا أنه قد خاف على جيشه القليل من كثرتهم فانبهروا يعبرون النيل في يسر وجذل إذ انكشف عنهم ما كانوا يتوقعون من صعوبة التعديّة لو بقى جيش أسد الدين مكانه على الشاطئ الغربى .

وانطلقوا فى أثر أسد الدين مصعدين ، وأسد الدين ماض فى سيره صوب الجنوب . والناس ينظرون إلى جيشه ثم ينظرون إلى جيوش شاور والفرنج ، فيقول بعضهم لبعض : « انظروا ماذا يفعل شاور ! »
وكان شجاع قد خرج مع أبيه متكارها كالمغلوب على أمره ، يتصفح وجوه الناس فى الطريق فيرى عيونهم تنظر إليهم شزرا ، فيهمّ فى كل حين أن ينقلب راجعا فلا يستطيع كأنما يحبسه حابس ، ويقول لنفسه فى كل مرة : « لعلى أستطيع إذا تقابل الجيشان أن أصنع شيئا ، فأفنع أبى أو أفنع أسد الدين ! »

ولكنه لما بلغ قريبا من البهنسا إذا جماعة يرددون هذين البيتين من بعيد ويترنمون بهما على لحن خاص :

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !

قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

وكان قد سمعهما من قبل فى القاهرة ، فهاله أن هذا اللحن قد انتشر فى البلاد بتلك السرعة ، فثارت شجونه ، وتعاطم ما به حتى كاد يسقط عن فرسه ولم يستطع مضيا ، فغافل والده فانسلس من جانب الجيش وصرف عنان جواده تلقاء الشمال ، فكر راجعا يسابق الريح . ولم يعلم شاور . بانقلاب ابنه إلا بعد حين فأظهر قلة الاكثرات ، وقال : اتركوه فإنه يشكو صداعا ، فقلت له عد إلى أهلك .

وبصر « مرى » بما يبدى الناس من الكراهية والعداء ، فشكا ذلك إلى شاور فقال له شاور : « لا عليك منهم يا صديقى الملك . بعد غد نسمعهم يهتفون لنا فى طريقنا عائدين ، فأهل مصر دائما مع الغالب على المغلوب » !

قال ذلك وهو يعلم أنه كاذب ، ولكن ليلقى السكينة فى قلب حليفه . ورأى شجاع وسمع من الناس وهو عائد أكثر مما رأى وسمع وهو ذاهب ، فكأنما أحسوا بالأمن بعد أن مر جيش شاور وحلفائه فانطلقت حناجرهم تردد ذلك اللحن فى استهزاء وسخرية .

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !

قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

فكان شجاع يشيح بوجهه ويصم أذنيه ، ويلهب جواده بالسوط ليضاعف من جريه ، حتى إذا وصل إلى الجزيرة رأى الناس يشيرون إليه كأنهم عرفوه ، ثم صاحوا بأعلى صوتهم يترغمون فى وجهه ليسمعوه .

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !

قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

فأعرض عنهم وتصامم حتى عبر إلى القاهرة فسمع اللحن فى شوارعها أيضا ، ولكن بأصوات أقل جهورا مما سمع فى الجزيرة .

وما إن وصل إلى البيت حتى انطرح فى حجر أمه يبكى بكاء الطفل ، ودخلت سمية فانضمت إلى أمه فجعلتا تواسيانه وتسريان عنه .

وكانتا تعلمان من قبل ما يجول فى نفسه ، أما أمه فكانت تلومه على تشككه وتردده فى تأييد أبيه وتقول له : « إن أردت الخير والبركة فلا تتردد فى طاعة والدك » . وأما سمية فكانت تشاركه شعوره وتقاسمه آلامه وآماله . دون أن تقول أطع والدك أو خالفه ، ولكنهما لما رأياه قد رجع هو على هذه الحال لم تقولا له : أحسنت أو أسأت ، بل اقتصرنا على مواساته والتسرية عنه .

- ١٥٣ -

حتى هذا بعض جأشه فشرع هو يقص عليهما قصته من أولها إلى آخرها . فلما فرغ عادت أمه تلومه على ما فعلت قائلة : « من كان يصدق ؟ ابن شاور يتخلى عن أبيه فى ساعة الحرب ؟ شاور سيد الرجال وأشجعهم وأفصحهم يعجز عن إقناع ابنه بأن يقاتل معه ؟ شاور الذى استطاع أن يطوى ملك الفرنج وجيوش الفرنج تحت أبطيه ! فعير بهم البحر وقطع بهم البر . لم يستطع أن يحكم ابنه الذى يعيش تحت سقف بيته ! » .

فقال لها شجاع : « بعض تقريعك يا أماء ، فلو شهدت ما شهدت من عيون الناس وألستهم ما قلت هذا الذى قلت » .
- الناس ؟ ما قيمة هؤلاء الناس يامسكين ؟ لو بالى أبوك بما يقولون أو يفعلون لما بلغ المقام الرفيع الذى هو فيه .

ثم قالت له فى النهاية : « أما من جهة أمك يا شجاع فإنها تحمد الله على أن عدت إليها سالما ، فكفى ما ثكلت أخويك من قبل ، ولكنى آسى على أبيك ، كيف يقابل وجوه الرجال إذا سألوه أين ذهب ابنك ؟ يا عيني عليك يا أبا سليمان ! » .

أما سمية فقد ظلت صامئة طوال الوقت . ولكنها لما حلت به بعد ذلك قالت له : « لا تبتس يا حبيبي ، فما فعلت إلا خيرا ، لقد أديت ما عليك لربك وللمسلمين ، فلما لم تبلغ ما تريد كرهت أن تغمس سيفك فى دمايهم ، فزكت الفريقين ليحكم الله بينهما وهو خير الحاكمين » .
فاستنار وجهه ، وكأنما أراد أن يزيده نورا فغيبه فى غدائر شعرها المتوهج وهو يقول : « سلمت لى يا سمية يا حبيبة الروح والقلب ، والله ما أدرى ماذا كنت أفعل لولاك » .

وهكذا اطمأن ضميره إلى صواب ما فعل ، ولكنه بقى فى قلق على مصير المعركة التى توشك أن تنشب بين الفريقين ، ولا يدرى على التحقيق لأيهما يتمنى فى قرارة نفسه النصر ، ففى أحدهما جيش

المجاهدين فى سبيل الله وفى الآخر أبوه . بالقسوة الأيام ١ لم لا يكون أبوه الحبيب فى الجيش الحبيب ؟ إن شاور لم يزل فى رأيه مسكينا ظلمته المقادير ، فأسلمته إلى أمور مشتبهة يخوضها وهو كاره ، وقد قل رجاءه الآن أن يصطليح أبوه وأسد الدين على عدوهما وعدو العرب والمسلمين ، فلم يبق له إلا أن يأمل أهون الشرين وأخف الضررين : أن يتهزم فريق أبيه ، ويعود أبوه سالما عسى أن يوفق فى المستقبل إلى انتهاج السبيل الواضح ، فيرضى الله ويرضى الناس ، فابتهل إلى الله داعيا أن يحقق له هذا الأمل اليسير .

وكأنما شاء الله أن يستجيب دعوة هذا الشاب الصالح . فبإذا الأنباء بعد أيام بأن الفريقين التقيا فى الصعيد الأعلى عند البابين ، فانجلت المعركة بانهزام جيوش شاور وحلفائه على كثرتهم وانتصار جيش أسد الدين على قتلته ، فكانت آية تحدث عنها الناس طويلا فرحين متعججين : كيف استطاع جيش قليل العدد والعدد أن يهزم أجناد مصر وجيوش الفرنج مجتمعين ؟ فأشاد بعضهم ببطولة أسد الدين ورجاله . وذهب الآخرون إلى أنها معجزة من السماء لا يد فيها لأهل الأرض ، وقد فاتهم جميعا أن أسد الدين لم ينتصر ببطولة رجاله ، وقوة إيمانهم فحسب ، ولا بملاحكة أرسلها الله من السماء ولكن بملاحكة أرسلها له من الأرض ، فقد كانت معه قلوب المصريين جميعا ، وبعض أيديهم فآتم الله له بذلك النصر .

وقد أدرك أسد الدين ورجاله هذه الحقيقة ، ولكن المصريين أنفسهم لم يدركوها .. يا ويح هذا الشعب ؟ لقد غفل عن تلك القوة الهائلة التى أودعها الله فيه . فجعله قادرا أن ينصر من يشاء ، وإن قل عددا وعدة . ويهزم من يشاء وإن كثر جمعا وتكامل قوة ، ولقد تمت المعجزة على يديه اليوم وهو لا يدري .. ترى ماذا كان يكون حاله لو وعى حقيقة نفسه ودري ؟!

وإذ أدرك أسد الدين ما لهذه القوة من عظم الأثر فى انتصاره فقد رأى أن يعضى فى استئارتها إلى أقصى مداها ، فسير ابن أخيه صلاح الدين فى فرقة من جيشه ليتوجه شمالا صوب الإسكندرية وسار هو بمن بقي من الجيش يتوغل فى أقصى الصعيد ، فكان الناس فى كل محلة يحيون أسد الدين الصاعد صوب الجنوب ، وصلاح الدين الهابط صوب الشمال ، حتى بلغ صلاح الدين الإسكندرية ، فإذا أهلها يفتحون له أبوابها على مصاريحها ويستقبلونه كأنه ابن من أبنائها قد خرج يقاتل العدو فى مهادن بعيد ، ثم رجع مظفرا على هامته أكاليل الغار .

وكان شاور وحلفاؤه قد رجعوا بفلول جيوشهم إلى القاهرة حيث أقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

قال « مرى » لشاور : « أتستطيع أن تشرح لى يا شاور كيف استحر القتل فى رجالنا دون رجالكم ؟ لقد قتل منا الألوف ولم يقتل منكم إلا ألفان أو أقل ! »

فأجابه شاور قائلا : « يسأل عن هذا رجالكم أنفسهم » .

فغضب « مرى » واحتد قائلا : « أتريد » أن تقول إن رجالك المزوقين كالعرائس أشجع من رجالى وأشد بطشا ؟

فتضاحك شاور قائلا : « لا تسى يا صديقى فهم قولى .. لعل القتل كثر فى رجالك لأنهم أشجع والشجاعة قتالة » .

فهذا مرى قليلا ثم قال له شاور : « أتدرى أيها الملك ما مثلى ومثلك الآن ؟

— قل ..

— مثلى ومثلك الآن كمثل تاجر واسع أحصى ما فى يده من المال فبكى ولطم ، ونسى أمواله التى تحملها السفن فى البحر والقوافل فى البر ، ونسى الديون التى له عند العملاء ولو أحصاها لرقص طربا .

وكذلك أدركوا أن التلاوم على مافات لا يجديهم نفعا وأن عليهم أن يستأنفوا أهبة القتال ، فإن يكونوا قد خسروا معركة البابين أمس فإنهم ما خسروا الحرب بعد ؛ وعسى أن يكسبونها غدا إذا نظموا الصفوف وأحكموا الخطط .

ونظروا فوجدوا أسد الدين فى الصعيد وصلاح الدين فى الإسكندرية فأجمعوا أمرهم على المسير لقتال صلاح الدين وإخراجه من الإسكندرية .

وكان شجاع قد استقبل أباه استقبالا منتصرا لا منهزما ، وقال له أول ما رآه : « الحمد لله يا سيدى إذ عدت إلينا سالما » .
فأعرض عنه شاور ولم يرد عليه ، إذ خشى أن يغلبه الغضب فيصدر منه مالا يجمل به أمام الناس ، فبقى كاظما غيظه حتى وصل إلى البيت فانفجر :

- الحمد لله إذ عدت إلينا سالما ! أتسخر بى أيها الولد العاق ؟
- فاضطرب شجاع وهو يقول : « كلا والله يا سيدى .. معاذ الله » !
- أفكنت تنتظر أن أحمل قتيلا إليك ؟
- ذاك ما دعوت الله ربى ألا يكون ...
- أنا لست جباناً مثلك !
- ساعك الله يا سيدى .. إنك تعلم أن ابنك ليس كما ذكرت .
- أجل .. أسد فى بلبيس ونعامة فى الصعيد ...
- يا سيدى إنك تعرف عذرى ...
- لا عذر لك فى التخلنى عنى يوم اللقاء
- لم أجد لى نية فى قتال القوم فكفيتك نفسى ، فما ينبغي أن يكون بين رجالك متردد يورث الفشل ...
- لم تجد نية فى القتال معى .. ولكنك وجدتها فى القتال خلافى !
- يا سيدى كنت أقاتل العدو يومذاك !

— عدو من ؟

— عدو البلاد .. عدو العرب والمسلمين ...

— وعدوى أنا .. ألا تقاتله معى ؟

— ليس أسد الدين عدوا لك يا سيدى ، وإنما بينكما خلاف أرجو

أن يزول فى المستقبل فتتحدا على العدو الحق ...

— ما شاء الله .. ما شاء الله .. لعلك تريد منى الساعة أن أذهب

إليه فأركع أمامه ليقبلنى أسيرا عنده !

وهنا غلب شجاعا البكاء ، فانسحب من وجه أبيه ، وأبوه يقول :

« اهلك اليوم كالنساء ! ليت أمك ولدتك جارية » !

وأقبلت زبيدة على شاور تقول له : « دعه يا سيدى فكفى ما قرعته

وويجته وأنت تعرف حسن نيته » .

— زبيدة إن ابنك قد أصبح لى عدوا فى بيتى !

— حاش لله يا سيدى ، وحياة رأسك إنه ليحبك !

— الحب طاعة البنات . وطاعة البنين العون والنصرة ..

— صدقت يا سيدى ، لعل الله إذ لم يرزقك بنتا تحنو عليك جعل لك

حضانها فى قلب شجاع ، بحياتك سامحه من أجلى .

فسكت شاور قليلا ثم قال لها : « لو كانت هفوة منه يا زبيدة

لوهبتها له ولكنها لوثة متأصلة لا فكاك له منها ولا فكاك لى منه !

فقالت زبيدة والدمع يترقرق فى عينيها : « افعل يا سيدى ما ترى

فأنت أغلى من كل غال عندى » .

ونظر شاور إليها فأدركته الرقة ، وقال : « لا تبتسى يا أم شجاع ،

لك عندى ما تحبين وأكثر ... »

وسرت زبيدة إذ دعاها أم شجاع ، وعرفت أن شجاعا لم يزل غالبا

عنده فقالت : « صانك الله يا أبا شجاع ولا حرمتنا برك وعطفك » .

ونهبش شاور من ساعته فالتمس ابنه فوجده فى حجرته كئيبا حزينا وعنده زوجته تواسيه ، فأقبل إليه فجذبته إلى صدره وعانقه قائلا : « لا عليك يا بنى . إنى ساحتك وعفوت عنك » .

فانهمرت الدموع من عينى شجاع وهو يقول : « جعلت فداك يا سيدى ، يعلم الله أن رضاك عندى بالدنيا وما فيها » .

وهكذا زال كل شىء بينه وبين أبيه وعاد الصفاء بينهما كما كان . ولكن شجاعا لم يلبث أن علم بعزم القوم على السير إلى صلاح الدين بالإسكندرية ، فعاوده همه وقلقه ، وهم أن يكلم أباه ليعدل عن عزمه ، ثم تراجع ليأسه من استجابته وخوفه أن يتجدد غضبه عليه ، فماذا يصنع ؟ إن عليه أن يصنع شيئا ليحول دون انتصار الفرنج على جيش أسد الدين ، فليكتب إلى أسد الدين ليسرع بنجدة ابن أخيه ، ولكن من ذا يحمل الكتاب إلى الصعيد ؟ إنه يخشى أن يطلع أبوه على سر الكتاب ، فيستوجب نقمته وغضبه ولن يسامحه بعد ذلك أبدا .

وكاشف سمية عما فى نفسه ، ولم يكشف به أحدا سواها فقالت له : « اكتب الرسالة ولك على أن تصل إلى أسد الدين بأسرع وقت دون أن تخشى انكشاف السر لأحد » .

— كيف ياسمية ؟

— عن طريق الفضل أخى ...

وكانت سمية قد علمت من أخيها أن أباهما فى جيش أسد الدين متكررا لا يعرف حقيقته أحد ، ولكنها لم تخبر شجاعا بهذا السر لأن أخاها استحلفها أن تكتمه حتى عن زوجها .

وذهبت سمية لتزور بيت أخيها ، فحملت الرسالة معها إليه ، وأسرع الفضل فسلم الرسالة إلى أحد جماعة أبيه ، فطار بها إلى أبى الفضل عند أسد الدين .

وجاء يوم مسير شاور وحلفائه إلى الإسكندرية ، فعجب شاور حين رأى شجاعا قد استعد للمسير معهم . فقال له : « اسمع يا بني إن كنت تريد أن ترجع من نصف الطريق ، كما فعلت من قبل ، فاقعد هنا خيرا لي ولك . »

فأجابه شجاع قائلا : كلا يا سيدى لن أرجع من نصف الطريق ولن أتخلى عنك أبدا .

ورأى شاور منه الجد والتصميم ، فتركه يمضى معه . ولما وصلوا إلى الإسكندرية أعجزهم اقتحامها لبسالة أهلها فى الدفاع عنها مع جيش صلاح الدين ، فحاصرها من كل جانب ، وكان ملك الفرنج قد أرسل إلى قراصنتهم بساحل الشام فأرسلوا سفنهم فى مياه الثغر يقطعون الطريق على كل سفينة تحمل الميرة إلى أهله .

فتم تشديد الحصار عليها من البر والبحر ، ولكن أهلها أبدوا من الصبر والمصابرة والحمية والبسالة فى الدفاع ، ما أدهش صلاح الدين وذكره بأهل بلبيس وقال فى نفسه : « أمة بعضها من بعض لو لم يذلها حكامها الظالمون » !

على أنه شهد فى أهل الإسكندرية ما لم يشهد فى أهل بلبيس من الخبرة بوسائل الدفاع والقدرة على إعدادها والمهارة فى إقامتها ، ووجد بينهم زعيما شجاع القلب ، حكيم رأى ، يتولى ديوان المدينة ويدعو الرشيد بن الزبير . علم صلاح الدين أنه هو الذى جمع كلمتهم على نصرته ، ولكنه لم يعلم إلا فيما بعد أنه من أصدقاء أبى الفضل ومن جماعته المصلحين .

وذهل المحاصرون إذ بلغهم أن أسد الدين قد طار من أعلى الصعيد إلى القاهرة فحاصرها على من تخلف فيها من جنود شاور وجنود الفرنج . وخشى شاور وحلفاؤه أن تسقط القاهرة فى يده ، إذ تركوها يوم تركوها دون استعداد لمثل هذا الحصار الذى لم يخطر لهم على بال ،

وخافوا أيضا مما شهدوا من مقاومة أهل الإسكندرية وتضامنهم مع صلاح الدين ، وما رأوا قبل ذلك من سحق الناس عليهم فى كل مكان فأشفقوا أن يحاط بهم من خلفهم ومن أمامهم وحرار القوم ماذا يصنعون .

وهنا تقدم شجاع إلى أبيه واقترح عليه أن يوفده إلى أسد الدين ليعرض عليه الصلح بين الفريقين ، فوجد من أبيه إعراضا وتأبيا ، واتهمه بأنه ينظر إلى أسد الدين فقال له شجاع : « أنا لا أنكر يا سيدى أنى كنت أسعى أمس إلى جمع كلمة المسلمين على أعدائهم الفرنج فلم ينجح مسعى . وحملت أسد الدين تبعة ذلك . أما اليوم فيأنى لا أنظر إلا إلى مصلحتك قبل كل شيء . أنتم هنا اليوم فى حال لا تحسدون عليها . فانتهزوا هذه الفرصة قبل أن تسقط القاهرة فى يد أسد الدين فتحدثه نفسه بالمسير إليكم ، وقبل أن يعلم صلاح الدين بأن عمه قد وصل القاهرة فحاصرها فيتشدد ويرفض . »

وتعجب شاور مما سمع من ابنه من صواب الرأى وبعد النظر على خلاف ما عهد فيه ، ووجد فى حديثه من حرارة الإخلاص ما استحق عنده النظر والاهتمام . وتذكر صلح بلبيس وما انتهى به من خروج الجيشين معا من أرض مصر . فقال لنفسه : « لم لا يتم اليوم صلح كهذا ، فأتخلص من هؤلاء جميعا ؟ أليس هذا خيرا حتى من انتصارى مع الفرنج على جيش أسد الدين ؟ ما يدرينى حيثئذ ماذا يصنع هؤلاء الفرنج معى ؟ ألا يحتمل أن يطمعوا فى البلاد فيجدونى عقبه فى طريقهم فيميلوا عنى إلى العاضد فيوافق لهم على كل شيء ماداموا يضمنون له بقاء عرشه وذلك عندهم هين يسير ؟ أجل لو كنت مكان « مرى » لفعلت ذلك . فالعاضد هو الذى وقع الميثاق معه دونى . ويله ! لعله ما اقترح توقيع العاضد عليه إلا لأنه كان ينوى أن يسلك هذا السبيل بعد أن يستعين بى فى هزم جيش نور الدين ؟

ولم يلبث شاور أن اقتنع برأى شجاع ، ولكنه لم يجرؤ أن يفتح
حليفه « مري » فيه إذ خشى أن يظن به ظنا ، وهو يعلم أن « مري »
في قلق شديد ، فلم لا يصير حتى يفتحه « مري » في الأمر من عنده ؟
وأبدى شاور مزيدا من القلق والتخوف . وصار يلحّ على « مري »
أن يهاجموا الإسكندرية بأى ثمن قبل أن يعلم أهلها بأن أسد الدين قد
حاصر القاهرة فتقوى عزيمتهم على الاستماتة في الدفاع .
فاعترض « مري » على هذا الرأى وقال : إن الإقدام على ذلك
يعنى اليأس والانتحار :

— إذن فلنمض إلى القاهرة لنقاتل أسد الدين .
— هذا أخطر علينا من ذاك . فإنا لا نعلم ماذا أعد أسد الدين هناك ،
ثم لا نأمن أن يطرد صلاح الدين في أثرنا فنقع بين نارين .
— قد اقترحت ما عندي .. فاقترح ما عندك ..
فأطرق « مري » مليا ثم قال له : أخشى ألا يكون لنا مخرج من
هذه الورطة إلا الصلح .
فأظهر شاور كراهيته لذلك فى أول الأمر ثم قال : « إن كان لأبد
من صلح فلنعجل به لنضمن لأنفسنا شروطا مرضية ، فاختر أحد رجالك
لينطلق إلى أسد الدين فيفاوضه فيه » .
— بل اختر أنت رجلا من قبلك ...
— إنه ييغضنى ولا يطيقنى ...
— وهو ييغضنا نحن أكثر .
وبعد لأى وقع الاختيار على شجاع ، فانطلق فرحا يسابق الريح
صوب العاصمة .

واكتشف شجاع بعد وصوله إلى أسد الدين أن القيام بمهمته ليس
هينا كما ظن ، فقد كان عليه لينجح فى إقناع أسد الدين بقبول الصلح
أن يكتم عنه ما يعانيه شاور وحلفاؤه من القلق والخوف . وفى ذلك
سيرة شجاع

مشقة عليه إذ يشعر أنه يخون بذلك قضية العرب والمسلمين ، ولكنه عزى نفسه بأن أهل الإسكندرية أيضا فى ضيق و كرب قد يدفعانهم إلى التسليم ، ولا سيما أنهم يجهلون حتى اليوم حصار أسد الدين للقاهرة . ثم إن فى ما يطمع فيه من خلاص أبيه واحتمال صلاح الأمر بينه وبين نور الدين فى المستقبل ، وتكفيره بذلك عما تورط فيه من مخالفة الفرنج حتى وصم نفسه بالخيانة عند الناس . ما هون عنده كل ما يأتى فى هذا السبيل ، مهما يجد فى نفسه حرجا منه أو تألما .

غير أنه وجد عند أسد الدين من الارتياح لفكرة الصلح ما أزال ما بقى فى نفسه من الشعور بالحرج فاطمأن قلبه وانشرح صدره .

فقد كان أسد الدين قبل مجئ شجاع قد شعر هو أيضا بحرج موقفه ، فإن حصار القاهرة قد يطول وربما يضطر أهل الإسكندرية إلى التسليم حين يشتد الضيق بهم من حصار البر والبحر . وقبل أن تسلم القاهرة له فإنها مازالت مليئة بالأتوات والذخائر ، وإذا بدأ القوت يشح فيها ، فسيقع الضيق والجهد على أهلها قبل أن يقع على من فيها من جنود الفرنج وجنود شاور ، وسيفضى ذلك إلى تدميرهم من فعل أسد الدين الذى ضرب الحصار على مدينتهم ، فتميل عنه القلوب التى كانت تميل إليه فيخسر بذلك القوة التى كانت من أكبر أسباب انتصاره . وهو حريص على تنمية هذه القوة ليعتمد عليها فى صراعه فى المستقبل ، إذ أبقن أن الصراع بينه وبين الفرنج فى مصر لا يمكن أن ينتهى فى هذه الجولة . بل يحتاج إلى جولة أو جولات أخرى يكون هو فيها أكثر جيشا وأقوى عدة ويكون شعب مصر أشد تحمسا له وأكثر استعدادا لمناصرته على العدو المشترك .

ومما زاده ترحيبا بالصلح أنه جاء على يد شجاع الذى كان له الفضل الأول فى تنبيهه إلى الخطر وحثه على الإسراع لتداركه ، مؤثرا بذلك مصلحة العرب والمسلمين على مصلحة أبيه ، وأن شاور وحلفاءه

هم الذين تقدموا بعرضه ، وذلك أفضل له وأكرم وأحرى أن ييسر له الحصول على شروط أفضل .

وكان أبو الفضل محتبنا خلف الخباء ، فسمع كل ما دار بين أسد الدين وشجاع . كما فعل في معسكر أطفيح ، ولكنه حين سمع نغمة الصديق والإخلاص فى صوت زوج ابنته ، وتذكر النذير الذى تطوع بإرساله إلى أسد الدين ، وتذكر ابنته سمية ، وقد اشتد شوقه إليها بعد هذا الفراق الطويل ، لم يملك نفسه أن دخل الخباء وبسط ذراعيه لشجاع فاعتنقا فى شوق وحنان .

وفهم شجاع عند ذلك أين كان أبو الفضل وماذا كان يصنع ، فحمد الله على سلامته ، وتذكر زوجته سمية التى تنتظره الآن فى المدينة المحاصرة ، فهاجت شجونه وتشوق أن يتم الصلح بأسرع ما يكون . ورجع شجاع يحمل البشرى إلى أبيه ، وترددت الرسل بين الفريقين بعد ذلك ، ولم يلبث أن تم الصلح بينهما ، على نحو ما تم فى صلح بلبس من وجوب جلاء الجيشين : جيش « مرى » وجيش أسد الدين عن أرض مصر ، إلا أن « مرى » اشترط هذه المرة أن يجلو أسد بجيشه أولا ثم يتلوه هو ، فقبل أسد الدين بعد اعتراض يسير .

ووقع « مرى » وأسد الدين وثيقة الصلح ، وكلاهما يكاتم الآخر ما فى نفسه من العزم الأكيد على معاودة الكرة فى أقرب فرصة مواتية ، ولكن لغرض مختلف ، أما « مرى » فليستولى على مصر ليتقوى بها على نور الدين ، وأما أسد الدين فليخلصها من وزيرها الخائن فيؤمنها من الوقوع فى أيدي الفرنج ، ثم ليوقظ هذا البلد العظيم من سباته الطويل حتى تنطلق منه يوما كتائب التحرير وجحافل القوة والمجد : فتعصف بالفرنج وتخرجهم من أرض الشام إلى الأبد .

١٣

وفك الحصار عن الإسكندرية وعن القاهرة فى وقت واحد ، فتنفس أهلها الصعداء ، غير أن أهل الإسكندرية حزنوا لفراق صلاح الدين بعد ما عرفهم وعرفوه وأحبهم وأحبوه ، وجمعتهم به مخنة الحصار وزمالة الدفاع . فشيعوه بقلوب مكلومة وعيون دامية .

أما أهل القاهرة فكانت عواطفهم مبهمة مختلطة ، فهم يحنون إلى الاستقرار ويطمعون فى أن يسفر هذا الاتفاق الثلاثى عنه ويفضى إليه ، ولكنهم يرون أسد الدين يرحل بجيشه عائدا إلى الشام ، من حيث يرون ملك الفرنج باقيا بعد بجيشه فى العاصمة وما حولها ، ولا يدرون ماذا هو صانع . ثم يرون شاور قد رجع إلى سلطانه مزهوا بما زعم أنه استطاع أن يجلب الجيشين معا ، فحفظ بذلك استقلال البلاد ، وكأنما لم يحن إنما ولم يرتكب خيانة ، إذ حالف الفرنج أعداء العرب والمسلمين فقاتل معهم العرب والمسلمين .

ولكن أهل الفسطاط لم تحذعهم المظاهر ، إذ كانوا على بصيرة من أمرهم ، فأدركوا أن شاور لم يصنع شيئا غير ما ارتكب من إثم الخيانة ، وأن الاتفاق الذى تم إنما كان هدنة بين جيش الفرنج وجيش نور الدين ، وأن هذه الهدنة فى مصلحة الفرنج ، وأن التبعة فى ذلك على شاور ثم على العاضد . وألا أمل فى خلاص البلاد ما بقى هذا فى الحكم ، وهذا على العرش .

وما لبثت الأيام القريبة أن جاءت بمصداق ما كانوا يعتقدون ، فهذا « مرى » بعد أن مكث أياما فى القاهرة جعل يطالب بتنفيذ الميثاق الذى وقعه العاضد . فلما ذكره شاور بأن اتفاق الإسكندرية يجب ما قبله ويلغى كل ما سبقه ، أجابه « مرى » بأن الاتفاق إنما ينسخ الجانب السياسى من الميثاق ولا شأن له بالجانب التجارى منه فهو باق كما كان ، وأنذره بأنه لن يبرح بجنوده البلاد حتى يضع

— ١٦٥ —

ذلك موضع التنفيذ ، وأوماً له من طرف خفى بأنه إن عارض فى ذلك فسيعتمد على العاضد دونه .

وكان العاضد قد أرسل يستدعى شاور إليه عقب فك الحصار عن القاهرة ليكرمه ويخلع عليه ، فلما جاء شاور إلى القصر أحسن العاضد استقباله وأكرم مجلسه وأعرب له عن سروره لتوفيقه فى عقد هذا الصلح الذى بموجبه سيحلون الجيشان معا من أرض مصر ، فقال له شاور : « يسعدنى يا مولاي أنك راض عن وزيرك » .

قال العاضد : « ليس كل الرضا يا شاور » .
فطن شاور أنه سيعتب عليه ما كان من إعراضه عنه وعدم الرجوع إليه فى شيء فقال : « إني معتذر إلى مولاي إن حصل منى تقصير فى حقه » .

— كلا يا شاور إني لم أقصد ذلك .
— فأى شيء قصدت يا مولاي ؟
— علام رضيتم ببقاء « مرى » بعد رحيل أسد الدين ؟
— اشترط « مرى » ذلك فقبل أسد الدين ..
— هذا حق من حقوقنا لا شأن لأسد الدين به .. وكان عليك أنت أن ترفض .

— لم أشأ يا مولاي أن أعطل إبرام الاتفاق من أجل شرط هين كهذا

— ما يدريك يا شاور أنه شرط هين؟ ألا تخشى إذا تخلف « مرى » بيننا أن يبدو له فيتمسك بالميثاق ...
— لا حق له فى ذلك ، فإن صلح الإسكندرية قد جب كل ما سبقه .

— أجل ، ولكن فى الميثاق على ما أذكر شرطا تجاريا لا صلة له بالسياسة والحرب . فأخشى أن يتمسك به ملك الفرنج .. فماذا أنت صانع ؟

- ١٦٦ -

وارتاب شاور عند ذلك فى غرض العاضد ، ولكنه أخفى ارتياحه وقال : « حيثذ سارى يا مولاي ماذا أصنع » .
قال له العاضد : « ربما لا تقدر على رفضه وجنوده تحتل العاصمة » .

فسكت شاور ولم يجب .
ومضى العاضد يقول : « لكن من يدري لعل فى هذا الذى نكره اليوم ما ينعش حركة التجارة عندنا وينشر الرخاء فى الناس ، ماذا ترى فى ذلك يا شاور ؟
فأطرق شاور قليلا ثم قال : إذا اقتصر الأمر على ذلك ، فلا بأس ، ولكننا نخشى أن يكون ذلك قنطرة إلى التدخل فى شئوننا » ،
وتنهذ العاضد قائلاً : « صدقت يا شاور . أسأل الله أن يقي بلادنا سوء المآل ، إنى على كل حال مطمئن إلى حكمتك وحسن سياستك .
وقام العاضد فأخرج حلة سنية فخلعها على شاور .
وخرج شاور من عنده وهو يقول لنفسه : « لا بد أن « مرى » قد اتصل به وتواطأ معه .

فلما سمع من « مرى » هذا التلميح اليوم ، تأكد عنده صدق ما ظن من قبل ، فلم يجد بدا من الموافقة .
وكان « مرى » قد جاء معه بطائفة من التجار ، فدعا شاور طائفة من تجار القاهرة ليجتمعوا بهؤلاء فيتدارسوا الوسائل والسبل ، لتنظيم التبادل التجارى بين مصر وبلادهم بالشام ، فلما انتهوا من ذلك ذهب « مرى » إلى شاور ، فقال له : إنى سأترك حامية من جيشى فى القاهرة لحماية مصالحنا عندكم » .

فقال له شاور : هذه مصالح مشتركة بيننا وبينكم وسنحميها نحن لنا ولكم ، فإن كنتم لا تثقون بنا فلا تعامل من غير ثقة » .
قال « مرى » : « نحن نثق بكم أنتم » ولكننا فى حرب مع نور الدين ولا نأمن أن يرسل جيشه مرة أخرى لامتلاك مصر » .

وهم شاور أن يصبر على المعارضة ، ولكنه ذكر العاضد ، وما يخشى من موافقته فسكت ووافق .

١٤

وكان شجاع قد فرح فرجا عظيما يوم تم عقد الصلح وفك حصار القاهرة ، فهرع إلى بيته ليلقى سمية ويبشرها بأنه لقي أباه عند أسد الدين ، وأنه بخير وعافية ، وأن الأمان الذى اشتراطه أسد الدين على شاور قد شمله فيمن شمل من أولئك الذين تطوعوا من أهل البلاد فانضموا إلى معسكر أسد الدين أو قاموا بمناصرتة ، وأنه آت للقائهما عما قريب بعد أن ينتهى من توديع أسد الدين ورجاله .

وفرحت سمية بقرب لقاء أبيها ، فقد كانت فى شوق إليه بعد هذا الفراق الطويل ، وإن كانت تعلم ما سوى ذلك مما بشرها به زوجها الذى لا يعلم أنها كانت تعلم من أمر أبيها ما يجهل ، على أن فرحها لم يكن خالصا من شوائب الكدر والخوف ، فقلبها يحدثها بأن الذى بين أبيها وبين شاور إن يصف اليوم قليلا ، فريثما يتكدر مرة أخرى حينما تتلبد الغيوم من جديد .

ولكنها لم تشأ أن تفسد على زوجها ما هو فيه من البهجة والانشراح فى ذلك اليوم الباسم من بين أيامه العابسات ، فكتمت ما فى نفسها عنه وانبرت تقاسمه الفرح والابتهاج .

وظف شجاع يحدثها عن آماله فى التوفيق بين أبيه ونور الدين وإصلاح ذات بينهما حتى يتحدا معا ، ويتعاونوا على جهاد الفرنج وإخراجهم من بلاد الشام فيزول بذلك ما اتهم الناس به أباه من خيانة الدين والوطن . فيما دفع إليه وأكره عليه من مصادقة الفرنج فى الظاهر ، إذ حيل بينه وبين مصادقة أسد الدين بعد الذى كان منه فى بلبس . وقال لها : إنه سيستعين بأبيها فى هذا السبيل لما له عند أسد

الدين من مكانة سامية ، ولما يربطه به من صداقة متينة شهد هو بعينه آياتها البينات .

وكنمت سمية أيضا ما فى نفسها ، فجعلت تبدى له أنها تشاركه فى آماله الغراض .

للّهُ قلب سمية ! ما أثقل ما ينوء به من الهموم والآلام ! ما كان أسعدها بزوجها ، وأسعده بها لولا أبوه ! وما كان أسعدهم جميعا لولا هذه الأحوال المضطربة التى تتقلب فيها البلاد !

وبلغ سرور شجاع ذروته حين تم التزاور بين أهله وأهل سمية ، فاجتمع شملهم بعد شتات ، وعاد التصافى بينهم بعد قطيعة وخصام . هاتان أمها وأمه تتحدثان فيما يعنيهما وما لا يعنيهما من الشؤون ، وهذان أبوها وأبوه يتناجيان فى صفاء وقد يتعاتبان قليلا ولكن لا يعدوان العتاب الجميل .

وما كان يهم شجاعا أن يسمع ماذا يقولان ، فحسبه أنهما اليوم متوادان متصافيان ، وما كان يدرى وهو يراهما على هذه الحال من الصفاء ماذا كان يدور فى باطن كل منهما نحو صاحبه : فأما شاور فقد أحس أنه وحيد وأن الناس جميعا يكرهونه ويتهمون به ، وأن مستقبله فى الحكم غير ثابت ولا مستقر ، فرأى أن يتودد إلى أبى الفضل ليستعين بجأه على اجتذاب قلوب الناس إليه من جديد ، ولينتفع برأيه فى اجتياز هذه الفترة الدقيقة من فترات حكمه ، وهو بعد ذو قرابة ورحم ، فلا ينبغي أن تدوم القطيعة بينهما فتجور على من يلوذون بهما من الأهل والولد .

وأما أبو الفضل فكان قد تذاكر مع أسد الدين طويلا فى قضية البلاد ومستقبلها قبيل إبرام صلح الإسكندرية ، وفيما يحتمل أن يحدث بعد جلاء أسد الدين بين الفرنج وشاور . فاتفق رأيهما على اعتبار هذا الاتفاق هدنة مؤقتة فلا بأس من التساهل فيها مع شاور ومع الفرنج ،

وأن عليهما أن يعملوا على التمهيد للجولة التالية التى ينبغى أن تكون الفاصلة ، فتجثت الفساد اجتثاا وتغير مطامع الفرنج إلى الأبد .

ومن ثم رأى أبو الفضل أن يغضى عن كل ما فعل شاور ، ويستأنف معه عهدا جديدا من المودة ليتمكن فى خلاله من العمل فى حرية ، وإذا استطاع فى أثناء ذلك أن يرشده إلى ما يصون حقوق البلاد من أطماع الفرنج فذلك فضل خير .

وهكذا لم يكد شاور يقع فى المحنة عقب جلاء أسد الدين حينما تقدم إليه « مرى » بمطالبه فى تنفيذ الميثاق وإبقاء حامية له فى القاهرة حتى وقف أبو الفضل بجانبه يشد أزره ويشير عليه .

ولا تسئل عن فرح شجاع وسعادته حينما رأى أبا الفضل لا يكاد يفارق أباه فى خلال تلك الأيام العصبية يستشيريه أبوه ويعمل بمشورته فقوى رجاءه فى أن يصلح أبو الفضل بين أبيه وبين نور الدين حتى يتحدا معا فى جهاد الفرنج . ولم يملك من شدة سروره أن فاتح أبا الفضل فى هذا المعنى فوعده أبو الفضل خيرا . وقال له : « هذا غاية قصدى يا شجاع فعسى أن يعيننا والدك على تحقيقه » وذهب شجاع إلى أبيه فأخبره بما يسمع من أبى الفضل ، فسر شاور إذ قام ذلك دليلا عنده على إخلاص أبى الفضل فى الوقوف بجانبه حرصا منه على تحقيق هذا الهدف ، وقال لابنه : « من منا لا يرغب يا بنى فى توحيد كلمة العرب والمسلمين على عدوهم » ؟

وانطلق شجاع إلى سمية فعانقها وهو يقول : « الآن يا حبيبتى اطمأن قلبى » .

وكان أبو الفضل هو الذى أشار على شاور بالموافقة على مطالب الفرنج إلى حين ، إذ خشى كما خشى شاور أن يميلوا عنه إلى العاضد فينالوا من العاضد أكثر مما يطلبون . فقد أيقن مما حدثه شاور عبر مقابلته للعاضد أن للعاضد ضلعا فى الأمر . ولكن أبا الفضل على حصافته لم يكن أحسن من شاور فهما لحقيقة غرض العاضد . فقد ظن

- ١٧٠ -

معا أنه قصد أن تتم الموافقة على يديه تقريبا إلى ملك الفرنج ، وفاتهما أنه لم يقصد إلا أن تجاب مطالب ملك الفرنج حتى يفيد هو من وجود حاميتهم في العاصمة لضمان بقاء عرشه ، وحمايته من شاور ومن غيره .

وقد بلغ من حرص أبى الفضل على الاطلاع على كل ما يجرى في هذا الصدد أن سلك نفسه في حملة التجار الذين اختيروا للتفاوض مع تجار الفرنج ، فكشف له ذلك أن معظمهم ليسوا في الحقيقة تجارا ، وإنما هم رجال محاربون في صورة تجار ، فلم يبق عنده شك أن للقوم مآرب أخرى .

ولكن قضى الأمر فإن مرى لم يغادر البلاد حين غادرها إلا بعد أن ترك وراءه حامية كبيرة من رجاله ، احتلوا الحصون القائمة على أبواب القاهرة ، فصارت مقاليدها في أيديهم .

١٥

واشتد سخط الناس لما رأوا أبواب عاصمتهم في أيدي الفرنج يتحكمون في الغادين منها والرائحين إليها والخارجين ، وقالوا : « ماذا يبقى من استقلال بلد سلمت عاصمته للعدو ؟ وأخذوا ينحون باللائمة على شاور تارة وعلى العاضد أخرى ، بل إن منهم من ألقى التبعة في ذلك على أسد الدين ، إذ رضى أن يرحل عن البلاد قبل رحيل الفرنج ، وكان عليه أن يصير على رحيلهم قبله أو في الأقل على رحيل الجيشين معا في وقت واحد . أهذا جزاء تأييدنا له وجهادنا معه ؟ وهل كان الفرنج يطمعون في أكثر من هذا الذي أحرزوه ؟ علام إذن جاء البنة ليقاتلهم ؟ نحن لا نلوم شاور أو العاضد إذ ما كنا ننتظر منهما خيرا ولكن أسد الدين .. كيف يغرى الفرنج بنا ثم يتركهم ؟

غير أن أهل القاهرة ما لبثوا على مر الأيام أن نقص سخطهم منذ بدأ تجار الفرنج يتوافدون على العاصمة بغير انقطاع ، فأخذت التجارة

تنتعش في أسواقهم وصاروا يحصلون على كثير من سلع الشام وفاكهتها بأسعار طيبة . وصار تجارها يرجون كثيرا من تجارة تلك السلع ، ومن بيع سلع البلاد للتجار الفرنج ليصدروها إلى بلادهم ولا سيما القمح والأرز .

ثم فشا هذا الشعور شيئا فشيئا في سائر أهل مدن القطر وقراه . إذ وجدوا شيئا من الرخاء يشيع في أسواقهم بما يسحب تجار القاهرة من سلعهم وغلاهم ليبيعوها لتجار الفرنج ، فحصل عندهم رواج بعد كساد .

ولكن أهل القسطنطينية ظلوا وحدهم مقيمين على سخطهم ممتنعين عن شراء سلع الفرنج ، مانعين تجارهم من التعامل معهم في بيع أو شراء ، وقد يتجاوز أحدهم فيشتري من بعض الفاكهة لرخص سعرها في القاهرة ويحملها إلى القسطنطينية فينكر جيرانه عليه ويشهرون به .

وأغرى حب الربح نفرا من تجار القسطنطينية ، فاجترأوا على عرض السلع المحرمة في حوانيتهم ، فما مر يوم حتى ضربوا وأهينوا ونهبت حوانيتهم وحطمت تحطيمًا .

وبلغ الفرنج ما حدث فشكوا إلى شاور واحتجوا عنده ، فقال لهم : « ماذا تريدون مني أن أصنع لأهل القسطنطينية ؟ ليس في وسعي أن أكرهم على التعامل معكم فدعوهم واكتفوا بتجار القاهرة .

فقالوا له : « إن لم تقدر أن تعاقب أولئك الذين اعتدوا على حوانيت عملائنا فيها ، فإننا نحن نقدر على ذلك » .

فحذروهم شاور وخوفهم من سوء العاقبة ، وحملهم تبعة ما يصيبهم إن قدموا على ذلك ، فلم يبالوا بتحذيره ، واستدعوا أولئك العملاء ليدلوهم على الأشخاص الذين اعتدوا عليهم ، فترددوا وخافوا وقالوا قد نزلنا عن حقنا فلا عليكم ، ولكن الفرنج أرغموهم على ذلك ، ثم انطلق فريق منهم شاكو السلاح ، فوثبوا على بعض أولئك الأشخاص فأوسعوهم ضربا وجلدا ، حتى مات اثنان منهم وجرح الباقون .

فثارت نائرة أهل الفسطاط ، وغلت الحمية فى نفوسهم ، وقالوا والله لانسكت على هذا أبدا ، ولاندع هؤلاء الشرذمة يستفلوننا ويتحكمون فى رقابنا ، ولنقاتلهم ولنقاتلن أهل القاهرة إن وقفوا دونهم .

وظفق أبو الفضل يشجع هذه الحركة ، فى السر ، وانبث جماعته المصلحون يشبون نارها بين الناس ، ويتولون توجيههم وقيادتهم فيما يعملون وقد استطاعوا بإرشاد أبى الفضل أن يوجهوا هذه الثورة العارمة بحيث تنصب على رؤوس الفرنج وحدهم دون أن تمس مقام شاور من قريب أو من بعيد خشية أن يرحلوا شاور ويضطروه إلى الوقوف فى صف الفرنج ، بل رجاء أن يجتذبه إلى الوقوف فى صفهم إن طوعا وإن كرها بما يثبون فى الناس أن شاور غير مسئول عما حدث من الفرنج وأنهم غلبوه على أمره ، وأنه فى السر يشجع الوثوب بهم والانتقام منهم ليتخلص من سيطرتهم عليه ، وأن المسئول هو العاضد لأنه هو الذى وقع أليثاق أمس ، ولم يوقعه شاور . وهو اليوم يؤيدهم سرا ويأخذ يناصرهم ليحمى بهم عرشه من سخط الشعب .

ولم يكن فى ذلك ما يجافى الحقيقة فقد تغير ما بين شاور وبين الفرنج حقا ، فمالوا عنه إلى العاضد منذ تردد شاور فى الموافقة على ما طالب به ملكهم مرى قبل رخیله ، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب إلى العاضد والاعتماد عليه ، ومساعدته فى المستقبل على إزاحة شاور من كرسى الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك كما كان ديدنه من قبل .

وقد صادف ذلك هوى فى نفس العاضد ، وأخذ يعمل من ذلك الحين سرا على تنفيذ هذه السياسة ، ووقع اختياره على زعيم الخلافة ليكون وزيره المنتظر .

غير أن شاور كان محتلا أن يصانعه ويصلح ما بينه وبينهم لو لم يلتصق به أبو الفضل من أول الأمر فوقف بجانبه يؤيده ويشير عليه .

ويدعو الناس إلى التغاضى عما سلف منه ، وارتفاع ما ينتظر أن يقوم به فى المستقبل ، حتى بدأ الناس يعذرونه ويرضون عنه ، مما سر به شاور فلم يجد حيصا من الانسياق فى هذا السبيل ، ولا سيما بعد أن شهد من قوة الشعب وعظيم أثره فى انتصار أسد الدين على جيوشه وجيوش الفرنج مجتمعاً ، ما زاده يقيناً بالأبقاء له على كرسى الحكم ما لم يكسب رضا الشعب وثقته وتأييده .

وما شعر الفرنج إلا بالغارات تشن عليهم فى جنح الليل والاعتيالات تصيدهم فى وضح النهار ، من رهط مسلمين يتسللون تسلل النسيم ثم ينقضون انقضاض الصاعقة ثم يختفون اختفاء اليرق .

وكذلك اغتيل كثير من الفرنج بأيدي المغاوير من أهل القسطنطينية فوجدت جثثهم ملقاة على قوارع طرق العاصمة ، أو اختطفوا فلم يوجد لهم أثر .

وأخذوا يطالبون شاور بالفدية كلما قتل واحد منهم أو فقد ، فكان شاور يعطيهم ما يريدون . وقد هم لما اشتد ذلك عليه أن يتعقب أولئك المغاوير ، فيضرب على أيديهم بدعوى حفظ الأمن والنظام ، لولا أن أبا الفضل نهاه عن ذلك وأقنعه بأن ذلك سيثير الناس عليه وقد بدأوا يرضون عنه فليدعهم .

ولم يكتف الفرنج بأخذ الفدية عن ضحاياهم بل أخذوا يسلكون سبيل الانتقام من أهل القسطنطينية ومن المصريين عامة . وقد استبد بهم الغضب والحق ، فانفجر ما يبطنون فى أنفسهم من الحقد والضغينة على العرب والمسلمين فغشي على أبصارهم ، فلم يروا ما فى عملهم من إخلال بالسياسة التى رسمها ملكهم من وجوب المضى فى تضليل الشعب المصرى عن حقيقة ما يبيتون له .

وقد أغراهم أن عددهم قد تضاعف منذ رحل ملكهم بمن انضم إليهم من التجار الذين يفدون على العاصمة ثم ينقلبون جنوداً محاربين

يحتلون القلاع والحصون ، فأخذوا يتخطفون نساء الناس وبناتهم فى العاصمة وما حولها إلى جصونهم وقلاعهم . حتى إذا بلغوا من هتك أعراضهن ما يريدون استبقروهن فى خدمتهم أو أرسلوهن ليعدن ذليلات كسيرات إلى أهليهن تشفيا وانتقاما .

وكانوا قد رسموا فى سياستهم من قبل أن يفرقوا بين المسلمين وإخوانهم الأقباط بمختلف الوسائل وشتى السبل من اجتذاب قلوب الأقباط وإيثارهم بالمصالح والمنافع وإيثار صندوقهم على إخوانهم المسلمين ، وتذكيرهم بأنهم وإياهم على دين واحد ، وأن المسلمين جميعا أعداؤهم ، وأنهم قد جاءوا من بلادهم لإنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المسلمين وراء لواء المسيحية فى ربوع الشرق ، فعليهم أن يكونوا معهم إليها واحدا على أعدائهم المسلمين .

ولكنهم كانوا يقابلون ممن اتصلوا بهم من الأقباط بالإعراض والازورار ، وربما جاد لهم بعضهم كما وقع من زكريا بن أبى المليح أحد وجهاء الأقباط وشعرائهم إذ تضدى لهم يوما . فلما حاوروه ، قال لهم : « نحن جميعا مصريون ، وهؤلاء إخواننا وبلادهم بلادنا والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا وما أئتم بأحق بنا منهم ، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم ، فإن مذهبكم يختلف عن مذهبنا فليس يجمعنا بكم شيء .

فأرادوا اليوم أن يتصلوا إلى هدفهم هذا بطرق أخرى ، فأوعزوا إلى بعض الخونة من ضنائهم ، فألقوا القاذورات فى بعض كنائس القسطنطينية والقاهرة ليوهموا الأقباط أن ذلك من عمل إخوانهم المسلمين ، ثم ألقوا مثلها فى بعض مساجد المدينتين ليوهموا المسلمين أن ذلك من عمل إخوانهم الأقباط انتقاما مما وقع على كنائسهم . وكاد هؤلاء الشياطين أن يبلغوا غرضهم ، إذ ثار الأقباط ثم ثار المسلمون فى كلتا المدينتين ، واشتبك فريق من هؤلاء بفريق من

هؤلاء ، لولا أن ارتفع صوتان جهيران فى غمار هذه الفتنة المدممة بين أبناء الوطن الواحد ، فأصم دويهما الآذان فى أول الأمر حتى إذا أصغوا إليهما من خلال الفتنة العاوية سمعوا منها فصل الخطاب ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الجوارح ، وهذأت النفوس ، وثابت العقول .

قال أحد الصوتين فيما قال : أيها المسلمون المصريون ، ويلكم أين يُذهب بعقولكم ؟ كيف تصدقون أن هذه القاذورات قد أُلقيت فى مساجدكم بفعل إخوانكم الأقباط وعلى ملائمتهم ؟ إذن فصدقوا كذلك أن القاذورات قد أُلقيت فى كنائسهم بفعلكم أنتم وعلى ملائمتكم ! تبصروا وتدبروا ثم أجيئوني : علام لم يقع هذا التلويث فى بيوت الله إلا بعد أن جاء هؤلاء الأنجاس ، فلوثوا عاصمتكم بالرجس والعار ، وديسوها بالملذلة والصغار ؟ فإن لم تفهموا ما وراء ذلك من العبرة فما أجدركم والله أن تكونوا أنتم الشياه وأن يكونوا هم الحزارين ، قال الله تعالى : ﴿ ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ .

وقال صوت آخر فيما قال :

« أيها الأقباط المصريون أيها المسيحيون الصادقون ! كيف يضربكم الأعداء فتنتقموا من الأصدقاء ؟ إنه ليس أبعد من تلويث إخوانكم المسلمين لكنائسكم إلا تلويثكم أنتم لمساجدكم ! لقد عشنا فى هذا البلد الأمين قرونا وأحقابا . فلم يقع قط مثل هذا الفعل الآثم فى بيوت الله لا منكم ولا منهم ، وإنما وقع اليوم بعد أن جاء هؤلاء المتوحشون . فأذلوا الرجال وهتكوا أعراض النساء وارتكبوا ما يبرأ منه كل دين ، فما بالكُم بالمسيحية دين المحبة والسلام . أما والمسيح الطهر لو لم يُخطفوا غير أخواتكم المسلمات لوجب عليكم أن تشوروا لكرامتكم ، فكيف وهم لم يفرقوا فى انتقامهم وتشفيهم بين المسلمات والمسيحيات . ما أسرع ما تنسون ، أو قد نسيتم صاحبكم برسوم الديروطى ، إذ رجعت إليه ابنته الوحيدة العذراء من حصونهم بحر ذيل العار فذبحها ثم انتحر ؟ أسألوا

من اتصلوا به منكم ألم يحاولوا إيغار صدورهم على إخوانهم المسلمين ؟
فكيف غاب عنكم أنهم لما عجزوا عن التفرقة بينكم وبين إخوانكم
عمدوا اليوم إلى هذه الحيلة الوضيعة الآثمة ؟ أتريدون أن تبحثوا عن
الأيدي التي لوئت كنائسكم ، ومساجد إخوانكم ، فالتمسوها في تلك
القلاع والحصون !

أما الصوت الأول ، فصوت أبي الفضل الحريري !
وأما الصوت الثاني ، فصوت زكريا بن أبي المليح !
وكان أبو الفضل وابن أبي المليح قد تحريا قبل ذلك عن الجناة ،
فأقروا لهما بأن الذي أوعز إليهم بتلويت الكنائس رجل من الأقباط
يقال له ابن أبي حنش ، وأن الذي أوعز إليهم بتلويت المساجد رجل
من المسلمين يدعى ابن المشهورة ، فأرسل أبو الفضل رجاله
فأدركوهما وهما يحاولان الفرار إلى حصون الفرنج بالقاهرة
فجروهما وحبسوهما .

فلما انتهيا اليوم من خطبتيهما ، وهذأت الثائرة وخبثت النائرة ، أخذنا
يشرحان للسامعين من الفريقين الحقيقة التي كشفت عنها ، ثم أرسلنا في
طلب الخائنين فأحضرا وتعلقت العيون بوجهيهما الكاسفين .

وصاح أبو الفضل : اقترحوا كيف نعاقب هذين الخائنين ؟ !
فصاح ابن أبي المليح : أرى أن يسلم ابن المشهورة إلى المسلمين
ويسلم ابن أبي حنش إلى الأقباط !
فصاح الجميع موافقين .

وكان ذلك يوما مشهودا في الفسطاط إذ شهد الناس ابن
المشهورة ، وقد حفرت له حفرة في أحد أحياء المدينة ، فألقى فيها
فأخذ المسلمون يرمونه بالحجارة حتى تمزق جسده وتقطعت أشلائه .

وعلم أبوه بعد ذلك فعاتبه على أن لم يستشره أولاً فى ذلك ، فأجابه شجاع قائلاً : « خشيت يا سيدى أن تشفق على ابنك فتمنعه وأنا لا أريد أن أعصى أمرك » .

وكان شاور قد كره ذلك خشية أن يخرج الأمر من يده إذ اتسع الخرق عليه فيما بين الفرنج وأهل القسطنطين ، ولكنه لم يجرؤ أن يكشف ابنه بذلك إذ أصبح يرى ابنه كالرقيب الذى فى ضميره يؤنبه على عمل السوء ونيته ويحاسبه حساباً عسيراً .

فقال له : « إذن فيأبك أن تغامر بحياتك يا بنى فتصاب » .

— علام الخوف يا سيدى .. إنها الشهادة .

‘ — الشهادة لك والشكل لى ولأملك ...

— اطمئن يا سيدى فإنما عملى فيهم التدريب والتنظيم ، وقلما أشترك معهم فى الهجمات .

قال ذلك شجاع ليطمئن قلب أبيه وهو لا يعنى ما يقول .

وهكذا ظل شجاع برهة يكتم عن أبيه حقيقة ما يقوم به مع فرقة المغاوير التى أطلق عليها فرقة الموت . إلى أن ضاق شاور يوماً بكثرة ما يدفع للفرنج من فدية عن ضحاياهم فقرر الامتناع عن الدفع وقال لهم : « إن شئتم ألا تصابوا فامتنعوا عن الخروج من حصونكم » .

قالوا له : « إنهم يشنون علينا الغارات على أبواب حصوننا » .

قال لهم : « ماذا أصنع لكم ؟ أنتم الذين بدأتم بالعدوان على

الشعب » ..

قالوا : « نحن هنا مقيمون بمقتضى الاتفاق ، فأنت مسئول عما

يصبينا » .

قال لهم : « كلا لقد نقضتم الاتفاق إذ زدتم عدد الحامية فأصبحتم

اليوم ألفاً بعد أن كنتم مائتين وخمسين » .

فلما لم يجيبهم إلى طلبهم خرجوا من عنده غاضبين متوعدين ..
وأدرك شاور ألا سبيل إلى التراجع ، فأشاع هذا الخبر فى الناس
فتحمسوا له ، وفوجئ شجاع ذات يوم بأبيه يقول له على انفراد .

— كيف حال فرقة الموت يا شجاع ؟

— بخير حال يا سيدى .. يزدادون كل يوم عددا وقوة ..

— أتقودهم أنت بنفسك ؟

فطن شجاع أن أباه قد اكتشف أنه يشترك بنفسه فى هجمات الفرقة
وأراد أن يوجه على إخلاله بما وعد ، فقال له : « نعم يا سيدى ..
سامحنى إذ لم أستطع أن أبر بوعدى لك » .

وشد ما دهش شجاع إذ قال له أبوه : « بل أريد اليوم أن تقوم أنت
بذلك » .

ثم كاشفه شاور بعزمه على أن ينزل بالفرنجة ضربة مفاجئة حتى
تكون منهم مقتلة عظيمة وقال له : « هل أستطيع أن أستعين بفرقتك
فى ذلك ؟ » .

قال له شجاع وهو لا يكاد يصدق ما سمع من شدة الفرح :
« كيف لا يا سيدى ؟ هذه فرقة الموت ولا عمل لها سوى هذا » .

واختار شاور جماعة من رجاله الأشداء ليتفقوا مع فرقة الموت على
خطة موحدة على أن يتولى قيادتهم شجاع ، فأخذ شجاع يعد العدة
من يومئذ .

وأرسل شاور إلى الفرنج ، فاعتذر لهم عما بدر منه من جافى
القول ، وأخبرهم بأنه سيعمل جهده على حفظ الأمن والنظام وردع
أولئك المغيرين حتى لا يضطر إلى دفع الفدية للفرنج .

ففرحوا ظنا منهم أنه خاف من تهديدهم فأراد أن يصلح الأمر بينا
وبينهم ، ولكنهم لم يثقوا كل الثقة بما قال إلا بعد ما رأوا الغارات

والاغتيالات قد أخذت تقل حتى انقطعت جملة ، فاطمانوا حيثئذ وعادوا إلى ما كانوا قد انقطعوا عنه من إقامة حفلات الشراب بين حصونهم في ليالى الأحد .

وجاء عيد من أعيادهم ، فأقاموا حفل سمر استمر إلى آخر الليل حيث شربوا وطربوا حتى سكروا ، وإذا القديون ومن معهم من رجال شاور ينقضون عليهم وهم لا يعون من فرط السكر ، فأوسعوهم ضربا وطعنا وذبحا ، فلم ينجح ممن حضروا منهم إلا القليل . وأحصى عدد قتلاهم فبلغوا أكثر من مائتين .

وأصبح الصباح وإذا موجة من الحماسة قد سرت في أهل القاهرة والفسطاط ثم امتدت إلى سائر أقاليم البلاد ، وهتف الناس بحياة شاور بطل الجهاد . ثم أخذوا يهتفون علنا بسقوط العاضد ، واتهامه بمصادقة الفرنج ليسندوا عرشه .

وحرج مركز العاضد وخشى المغبة ، فعقد مجلسا من دهاقين القصر وقرر على أثره أن يكتب رسالة سرية إلى نور الدين يستنجد به من طغيان الفرنج المقيمين في القاهرة ، ومما يخشى من عودة جيوشهم للانتقام لما وقع على إخوانهم من أيدي الشعب ، وقد رأى أن يبالغ في ذلك ، فأخذ ذوايب من شعور نسائه فبعث بها مع رسالته إلى نور الدين .

أما الفرنج فقد ملئوا رعبا بعد هذه الواقعة ، فانقلبوا في حصونهم لا يبرحونها ليلا ولا نهارا ، وهم ينتظرون أن تقدم حملتهم للانتقام من المصريين . وكانوا يعلمون حين اجتزأوا على شعب مصر بالبغى والعدوان أن ملكهم مرى يوشك أن يعود بمحلمته العظيمة المنتظرة ، فلما ذاقوا الويل من الغارات والاغتيالات وألوا الرسائل إليه يستعجلونه القدوم حتى إذا كانت الواقعة أرسلوا إليه مستغيثين مستصرخين .

١٧

وأيقن شاور أن القوم آتون لا محالة فاستعد للقائهم ، وقد امتلأ اليوم أملا في القدرة على صدهم لما وجد من حماسة الشعب وتأييده له ، وزاده طمأنينة وقوف أبي الفضل بجانبه .. وهو لا يدري أن أبا الفضل لم يستطع أن يثق أو يطمئن إليه . حتى بعد أن جهر شاور بعداء الفرنج وحتى بعد أن دبر لهم تلك المذبحة التي جعلته بطلا في عيون الناس ، فظل يكتب نور الدين سرا ، يطلعه على الأحوال ويستنجزه ما اتفق هو مع أسد الدين عليه . ; وكان شاور ربما يرتاب أحيانا عما يبطئه أبو الفضل لما يعلم من وثيق صلته بأسد الدين ، غير أنه لا يلبث أن يرى من إخلاص أبي الفضل في مساعدته وتجميع قلوب الناس حوله ما يطرد الريبة من نفسه .

وأقبلت جموع الفرنج غزاة فاتحين هذه المرة ، فوصلوا إلى بلبس فانتقموا من أهلها خاصة أقطع انتقام ، ثم أغاروا على الريف يقتلون وينهبون ولا يتركون شيئا إلا استباحوه متشفين منتقمين .

ومما ضاعف حقدهم وحنقهم أنهم وجدوا في هذه المرة مقاومة من الناس في كل مكان ، فصاروا يقتلون كل من بلغته أيديهم ، فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ، وارتكبوا من القذائع ما تقشعر له الأبدان وتنخلع له القلوب .

ولكن ذلك لم يزد الشعب إلا إصرارا على الدفاع عن بلاده بكل ما يملك ، وتنادى بالجهاد في سبيل الله ، فانتشرت الحركة في كل مكان : في الفسطاط وفي القاهرة وفي إسكندرية ، وسائر مدن القطر وقراه ، إلا أن حركة الجهاد تركزت قيادتها في مدينة الفسطاط حتى كأنما صارت هي العاصمة مكان القاهرة .

وفوجىء شاور بالعاضد قد أرسل فى استدعائه إلى القصر ليقابله على انفراد ، فتردد شاور فى أول الأمر خشية أن يغدر به ، ثم ذهب فى حشد من رجاله إليه . واستقبله العاضد وعلى وجهه دلائل الحزن الشديد ، فما إن خلا به حتى أسلم رأسه إلى حجر شاور ، فطفق يبكي وينتحب كالطفل وهو يقول : « أغثنى يا شاور أدركنى يا شاور ! ليس لى سواك » .

فعجب شاور وظن أن العاضد قد خشى أن يخلع ، فتوسل إليه ليقبضه فى العرش ، فقال له فى شىء من العطف والرثاء : « لا تخف يا مولاي فلن يقع ما تكره » .

فرفع العاضد رأسه قائلاً : « قد جربنا بحىء رجال نور الدين وبحىء الفرنج ، فاستطعت أنت مشكورا أن تنقذ البلاد منهم وتصون استقلالها على كل حال ، وتحمى العرش ، أما هذا الذى أراه اليوم من انتقال الأمر كله إلى مدينة الفسطاط ، فإنه الكارثة .

— وأى بأس فى ذلك يا مولاي ؟

— أى بأس ؟ فى ذلك زوال ملك آبائى وأجدادى ، وسينتهى به حكمى وحكمك يا شاور .. فإن أهل الفسطاط لن يخلصوا لنا أبدا ... وكأنما نيه العاضد منه غافلا ، إذ اقتنع شاور فى الحال بما فى ذلك من خطر على حكم شاور نفسه . ولأول مرة منذ زمن بعيد يخطر بذهنه أن مصيره ومصير العاضد واحد ، فقال له : « اطمعن يا مولاي فسأحول دون ما تخشاه » .

— ماذا أنت صانع ؟

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « إننى لا أستطيع أن أخبرك الآن بشىء ، ولكن ثق يا مولاي انى لن أدع الفسطاط تغلب القاهرة أبدا » .

— لا أمان من ذلك ما ظلت قائمة تنافسها !

- كِل هذا الأمر إلى يا مولاي .

- بوركت يا شاور .. إني والله لا أدرى كيف أشكرك .

وبينما كان أهل الفسطاط يعملون منهمكين في إعداد وسائل الدفاع عن مدينتهم وقد استبد بهم شعور عجيب بأن مدينتهم هي الهدف الأول للعدو ، إذ نادى منادى شاور أن اتركوا مدينتكم وانتقلوا إلى القاهرة ، فإن الفسطاط ستحرق لئلا يحتلها العدو ويستولى على ما فيها من الذخائر ، وأن عجلوا اليوم بحمل ما تقدرون من أمتعتكم وأموالكم ، فسيشرع في حرقها عشية غد .

وذهل أهل الفسطاط لما سمعوا ، فاضطرب أمرهم ، واختلفوا فمن قائل : نطيع أمر شاور ، ومن قائل : كلا لا نترك مدينتنا لقول أحد ، هذا سوء تدبير بل خيانة .

وانطلق أبو الفضل إلى شاور فصاح في وجهه : « ماذا فعلت ؟ كيف تحرق الفسطاط وهي قلعة الدفاع الأولى ، وقاعدة الجهاد الكبرى ؟ فأجابه شاور في تصميم : « أجل يا أبا الفضل ، ومن أجل ذلك لن أدع العدو يستولى على ذخائرها وأموالها ، فيمتنع فيها فلا نقدر عليه . » - وملك إن أهلها سيقاتلون دونها حتى آخر رجل .

- فلينتقلوا إلى القاهرة وليقاتلوا دونها منع أهلها ، فإني لا أريد أن تفرق قوتهم .

- وملك إن كان لابد من ذلك . فمر أهل القاهرة يتقبلون إلى الفسطاط ثم احرقها إن شئت .

- كلا هذا لا يكون .. إن القاهرة هي العاصمة .. وقد أصدرت أمرى .. فلا سبيل إلى الرجوع عنه !

- أصدرت أمرك دون أن تستشير أحدا !

- بلى قد استشرت .

- إنك لم تستشرنى .

- ليس على أن أستشيرك فيما لا خيرة لك به من شئون الحرب
فاستشاط أبو الفضل غضبا ، وهو يقول « بل فعلتها يا شاور ولتندمن
غدا » .

- التبعة على لا عليك ..

وتمس أبو الفضل من إقناعه فخرج غاضبا ، وانطلق راجعا إلى
الفسطاط فوجد أهلها فى غمرة حماسهم لقتال الفرنج ، والرعب الذى
استولى عليهم من الفظائع التى ارتكبوها فى الريف ، والثقة التى بقيت
لهم فى شاور ، قد بدأوا يخلون بيوتهم ، ويحملون أهلهم وأموالهم
وأمتعتهم صوب القاهرة ، فأدرك ألا سبيل إلى إقناعهم بالبقاء ورأى ما
فى الخروج على أمر شاور فى هذا الوقت العصيب من الخطر على
الجميع ، فكف عما اعتزمه من المعارضة والإنكار ، بل أخذ يشجع
الناس بنفسه على الانتقال ويحرضهم على التعجل والإسراع .

وأعد شاور عشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل نار
ثم أرسل بها إلى الفسطاط موزعة على أحيائها ، فما غربت شمس ذلك
اليوم الذى أنذرهم به حتى اشتعلت النار فى كل مكان ، وارتفع لهبها
ودخان حريقها إلى عنان السماء . وأخذت المدينة تتوهج من بعيد كأنها
قطعة من جهنم ، وأضاءت ما حولها ، فكان الشمس ما غربت عنه بعد .

ووقف أهلها المساكين والخسرة تغلج فى قلوبهم والدموع تسح من
مآقيهم ، ينظرون إلى ذاك الذى أمسى كتلة من نار ، وكان حتى عصر
يومهم هذا مدينة عظيمة مجيدة تضم أنفس ما يملكون من متاع وأعلى ما
يصنون من ذكريات ، ففيها مساقط رؤوسهم ورؤوس آبائهم ، وفيها
ملاعب صباهم ومسارح لهوهم فى أيام الشباب ، ومواطن تبتلهم فى

عهد الشيخوخة ، موصولة بما سطر التاريخ على أديمها من آيات المجد
التليد والطريف ، وبما يتضوع فى جوها من أنفاس الصحابة والتابعين
ومن تلاهم من الأئمة المجتهدين .

وكانوا قد أزعجوا فى النقلة ، وأعجلوا فيها ، فترك أكثرهم أموالهم
وأثقالهم لينجوا بأنفسهم وعبائهم ، وماجوا واضطربوا كأنما خرجوا من
قبورهم فى المحشر ، فاستبقوا ليجوزوا الصراط إلى القاهرة !

واستحال الطريق نهر ينبع من الفسطاط ويصب فى القاهرة ، ويسيل
بأفواج البشر من كبار وصغار وذكور وإناث ومن ماشين وراكبين
وحاملين على ظهورهم ومحملين على ظهور غيرهم .

وكأى من شاب عجز أبوه الشيخ أو أمه العجوز عن مواصلة السعى
فألقي المتاع الذى على ظهره ليحمل أمه أو أباه .

وكأى من دابة حملت فوق ما تطيق فركت فى وسط الطريق فوقف
صاحبها حائرا لا يدري ماذا يأخذ من حملها وماذا يدع : ورب طفل
انفصل عن والدته فى كظلة الزحام ، فطفقت تناديه باكية مولولة ،
تلفت يمنة ويسرة ولا تستطيع أن تبحث عنه وراءها مما يجرفها الزحام .

وقليل من أهل الفسطاط من تمكنوا من حمل أموالهم ونقل متاعهم
بمن وجدوا الدواب أو استطاعوا اكتراءها ، فقد بلغ كراء الدابة من
الفسطاط إلى القاهرة بضعة عشر دينارا وكراء الجمل ثلاثين .

ثم قليل منهم من استطاعوا أن يجدوا دورا يسكنونها فى القاهرة أما
أكثرهم فقد كان أسعدهم حظا من سبقوا إلى المساجد والحمائم ،
فتكأ كأوا فيها بعضهم على بعض . وما وجد الباقون غير الأزقة
والطرقات . فتسابقوا عليها وتنافسوا فيها حتى غصت بهم القاهرة
فصارت كأنها خلية من خلايا النحل أو بيت من بيوت النمل .

١٨

وأقبل الفرنج ميممين صوب القسطنطين ، فقد جعلوها هدفهم الأول لما بلغهم أن القوة التي يخافونها قد تركزت هناك . فإذا استطاعوا القضاء عليها سهل عليهم ما بعد ذلك . ولذلك قرر ملكهم مرى أن ينقضوا على هذه القوة الشعبية أولا . وأن يتجنبوا الالتحام مع جنود شاوور ما أمكن ، فربما ينجحون في التفاوض معه أو مع الخليفة نفسه بعد أن يقضوا على القاعدة العظمى لقوة المقاومة الشعبية التي قاسوا منها في طريقهم عبر الريف فيضمنوا بعد ذلك أن أسد الدين لن يجد سندا له إذا عاد ، فقد أدركوا أنه لا العاضد ولا شاوور يحتمل مختارا وجود أسد الدين في مصر .

فما راعاهم وهم منطلقون في طريقهم إلا دخان عظيم يتعالى في أفق السماء من بعيد فوققوا برهة متعججين ، ثم واصلوا مسيرهم فإذا نهرا تشتعل وتمتد ألسنتها الهائلة إلى عنان السماء ، فوققوا مرة أخرى مبهوتين . وجعلوا يتأملونها ويقدرن موضعها ، فأدركوا أنها صاعدة من حيث تقوم مدينة القسطنطين ، ولكنهم لم يتيقنوا من ذلك حتى صاروا منها على أميال . فرأوا أن ينزلوا (بركة الحبش) ريثما يعرفون سر هذا الحريق الكبير . ويرون ما يكون من الأمر .

وتشاوور مرى مع رجاله ، فاتفقوا على أنه لا معدى من أحد أمرين لا ثالث لهما . فإما أن يكون شاوور قد أخطأ في تدبيره من الناحية الحربية فظن أن حريق القسطنطين هو الخطة المثلى لصعد عدوه ومدافقته ، وإما أن يكون قد قصد القضاء على هذه القوة الشعبية التي تركزت في القسطنطين خشية أن تغلبه على أمره في المستقبل أو تكون عوناً لجيش نور الدين عليه ، كما كانت من قبل .

وقد رجح مرى هذا الأمر الثاني من طول خبرته بشاوور ومعرفته لخباياه فما لبث أن تقدم بمجموعه صوب القاهرة ، فطوقوها ، وقد وثقوا

أن النصر قد صار مضمونا لهم ، فضرَبوا خيامهم حول العاصمة على هيتهم وأقاموا فيها مطمئنين . وأصبح قصارى خوفهم أن يجيء جيش نور الدين من الشام ، ولكن أين جيش نور الدين ؟ لن يصل إليهم إذا جاء إلا بعد أن تسلم القاهرة لهم ، فيدخلوها وقيموا فيها ممتنعين .

ولكن طمأنيتهم لم تدم طويلا . فما لبثت فرقة الموت من فتيان الفسطاط ومن انضم إليهم من غيرها أن نشطت من جديد ، فأخذ أبطالها المغاوير يغيرون تحت ستار الليل على خيام الفرنج فيصيبون من يُصيبون ثم يحتفون كالأشباح .

وبقيت النار تشتعل في الفسطاط أربعة وخمسين يوما ، ثم أخذت تخبو بعد أن صارت المدينة رمادا .

ولكن القاهرة بقيت تحت الحصار تصلى نارا وقودها الأرواح والأبدان لا السقوف والجدران ، ثم لا يستحيل وقودها إلى رماد بل إلى رمم ذات نتن وفساد ! ها هم أولاء أهلها قد تناهى بهم الخطب واشتد عليهم الكرب وفشا فيهم الجوع والموت ولا سيما فى اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط الذين تغص بهم الأزقة والطرق . وكانوا فى أول الأمر يتبلغون بما يأتيهم من صدقات المحسنين فأخذت تقل تلك الصدقات حتى انقطعت أو كادت ، فصاروا يجأرون بالشكوى ، ويمشون جماعات جماعات يجوبون الشوارع ويسبون شاور ويلعنونه ، ويتهمون به بالخيانة والغدر . وكل ما تنطلق به ألسنتهم من قبيح النعوت والصفات .

وضاق شاور بأمرهم لا يدرى ماذا يصنع بهم ، كما ضاق باختلال الأمن فى المدينة إذ كثرت جرائم القتل وحوادث السرقة والسطو على المنازل فأدرك ألا صبر على هذه الحال ، وألا بد من التماس مخرج قبل أن يقع مالا محمد عقباه فأخذ أياما يفكر ويدبر ويقدر .

وكان يعلم أن مرى قد بدأ يضيق من طول الحصار ، وأن الشاعة التى أطلقها شاور عن قرب قدوم أسد الدين قد أحدثت أثرها فيه وفى

رجاله ، فضلا على غارات الليل التى يشنها عليهم الفدائيون ، فرأى أن ينتفع بهذا كله فى عرض الصلح عليه وإقناعه به مع وعده بإطلاق الأسرى الذين كانوا من حاميته فى العاصمة من قبل ومع إطماعه فى مال عظيم يؤديه له إذا قبل الصلح ومغادرة البلاد .

فكتب رسالة إلى مرى رميت إليه من سور المدينة ، فجاء الرد منه بقبول التفاوض فى ذلك . وهم شاور أن يخرج بنفسه إليه ، ليتمكن من إقناعه بفصاحته وقوة حجته ، ولكنه حشى من غدره ، فاكفى بإرسال القاضى الفاضل بعد أن لقنه ما ينبغى أن يحاور به ملك الفرنج ، وناهيك بالقاضى الفاضل ذكاء وفصاحة ، ولكنه أيقن بعد أن استمع إلى توجيه شاور أنه ما كان ليقدر أن يبلغ الغاية فى أداء مهمته لو لم يقتبس من بيان شاور ونصاعة حجته حتى سأل نفسه وهو فى طريقه إلى ملك الفرنج : « ماذ يكون حاله لو رزق مع براعته فى الكتابة والإنشاء ما عند شاور من بلاغة القول وقوة الاقتناع ؟ » ثم استطرد يقول لنفسه : « ماذا يكون حال شاور هذا وهو ما هو فى الدهاء والفتنة والكرم والشجاعة وقوة الشكيمة مع هذا البيان الساحر ، لو رزق الإخلاص لدينه ووطنه؟ إذن لكان اليوم رجل العرب غير مدافع .

ونجح القاضى الفاضل فى مهمته ، فتم الصلح على ألف ألف دينار يأخذها مرى وينسحب من البلاد . وقد سلمت له مائة ألف دينار فى الحال وأجل الباقي حتى يتمكن شاور من جمعه بعد فك حصار القاهرة ، وانسحاب مرى بجيشه من حولها ليعسكر بهم على فراسخ من جنوب القسطنطينية إلى أن يقبض الباقي فيغادر مصر .

ولكن مرى لم يقيم طويلا فى معسكره هناك ، إذ بلغه أن أسد الدين قد أقبل فى جيش كبير لا يقبل عن ستة آلاف فارس ، وحملة كاملة العدة فأيقن ألا قبل له بملاقاته بعد ما شهد من ازدياد مقاومة الشعب للفرنج ، وميله إلى أسد الدين ، فقرر مغادرة مصر على الفور دون

انتظار بقية المال الذى له . واكتفى بأن كسب إلى شاور يخبره بأنه قد عجل بالرحيل إلى بلده ثقة منه بأن شاور سيرسل إليه ما بقى من مال الصلح ، فسلم شاور للرسول جوابا يشكر له فيه حسن ثقته ، ويؤكد له أنه سيفى بما عليه فى أقرب وقت مستطاع .

وكان شجاع ابنه حاضرا فسأله : « هل تنوى يا سيدى أن تفى له بذلك حقا ؟ فأجابه شاور قائلا : « ويحك يا شجاع ما أطيب قلبك » .

وكان شجاع قد أنكر على أبيه حريق الفسطاط . واعتبر ذلك زلة لا تغتفر وسوء تدبير لا يمرر له ، إلا أنه لم يبلغ به ذلك إلى حد اتهامه بالخيانة . فكل ما أخذ عليه أنه استبد برأيه فى هذا الأمر الخطير ، ولم يراع ما ينتج عنه من الكوارث والويلات لأهل المدينة المنكوبة ، ولم ينظر بعين الاعتبار إلى ما كان عليه أهلها من الحمية واليقظة ، وما أعدوه فى مدينتهم من أسباب القوة ، ووسائل الدفاع ، فكانت أخرى ، لو لم تأكلها النار ، أن تكون عوناً له فى صد العدو ومقاومته وتعطيل تقدمه ، ولكنها زلة جديدة أوقعه فيها غلوه فى الاعتداد برأيه ، وعدم مبالاته بما يقول الناس غدا عنه . وعلى شجاع وحده أن يخجل عن أبيه من سوء فعل أبيه ، ويتجرع غصص المذلة والهوان مما يسمع من كلام الناس فيه .

أواه . أكلما بدأ الناس يرضون عنه ، ويحملون له حسنة من حسناته أو مآثرة من مآثره . أو عملاً مجيداً من أعماله ، بحث عن سيئة جديدة فتطوع بارتكابها ليحبط بها كل ما فعل من خير وكسب من فضل ؟ إن الذى يحير عقله أن أباه ليس بضعيف الرأى ولا قصير النظر ولا قليل البصر بالأمور ، بل هو موف على الغاية فى ذلك كله ، فكيف .. كيف بالله يقع فى مثل هذه السقطات الواضحة التى لا يقع فيها حتى ذوو الرأى الضعيف والنظر القصير ، والبصر القليل بالأمور ؟

ثم إنه قد اصطالح مع أبى الفضل فعاد ما بينهما من السودة . ووقف أبو الفضل بجانبه مؤيدا له ومنافحا عنه وداعيا إليه ، وصار أبوه يستشيريه فى الجليل والحقير من الأمور ، فوا عجباً كيف لم يستشره فى هذا الأمر الخطير الذى لا يدانيه فى خطره أمر ؟ بل وأأسفاه أن نبهه أبو الفضل فلم يمتبه وحذره وأنذره . فلم يبال بالتحذير والإنذار .

و لم يستطع شجاع أن يخفى عن أبيه استيائه من عمله ، فغاضبه . على شدة حبه له ، حتى كان لا يكلمه ولا يجلس إليه ، ولكن شاور بعضى فى سبيله لا يلوى على شيء كأنما لا يعنيه غضب ابنه الوحيد ولا حزنه ولا اغتمامه فى شيء .

وكان يكون الأمر أهون على شجاع لولا دخول أمه بينه وبين أبيه ، فلا تكاد تؤنس منه أى ازورار عن أبيه أو عتب عليه حتى تبادر بلومه وتعنيفه ، دون أن تسأل عن سبب أو تستمع إلى عذر ، بل تقول دائماً : إن أردت الخير والبركة فانزل على رأى أليك وابتع رضاه واتق إغضابه . فما وسع شجاعاً إلا طاعتها ، فاسترضى أباه فى الظاهر ليرضيها ، ولكنه صار يتجنب لقاءه فى البيت جهد ما يستطيع . ووجد فى الطواف على اللاجئين من أهل القسطنطين لمواساتهم وعونهم وتفقد حاجاتهم وقضاء ما يقدر منها عذر يتعلل به فى الغياب عن البيت طول النهار وشطراً من الليل .

وكانت سمية تشعر بما يكابد زوجها فترق له وتحنو عليه ، ولكنها لا تنطق بشيء . ولا تدخل فيما بين زوجها وبين أبيه أو أمه ، خشية أن تزيد بذلك همه وأساه . وقد فات هذه الزوجة المحبة الوفية أن زوجها الذى لا يقل عنها صدق حب ورقة وشعور ، يدرك ما تعانيه هى من جرائه ، ويقدر المعنى الذى تصمت من أجله عن مساءلته فى خطبه ، فيزداد من أجلها أسى على أسى وهما على هم .

ولما رأى الفرنج قد شرعوا فى حصار القاهرة ، أحس كأنما وجد المهرب من ذلك الحرج الذى يعانيه من جهة أبيه ، فترك له كتاباً فى

البيت يخبره عن نيته وغايته ، ثم تسلل من المدينة مع رفاقه من فرقة الموت ، قبل أن يتم حصارها بقليل ، ليتمكنوا من شن الغارات على الفرنج من خلفهم ، ودعوة غيرهم من فتيان القرى التى حولها للانضمام إلى فرقته متطوعين مجاهدين .

فكان شجاع وهو يعمل فى هذا السبيل يشعر كأنما عليه أن يكفر عن السيئة التى ارتكبها أبوه ، فيبدى من المغامرة بحياته ، ما يبلغ حد التهور فى كثير من الأحيان .

ثم لما فك الحصار عن القاهرة ، وانسحب الفرنج بعيدا عنها ، أعجبه ما صنع أبوه ، فطار فرحا إليه واعتنقه وقبل رأسه مثنيا على حسن تربيته ولطف حيلته ، ثم جعل يعتذر إليه عما كان من خروجه بغير إذن منه ، فسر شاور من فعله ، وقال له ضاحكا : « ويحك يا بنى ألم تعلم أن العمل الذى قمتم به أنت ورفاقتك كان من أكبر ما أعاننى فى إقناع مرى بقبول الصلح ؟

وحينما وردت الأنباء بقدوم أسد الدين ، أبدى شجاع من الفرح والاستبشار ما أخرج صدر أبيه ، وأخرجه من حلمه ، فصاح فى وجهه : « اقتصد وبلغ من ولد قليل البر .. أتقعد فى الظل وتترك أباك قائما وحده فى الشمس ؟

وكانت بديهة شاور هذه أسرع على شجاع من أن يتابعها فى الحال ، فسكت غير طويل ثم قال مجاريا ولده فى كناية : « بل سنقعد يا سيدى جميعا فى الظل » .

— هيهات .. إن أسد الدين يريد أن ينزع العمامة التى تقى رأسى ضربة الشمس ! أو قد نسيت عداوته لى ؟

— ما عاداك إلا من أجل الفرنج .. أما وقد صارحتهم العداء ، وأنزلت بحاميتهم تلك الواقعة ، ثم دافعت جيش مرى حتى استطعت أن تجليه بحيلتك ، فلن يجد أسد الدين من سبب لمعادتك ...

— لكنه سيجد أسبابا للبقاء في مصر ..

قال له شجاع : « ما عليك يا سيدى إلا أن تحسن لقاءه ، فتعيد إلى نفسه الثقة ثم تعقد معه ميثاقا على التعاون في جهاد الفرنج ، فسيعود حيثنذ إلى بلده » .

وقد شك شاور في قبول أسد الدين ذلك منه ، إلا أنه ارتاح على كل حال لهذا رأى الذى جرى على لسان ابنه ، فقال لنفسه : « ليس أمامى اليوم غير هذا السبيل » .

وكان أهل القاهرة قد تنفسوا الصعداء لما ارتفع عنها الحصار ، ثم ازدادوا سرور لما سمعوا بقدم أسد الدين . وحمدوا لشاور ما صنع ، وتحدثوا معجبين كيف استطاع بحيلته ودهائه أن يطاول ملك الفرنج ريثما تأتى نجدة من الشام ، فلما أحس باقتراب مجيئها احتال عليه تلك الحيلة البارة فحملة على الانسحاب بعيدا عن العاصمة متوهما أنه سيقبض بقية المال من شاور . ولا يعلم أن شاور قد خدعه . هكذا كان جل أهل القاهرة يتحدثون عن دهاء شاور وحكمته .

أما اللاجئين من أهل القسطنطينية ، فقد هدأت نفوسهم قليلا لما شعروا من جوع ، ثم تذكروا أنهم أصبحوا لا بيوت لهم ولا متاع ، فعادوهم الأسى ، وتذكروا أن شاور هو الذى أحرقها ، فعادوهم السخط عليه ، ولم يشفع له عندهم أنه أخذ يعد لهم المضارب والخيام فى أرباض القاهرة ليسكنوها ، فأين المضارب والخيام من الدور الواسعة ، والبيوت الجميلة ذات المتاع والرياض ؟

غير أن نبأ قدوم أسد الدين أنساهم كثيرا من همهم ، وفتح لهم باب الأمل فى أن ينظر إلى قضيتهم بعين العدل والإنصاف ، فتبنى لهم المساكن والبيوت وتعطى لهم الأمتعة والمرافق تعويضا لهم عن بعض ما فقدوه ، فهيهات أن يعرض ما فقدوه .

وقد سلك ملك الفرنج في مسيره طريق الصحراء الشرقية ليتفادى من لقاء أسد الدين الذى أقبل من طريق بلبيس معقبا على آثار الفرنج

فواسى أهل بلبس فيما نكبهم الفرنج ، ثم مضى فى طريقه معرجا على كل محلة فى الريف ، فكان كالبلسم لكل قرح مسهم من أيدي الفرنج ، وقد لقي من ترحيب المصريين به فى كل مكان . ووجد من صبرهم وحميتهم وحماستهم ، ما جعله يقول لنفسه ولأصحابه « إن كان لنا خلاص فمن هنا .. ليعثن الله من هؤلاء غدا من يخرج العدو من الوطن العربى كله .

فلما وصل إلى القاهرة رأى عجباً ، رأى الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم يخرجون لاستقباله ، وقد ارتدوا أحسن ثيابهم ، ورأى بينهم أقواماً تنطق أسماعهم البالية وهدومهم الرثة بالبؤس والتعاسة ، ولكن تنطق وجوههم بالبشر والابتهاج .

وكان شاور ورجاله ، وأبو الفضل وجماعته ، وشجاع وفرقه فى مقدمة المستقبليين ، حتى دخلوا العاصمة فى موكب عظيم ، لم تر مثله من عهد بعيد .

وقد فرح الناس جميعاً حين رأوا شاور راكباً بجانب أسد الدين يحمّاه ويواسطه ، ويتلقى عرفاً جواديهما بين الحين والحين ، كأن لم يكن بينهما شيء من قبل ، وسرى فيهم شعور غامر بأن ويلات الحرب قد انزاحت عن أرض مصر ، فلن يقتل شاور وأسد الدين بعد يومهم هذا ، ولن يجرؤ الفرنج على العودة بعد اتحاد هذين القائدين .

لهذا فحسب أو قريب من هذا فرحوا كل هذا الفرح وابتهجوا كل هذا الابتهاج .

ترى كيف يكون فرحهم وابتهاجهم لسو علموا أن الذى طربوا له اليوم شيء زهيد بالنظر إلى غدهم السعيد ، يوم يشرق على البلاد عهد جديد .

السفر الثالث

١

ما كان الناس يعلمون يوم استقبلوا أسد الدين ، وساروا فى موكبه أنهم كانوا يستقبلون عهدا جديدا . ويسيرون فى موكب العهد الجديد ، بل لم يشعروا بأن العهد الجديد قد أظلمهم حتى بعد أن أشرقت فى سماء البلاد بعض أنواره . وظهرت على أرضها بعض آثاره . ذلك أنه دخل إلى عاصمة القطر ثم انتشر فى أقاليمه دون أن يشن حربا حتى على الطغاة الظلمة ، ودون أن يسفك من دمائهم أو دماء جنودهم وأتباعهم قطرة واحدة .

فهم أولا يرون العاضد مقيما فى قصره كما كان ، ويرون وزيره شاور باقيا فى منصبه كما كان ، ويرون جنود الدولة فى ثكناتهم ومعسكراتهم كالعهد ساكنين مطمئنين . يأكلون ويشربون ويرتلون الحلل الفاخرة ذات الطرز الجميلة والسماوات المميزة لرتبهم وأقدارهم ينتظرون أمرا من شاور ليطيعوه ، أو أمرا من الخليفة ليطيعوه أيضا إذا وافق شاور عليه .

أما وجود أسد الدين معسكرا بجيشه بأرض اللوق خارج العاصمة فلم يكن ذلك عند الناس بدعا من الأمر . فقد سبق أن أقام بجيشه هكنا من قبل حيث مكث برهة طويلة بعد القضاء على ضرغام وإعادة شاور إلى منصبه . فلم يصنع غير ذلك من شيء يذكر ، إلى أن ارتحل صوب بليس للقاء الفرنج ، فكان من أمره معهم ما كان . ثم جاء بعد ذلك

كرة ثانية ، فقاتل جنود شاور وجنود الفرنج . وانتصر عليهم فى الصعيد . واستولى على إسكندرية ، فماذا كان خاتمة أمره ؟ أبرم مع شاور وحلفائه اتفاق الإسكندرية ، فرجع إلى بلاده دون أن يصنع شيئا .

فماذا عسى أن يصنع اليوم ، وقد قدم بعد ما عادى شاور الفرنج فقاتلهم ثم أجلاهم عن البلاد ، فدخل يوم دخل مسالما لشاور مصادقا له ولعله قد شكره وأثنى عليه إذ كفاه مؤنة قتال أعدائه ؟

وهكذا لم ير الناس من شيء جديد يشعرهم بأنهم قد دخلوا فى عهد جديد ، وأنهم يعيشون منذ اليوم تحت جناح ثورة هائلة بعيدة المدى عميقة القرار لم يقيم فى بلادهم منذ أشرق فيها نور الإسلام أعظم منها خطرا ولا أوسع منها أثرا .

ولا ملام على الناس إذ لم يتبينوها من أول وهلة . ولا يصح اتهامهم بالغفلة أو قلة الإدراك بل اللوم - إن كان لا بد من اللوم - عليها هى إذ طلعت عليهم ثورة بيضاء ، لا يرى الناظرون فيها بقعة واحدة حمراء ، وعهدهم بالثورات حتى الصغرى منها أنها كانت كالعرائس تختضب قبل زفافها حتى يكون زفافها مشهودا بملأ الأبصار والأسماع !

ثم أدركوها فيما بعد ، حين اختلط بياضها الصامت بألوان شتى من جراء اتصالها وتغلغلها فى صميم حياتهم وحياة بلادهم ، فأصبحت هى ناطقة بما طرأ عليها من الألوان المختلفة ، وصاروا يلمسون أثرها فى كل شأن من شئون حياتهم وكل مرفق من مرافق بلادهم .

ولكن حتى إذ ذاك ظل سرها مكتوما عنهم لا يعلمه إلا قليل .

ولم يكن ذلك عن تقصير منهم فى البحث والاستطلاع ، وتقضى الأسباب التى أفضت إلى هذا الانقلاب الكبير ، واستكناها من النتائج التى انبثقت عنه ، فقد بذلوا فى ذلك غاية وسعهم ، فكان قصارى ما انتهى إليه أبعدهم نظرا وأسدهم رأيا وأصحهم فهما أن أسد الدين قد استطاع بقوة جيشه وبمعاونة بعض المخلصين من أبناء مصر ، كأبى الفضل وأمثاله أن يهيمن على أمور البلاد حين ترانخت قبضة شاور وقبضة العاضد أيضا على أثر ما منى به كلاهما من الهزائم والصدمات ، ففقد شاور ما كان عنده من روح الكفاح والجلاد . كما فقد العاضد قدرته الأولى على الكيد وتدبير الخطط من وراء الستار . فخلا الجو لأسد الدين فأمكنه أن يقوم بهذا الإصلاح الشامل ، ويحقق منه بعد ما زالت العقبات من طريقه ما كان من قبل مستحيلا أو كالمستحيل .

وإنهم لمعدورون إذ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أبعد من هذا ، لأن النفر القليل الذين يملكون إطلاعهم على جلية الأمر ، لم يشاءوا أن ييوجوا بالسر لأحد احتسابا منهم لله ، وزهدا فى الشهرة والجاه عند الناس .

وأنى يخاطر بياهم أن هذه الثورة قد انقذح نورها أول ما انقذح فى قلب رجل واحد من المصريين هو ذلك التاجر من تجار الحرير الذى يدعى أبا الفضل ، ثم أقبسه لطائفة من أصدقائه وثق بصلاحيهم وإخلاصهم فصار النور يضىء فى قلوبهم خافتا لا تدركه حتى يصارهم هم ، وإنما تدركه بصائرهم وحدها .

ثم أخذت هذه البصائر النيرة - وقد توحدت فصارت بصيرة واحدة كبيرة - تتلمس سبيل الخلاص فى ذلك الديجور الحالك ، فتتهدى إليه

بعد لأى . ولكنه بعيد جد بعيد ، ودون الوصول إليه عقبات وعقبات
يكفى أيسرها لملء قلوبهم يأسا لولا إيمان لم يدع فيها موضعا ليأس من
رحمة الله أو قنوط .

. وإذ وضع لهم سبيل الخلاص اشتد بهم الشوق إلى تحقيقه ، وتحول
الشوق إلى عزم ، فأمدهم العزم بقوة هائلة جعلتهم الجماعة الوحيدة
التماسكة فى مجتمع متهيل غير متماسك .

وسبيل الخلاص عند جماعة المصلحين هو القضاء على أصل الفساد
القابع فى القصر . ولكن كيف يتم ذلك ، وفى يده وأيدى الوزراء
الذين يتلاعب بهم ، تلك القوة العظيمة قوة الجيش ، وقد أصبحت لا
تحمى الدولة بل تحمى العرش والجالس عليه ، فصارت سوط عذاب لا
على العدو الذى يتربص بالبلاد على الحدود بل على الشعب .

ونظروا فإذا وراء الحدود من أرض الشام مجاهد عربى عظيم يقف
وحده مناضلا دون العدو لينتزع منه بعض ما اغتصبه من أرض العرب ،
ويحول دون استيلائه على ما بقى منها فى أيدي أهلها العرب ،
فتوجهت قلوبهم إليهم ليستعينوا به فى تخليص مصر من فسادها الحاضر
وتأمينها بذلك من كارثة الوقوع عاجلا أو آجلا فى يد العدو المشترك .
ومن ثم بدأ رئيس الجماعات يكتتب نور الدين ، ثم اتفق أن ولي
شاوور الوزارة فتعلقت آمالهم به عسى أن يستعمل قوة الجيش فى تحقيق
هدفهم ، ولكن لم يلبث أن تغلب عليه ضرغام ، فأشاروا على شاوور
باللجوء إلى نور الدين والاستنجاد به وأيدوه برسائلهم لدى نور الدين
حتى استجاب لهم ، فكان ذلك أول خطوة عملية فى هذا السبيل .

لما تبين لهم أن شاور ليس جديرا بثقتهم ، نفضوا أيديهم منه ولكنهم مضوا فى سبيلهم . وانتفعوا بالكوارث والأحداث التى نزلت بالبلاد من جراء الحروب التى دارت على أرضها بين جيش نور الدين والفرنج ، لما كان لها من أثر عظيم فى تنبيه وعى الشعب . فأصبح الشعب قوة فعالة فى تقدير مصير بلاده .

وكانت الأيام التى قضها أسد الدين خارج القاهرة يحاصرها ، والفرنج يحاصرون الإسكندرية . ذات خطر كبير فى وضع الأسس الثابتة لهذه الثورة المباركة التى تحنى البلاد ثمارها اليوم ، إذ كان رئيس الجماعات مقيما معه فى خيمة ، فكاشفه بكل ما فى نفسه . وذاكره فيما ينبغى عمله فى هذا السبيل ، فوافق أسد الدين على كل ما اقترحه أبو الفضل الحريرى . ولم يبق إلا أن يعرضه على نور الدين ليوافق عليه .

وهكذا غادر أسد الدين مصر للمرة الثانية ، وهو على اتفاق تام مع أبى الفضل على أن يعود مرة أخرى لتنفيذ خطتهما الكبرى . فلما عاد هذه المرة الثالثة كان أبو الفضل وجماعته قد هياؤا كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، دون أن يلتفتوا لما جد من محاربة شاور للفرنج أو يعطوه أى اعتبار منذ نفضوا أيديهم منه .

٢

وظن شاور أن فى وسعه أن يستعيد ثقة أسد الدين إذا تودد إليه كما اقترح ذلك عليه ابنه شجاع . فيصالحه على شىء ويرضيه بما يريد ، فاستجاب له أسد الدين فى الظاهر ، وكان حريصا أن يستجيب له فى الباطن كذلك لو لم يكن متفقاً مع أبى الفضل وجماعته على وجوب

اطراح شاور ، وعدم الاعتماد عليه ، والمضى فى عملهم دون التعرض له بخير أو شر حتى يبدى هو صفحته ، فإن سكت سكتوا عنه وتركوه ، وإن قاوم أو حاول أن يعرقل ضربوه على يده وأزاحوه عن الطريق .
ومكث شاور أياما وهو يتردد على أسد الدين فى معسكره بأرض اللوق زائرا متوددا فيستقبله أسد الدين أحسن استقبال ويجالسه ويأسطه ، ويثنى على قتاله للفرنج ، وعلى حسن حيلته حتى أجلاه عن البلاد - فكفاه بذلك مؤنة قتالهم ، فيسر شاور من ذلك ويتنظر أن يحدثه أسد الدين عما ينوى أن يعمل فى مصر ، ولكن أسد الدين يتجاهل هذه المسألة أمامه ، فلا يعرض لها بمحدث .

إلى أن ضاق شاور يوما بالحال ، فخلا بأسد الدين ، فكأشفه بما فى نفسه ، قال له : « قد تمت نعمة الله علينا فعдна وإياكم أصدقاء ، وأزاح الله عنا فتنة الفرنج ، أفلا تتفاوض اليوم فيما ينبغى أن نعقد بيننا وبينكم ؟ » .

فأجابه أسد الدين مداعبا : « أو قد ضقت يا أبا شجاع بإقامتنا فى بلادكم ؟ »

- كلا والله .. إنكم لعلى الرحب والسعة .. ولكنى أخشى أن تعجلكم الأحداث فتغادروا مضر قبل أن أتفق معكم على شىء .

- إنى لا أستطيع أن أتفق معك على شىء ..

فاضطرب شاور قائلا : « ولم يا أسد الدين ؟ .. »

- إنى لست حاكما مثلك .. وإنما أنا جندى من جنود نور الدين

فنور الدين هو الذى يتفق معك ..

فسرى عن شاور قليلا وقال : « أنت تنوب عن نور الدين » .

— ٢٠٠ —

— أنوب عنه فى شتون الحرب لا فى شتون السلم .
 — تفاوضنى على أساس الاتفاق القديم بينى وبين نور الدين .
 — إن أردت الحق يا أبا شجاع فإننى قد نسيت شروط ذلك الاتفاق
 من طول ما تقادم عهده .
 — سأذكرك به إن شئت .. ثلث الخراج والتعاون معه على قتال
 الفرنج ...

— هل تقبل أنت اليوم ذلك ؟
 — أقبل التعاون على قتال الفرنج .. وستفاوض فى ثلث الخراج :
 — قد أخبرتكم أنى لا أملك التفاوض فى شىء .
 فهم شاور أن يقول له : « فيم إذن بقاؤك فى مصر ؟ ولكنه
 استهجن ذلك فأمسك ، وكفاه أسد الدين مؤنة ذلك إذ مضى يقول :
 « وأنا باق هنا حتى يصل إلى كتاب من نور الدين فأمثل لأمره » .
 فنشجع شاور حينئذ فقال : « كأنك يا أسد الدين لا تعلم اليوم كم
 تنوون أن تقيموا بيننا » .

— لا يا أبا شجاع حتى يصل كتاب نور الدين ، فأعلم ما يريد .
 ورجع شاور إلى داره والهواجس تذهب به كل مذهب . آه لو أعلم
 ماذا وراء هذا الرجل ! ثم خطر له فجأة أنه ربما كان أسد الدين قد
 اتفق من دونه مع العاضد على شىء ، وتذكر أن العاضد قد خلع عليه
 وعلى رجاله يوم قدموا ثم قابله أسد الدين بعد ذلك فى قصره مرة
 أو مرتين ، فقال لنفسه : عجباً كيف لم يخطر لى هذا الخاطر من قبل ؟
 ومضى شاور متسللاً إلى القصر ليستطلع الحقيقة من العاضد ، وكان
 على وفاق معه . وصفاء ، منذ استجاب لرغبة العاضد فى القضاء على

— ٢٠١ —

الفسطاط ، فاستقبله العاضد مرحبا كعادته ، وقال له : « ماذا شغلك عنا يا أبا شجاع ، فإننا لم نرك منذ أيام ؟ » .

— ما شغلنى يا مولاي غير هؤلاء القوم ، أتفقد حاجاتهم وأنظر فى راحتهم .

وأدرك العاضد من لحن قوله أنه ضائق الصدر بهم ، فأحب أن يستطلع ذلك منه . وهكذا أراد شاور أن يستطلع من العاضد ، فإذا العاضد هو الذى يستطلع منه .

— لقد ظننت يا شاور أنك على وفاق معهم دونى .. وأن ذلك هو الذى شغلك عنى ... !

— كلا يا مولاي لن أتفق معهم اليوم على شىء إلا بعلمك ومشورتك .

— أو قد كلمك أسد الدين فى شىء ؟

— لا يا مولاي .. لم يفعل بعد .. فهل كلم مولاي فى شىء ؟

— أنا ؟ ماذا يدعوه إلى الكلام معى .. وعنده الوزير المستول ؟

وهم شاور أن يخبره بما دار بينه وبين أسد الدين لولا أنه خشى أن يفض ذلك من قدره فى عين العاضد ، فأثر أن يطويه عنه .

ولكن العاضد قرر أن يخبر شاور بما دار بينه وبين أسد الدين فى المقابلة الثانية فقال : « لقد أردت أن ألقاك يا شاور لأطلعك على ما دار بينى وبين أسد الدين إذ سألته عما ينوى أن يعمل هذه المرة فى بلادنا ، فتخلص بلطف ولم يجبنى جوابا صريحا .

— فهل رابك هذا منه يا مولاي ؟

— ٢٠٢ —

— كلا .. ما رابنى إذ ظننت أنه يريد أن يكلمك أنت لثقتك بك من دونى .

وهنا وقع شاور فى الفخ الذى نصبه العاضد .
— كلا يا مولاي إنه لا يثق بى ، فقد سأله أنا أيضا ، فلم يعطنى .
جوابا صريحا .

فأبدى العاضد حيثذ استياءه من شاور وقال له : « واللّه يا شاور ما ساءنى أن لم يثق بى أسد الدين مثلما ساءنى أنك أنت لا تثق بى ، لم كتمت عنى هذا فى أول الأمر ؟ » .
فأخذ شاور يعتذر ويتنصل ويقول : « هب لى ذلك يا مولاي فإنه بقية مما سلف من قلة اطمئناني إليك » .

— ويلك يا أبا شجاع .. عفا الله عما سلف .. وقد أنقذت أنت عرش آبائى بقضائك على مدينة الفسطاط . فكيف أنسى لك هذا الجميل ؟ أتدرى ماذا كان يكون لو بقيت الفسطاط اليوم ؟ إذن لنزل أسد الدين عندهم هناك فتصرفوا فى شئون النولة وجعلوا مدينتهم العاصمة وأعلنوا انتهاء حكم الفاطميين ..

فقال شاور وقد اطمأن إلى العاضد وزال ارتياحه : « وما يدريك يا مولاي ألا يكون أهل الفسطاط يعملون مع أسد الدين اليوم على تحقيق هذا الذى ذكرت » .

— الآن أعجبتنى يا شاور ! أجل هكذا دعنا تتكاشف ونتصارع فيما بيننا ، فأنت أولى بنا ونحن أولى بك من هؤلاء ..
— صدقت يا مولاي .. القريب قبل الغريب ..

وانصرف شاور من عند العاضد وقد اطمأن بالله إلى حين ..

وما علم. شاوور حين أرسل كلمته التى طرب لها العاضد أنه قد أصاب كبد الحقيقة دون أن يشعر ومن حيث لم يقصد ، فأنى له أن يعلم أو يخطر على باله أن أسد الدين كان مجتمعا فى ذلك الوقت ذاته ، مع أبى الفضل وجماعته ومعظمهم من أهل القسطنطينية ، ويتذكر أن فى هذا الذى سنح بباله عَرَضاً حين سمع كلام العاضد عن القسطنطينية والقاهرة .

وليست هذه أول مرة يلقى فيها أسد الدين جماعة المصلحين فى القاعة الخاصة بهم من دار الفضل بن أبى الفضل إذ كان قد أخذ يتردد إليها متنكرا متخفيا لا يعلم سره غير قليل من خاصة رجاله ، وحتى هؤلاء يعلمون أنه يذهب ليجتمع مع أبى الفضل وطائفة من المصريين من أهل الحل والعقد ليتشاور معهم فى أمور البلاد . ولكنهم لا يدرون أن هؤلاء جماعة سرية وأن أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قد انتخبا عقب قدومهم فصارا من أعضائها .

وكان أبو الفضل قد أطلع أسد الدين على سر الجماعة منذ كان مقبلا معه فى خيمته أثناء حصار القاهرة ، لكى ينجح نور الدين بذلك فيطمن ، ووعد أنه سيجمعه بهم عند عودته ، ويتخبه عضوا فيهم إذا شاء ، فلما عاد أسد الدين اقترح على أبى الفضل أن ينتخب ابن أخيه صلاح الدين أيضا ، وقال له إنه أكرم للسر منى فأجابته أبو الفضل إلى طلبه .

وكان يوم انتخاب هذين يوما مشهودا فى تلك القاعة العتيدة التى حملت جنين الثورة سنين طويلة حتى وضعتها اليوم خلقا سويا ، فقد حضر يومئذ أربعون رجلا من أعضاء الجماعة ، وتقدم أبو الفضل إلى أسد الدين وصلاح الدين فحلفهما أمامهم على المصحف أن يكتم سر الجماعة وأن يعملوا لطرد الأعداء من بلاد العرب والمسلمين وحمايتهم منهم . فأقسما على ذلك .

ولما انتهى القسم أخذ أبو الفضل يقدمهم واحدا واحدا إلى العضوين الجديدين فكانا يتعجبان من اختلاف مهنهم ، وتباين طبقاتهم ، فهذا قاض وهذا إمام جامع ، وهذا حداد وهذا بزاز وهلم جرا .

وتكلم أسد الدين فقال : « إن أولى الناس أن يكون فى جماعتكم هو الملك العادل نور الدين » .

فأجاب أبو الفضل قائلا : « إننا نعتز نور الدين منا وإن لم يكن معنا ولولاه ما نجحنا فيما سعينا إليه .. ورب رجال ماعرفناهم ولا عرفونا وهم منا » .

ثم بدأ الجماعة يتذاكرون فى خططهم الكبرى ويتباحثون فى وسائل تنفيذها وفى موقفهم من شاور وموقفهم من العاضد ، وموقفهم من جيش الدولة وفى اختيار الرجال الموثوق فى إخلاصهم وأمانتهم من أهل الكفائات لتسند إليهم المهام الخطيرة فى كل شأن من شئون الإدارة والإصلاح ، وكان أبو الفضل قد وضع برنامجا لذلك فاتخذوا أساس البحث والمناقشة ، فأخذوا بما أخذوا منه وغدلو ما عدلوه .

وتوالى جلساتهم بعد ذلك فكان يحضر أسد الدين مرة ويحضر صلاح الدين مرة أخرى ، ليقبى أحدهما فى المعسكر . عند غياب

صاحبه مبالغة فى التكلم . وظلوا أياما يجتمعون ويشاورون ويقررون ما يقررون دون أن ينفذوا من ذلك شيئا إلى أن كان ذلك الاجتماع الذى حضره أسد الدين على أثر المقابلة الأخيرة بينه وبين شاور ، فلما حكى لهم ما سمع ذلك اليوم من شاور . ، أدركوا أن قد آن الأوان للشرع فى تنفيذ الخطة خشية أن يسبق شاور فيقدم على شىء قد يكبلهم مشاق هم فى غنى عنها ، فأجمعوا على ذلك .

وفى غد ذلك اليوم حضر أبو الفضل إلى المعسكر فاخلى بأسد الدين ونفر من كبار رجاله فيهم صلاح الدين . فتشاوروا طويلا حتى اهتمدوا إلى الطريقة التى يبلغ بها أسد الدين هذا الأمر إلى شاور وإلى العاضد ، وإلى جيش الدولة أيضا بحيث لا يترك لأحد منهم مجالا للاعتراض على ذلك .

وما ارتفع ضحى اليوم التالى حتى ركب أسد الدين فى نفر من رجاله إلى قصر العاضد فاستأذن لمقابلته ، فأذن له واستقبله أحسن استقبال كعادته ، فلما استقر بهما المجلس قال للعاضد .

— إنى تلقيت أمس كتابا من نور الدين يقرئ أمير المؤمنين العاضد فيه التحية ويرجو أن يكون فى خير وعافية .

فأخذ العاضد يثنى على نور الدين بما هو أهل له ثم قال :
« إنا لن ننسى أبدا جميلة .. إذ ما استغثنا به يوما إلا أغاثنا بكم مرة بعد مرة » .

— إنه يرى ذلك واجبا عليه فى سبيل الله وسبيل العرب والمسلمين ، وقد أمرنى اليوم يا مولاي أن أبقي مقيما بجيشى فى مصر تحت خدمتكم خشية ألا يتمكن فى المستقبل من إنجادكم حين تستجدون به مرة

- ٢٠٦ -

أخرى ، لما يقتضيه إرسال الحملة من إنفاق أموال هو فى أشد الحاجة إليها لمواجهة العدو هناك .

فأجابه العاضد قائلاً فى الحال : « هذا كرم عظيم من نور الدين ، وإننى سأصدر أمرى بأن تكون نفقتكم من خزانة الدولة أسوة بمجيشنا كل على قدره ورتبته » .

فدهش أسد الدين مما شهد من العاضد ، فقد ظن أنه سيتوقف قليلاً أو يلوح فى وجهه شئ من قلة الرضا ، وما علم أن العاضد قد استعد بهذا الجواب من قبل ، إذ كان قد توقع شيئاً كهذا فقرر بعد التفكير فى جميع الاحتمالات أن يوافق أسد الدين ويجاره فى كل ما يريد بغية أن يحفظ له ذلك فيبقى على عرشه ، وحيث لا يضيره أن يتولى أسد الدين الوزارة مكان شاور . بل لعله يكون خيراً له من شاور الذى طالما جرعه الغصص .

واستشف العاضد ما فى نفس أسد الدين فمضى يقول :
« لا يدهشك ما سمعت منى فإننى ما استغثت بكم هذه المرة لأدعكم تتركوا بالأدى هدفاً لمطامع الفرنج من جديد فكفى ما قاسيناه منهم » .
فشكره أسد الدين على ذلك ثم قال : « أخشى يا مولاي ألا يرضى رجالى بالبقاء فى الخيام خارج المدينة » .

فأسرع العاضد يقول : « هذا لا يجوز ؟ . يجب أن تخصص لهم دور فى داخل المدينة كالدور التى ينزل فيها جنودنا .. لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .. فإننى أعتبرهم جميعاً جنودى منذ اليوم » .

فكرر أسد الدين شكره ، وتهياً للانصراف ، فقال له العاضد :
« هل كلمتم شاور فى ذلك ؟ »

— ٢٠٧ —

— لا يا مولاي .. قد رأيت من واجبي أن أخبرك أولا .. وإنى ماض إليه الساعة لأخبره .

فلاح السرور فى وجه العاضد ، وقال : « إذن فأخبره بما سمعت منى لكى يتهيأ لتنفيذ أمرى » .

وكان شاور قد بلغه ركوب أسد الدين إلى القصر فارتاب وهام فى أودية الظنون ، وحرار ماذا يصنع . فما أخرجه من حيرته إلا بحىء أسد الدين إليه فى دار الوزارة ، فاستقبله فى الديوان مرحبا محتفيا ، فأخبره أسد الدين بمثل ما أخبر العاضد ، فلم يستطع شاور أن يخفى ما على وجهه من العبوس . وجعل يقول : « هذا أمر خطير يجب النظر فيه والتفكير فى عواقبه حتى لا يودى إلى خلاف بيننا وبين نور الدين ، بعد ما حمدنا الله على زواله » .

فقال أسد الدين : « إن نور الدين هو الذى ارتأى هذا الرأى وهو لا يقصد إلا الوفاق والتعاون على ما فيه خير مصر وخير العرب والمسلمين ، فكيف يودى إلى خلاف بينكم وبينه إلا إذا كنتم أنتم تريدون الخلاف ؟ فسكت شاور قليلا ، ثم قال : « وهل كلمت العاضد فى ذلك ؟

— نعم .. فكان أكرم منك يا أبا شجاع .. إذ ما اكتفى بالموافقة حتى أمر بأن تكون نفقتنا على مصر واعتبارنا من جنود مصر ... —
— إنك لا تعرف العاضد يا أسد الدين ..

فقال أسد الدين مداعبا : « ولا أعرفك أيضا يا شاور ، فإنك كنت دائما لغزا غامضا على .. فتارة تكون معنا وتارة علينا وتارة بين بين » . وأدرك شاور أن الأمر قد خرج من يده ، وأشفق أن يكون العاضد أحصاف منه وأحكم ، فرأى أن يصلح موقفه .

— ٢٠٨ —

— أتدرى يا أسد الدين ماذا ساعنى فى هذا الأمر ؟

— أى شىء يا أبا شجاع ؟

— إنكم بدأتُم بالعاضد قبلى ، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك ، وأنتم تعلمون أنه هو الذى وقَّع الميثاق مع الفرنج ، وأننى أنا الذى أعلتها حربا على حاميتهم حتى أجليتهم جميعا ..

وكان فى وسع أسد الدين أن يقول له : « وأنت حاربتنا مع الفرنج وقبل ذلك خلَّيت بيتنا وبينهم فى بلبس ولم تتجدنا » ولكنه قد قرر أن يسأله ما أمكن ، فقال : « عفا الله عما سلف يا أبا شجاع وما بدأتُ بالعاضد لمزيد له عندنا دونك إلا أنه الخليفة . وأنا أعتذر لك على كل حال . وأعدك أن أرجع فى المستقبل إليك أولا قبله » .

فأظهر شاور الرضا وقال : « وثلت الخراج ألم يشر إليه نور الدين فى كتابه ؟ » .

— بلى إنه اقترح أن ينفق علينا منه : ، ولكن لا داعى إليه الآن بعد ما عرضتم أن تكون نفقتنا عليكم ، وأنت تعلم أن نور الدين لا يريد المال لنفسه بل لينفقه فى سبيل الله . وهذا فى سبيل الله .

وأطرق شاور هنيهة ثم قال : « هذا خير يا أسد الدين ، ولو أنك قبلت مفاوضاتى يوم اقترحت عليك لربما انتهيت معى إلى مثل هذه النتيجة » .

— لا بأس يا أبا شجاع .. كل شىء رهين بوقته .. وما كنت إذ ذاك أملك شيئا قبل مجىء كتاب نور الدين .. الحمد لله إذ وجدت مع العاضد ومنك كمال الموافقة » .

فعاد العبوس إلى وجه شاور .

— ٢٠٩ —

— أما زلت تذكر هذا العاضد يا أسد الدين ؟
 — كيف لا وأنا بحاجة إلى أمر منه اليوم بأن يُعطى لرجالى دور
 يسكنونها فى المدينة ؟
 — لا شأن لك بالعاضد ، أنا الذى سأمر لهم بذلك .
 ففرح أسد الدين وشكره إذ كفاه مشقة الرجوع إلى قصر العاضد ،
 ولم ينصرف من عند شاور حتى أخذ منه الأمر .



وما لبث جند أسد الدين أن قوضوا خيامهم بأرض اللوق ، فانتقلوا
 إلى المدينة فى مساكن مصابة لمساكن الجنود المصريين حتى كأنهم فريق
 منهم . . وقد استاء هؤلاء فى أول الأمر وارتابوا ، ولكنهم رأوا الخليفة
 والوزير راضيين بذلك فسكوا . وكانوا قد ضاقوا حيثنذ بما لحقهم من
 الخسائر فى الحروب التى خاضوها متحالفين مع الفرنج ثم مقاتلين لهم
 على حسب ما ساقهم إليه شاور حتى ذهب كثير من رجالهم ، وحتى
 صار عامة الناس ينظرون إليهم بازدراء ويتندرون عليهم بأنهم جيش
 مرى الذى أسلم أو جيش شاور الذى كفر ، فقال بعضهم لبعض :
 لعل وجود هؤلاء القوم يزيل عنا هذه الوصمة ، ويمنع شاور أن يدفع به
 فى حروب لا ينجى منها غير المذلة والعار .
 وقد أمر أسد الدين رجاله بأن يتوددوا إلى العساكر المصرية . فكان
 لذلك أثر جميل فى شيوع المودة والصفاء بينهم وبين هؤلاء الطارين .
 ومما ساعد على ذلك أيضا أن جيش مصر لم يكن فرقة واحدة من عنص
 واحد ، بل كان فرقا مختلفة من عناصر مختلفة أهمها فرقة المغاربة .

وفرقه الأتراك ، وفرقة السود أو العبيد ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا كبيرا من أن تنضم إليهم هذه الغز من جراء توددهم للجميع أن صاروا أحب إلى كل فرقة منهم من الفرقتين الأخرين ، لما بين هذه الفرق الثلاث من تنافس قديم .

أما أسد الدين فقد نزل دارا كبيرة استأجرها له أبو الفضل فى وسط العاصمة ، غير بعيد من دار الوزارة التى يقيم فيها شاور ، فصار يستقبل الناس فيها على اختلاف طبقاتهم ، أفواجا أفواجا ، بين زائرين مسلمين ، وأصحاب شكاوى وذوى حاجات ، وخاصة من أولئك اللاجئين الذين فقدوا ديارهم وأموالهم فى حريق القسطنطينية ، فكان يأمر بتنفيذ شكاويهم وحاجاتهم للنظر فيها ، ثم يعث بها إلى شاور فى ديوان وزارته مشفوعة برجاء لطيف ليوقعها ، فكان شاور يتكرم بتوقيعها وإنفاذها طيب النفس فى أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن ضاق بذلك لما أكثر عليه وشعر أنه مأمور لا آمر ومحكوم لا حاكم ولا سيما حين أخذت الرقاع تصل إليه خالية مما كان يحليها من عبارات الرجاء والاستشفاع ، ولكنه لم يستطع أن يمتنع أو يعترض خشية أن يفقد حتى هذا الحق الباقي له فى التوقيع والإنفاذ :

وقد أصبح لهذه الدار كنية وموظفون ممن اصطفاهم أبو الفضل وجماعته من أهل الكفاية والأمانة . يحسنون استقبال الناس ومعاملتهم ، فأخذ الناس يشعرون شيئا فشيئا أنهم فى عهد جديد لا يحتاجون له فى رفع ظلاماتهم وقضاء حاجاتهم إلى الوساطات والشفاعات .

وكان أول عمل جديد للعهد الجديد أن اهتم بإعادة بناء القسطنطينية وعمارتها . فدعا أهلها إلى ذلك وشجعهم بالمال والمعونة ، فتسابقوا إلى

ذلك وشرعوا يعمرون ما حول الجامع . جامع عمرو . ثم أخذ العمران بعد ذلك يتسع قليلا قليلا .

وكان لهذا العمل صدى جميل فى نفوس الناس جميعا ، فأهل الفسطاط قد شعروا بالإنصاف واستبشروا برجوع مدينتهم الحبيبة ، وأهل القاهرة قد فرحوا كذلك إذ تخلصوا مما كان يضايقهم من وجود هؤلاء اللاجئين بينهم يزاخمونهم فى المساكن ويكلفونهم المغارم ، ويقذون عيونهم بمظاهر البؤس والشقاء .

ولكن العاضد تألم كثيرا من إعادة بناء الفسطاط ، وقد حاول فى أول الأمر أن يثنى أسد الدين عن ذلك ، واقترح عليه أن يأمر ببناء المساكن لهم فى أطراف القاهرة ، زاعما أن ذلك أفضل لهم ، وأقل نفقة على الدولة . وأجدر أن يزيل التنافس القديم بين أهل المدينتين حين تجمعهم مدينة واحدة هى العاصمة . وقد ألح العاضد فى ذلك إلحاحا شديدا على خلاف عادته فى الشئون الأخرى حتى عجب أسد الدين ودخله ريب فى أن يكون العاضد حقا هو الذى اقترح ذلك الحريق على شاور . فاعتذر أسد الدين بلطف ، وقال له : « لو تقدمت لنا بذلك يا مولاي قبل أن نعلنه فى الناس . أما الآن فلا سبيل إلى الرجوع ، وإلا حدثت فتنة لا تؤمن عواقبها . وأرجو أن يزول التنافس بين المدينتين غدا إلا فى الخير » .

واغتم العاضد من يوم ذاك ، وأخذت تساوره الظنون والمخاوف وإن أخفى ذلك وظل على صلة جميلة مع أسد الدين ورجال العهد الجديد . أما شاور فإنه - على استيائه من هذا العهد الجديد الذى بدأت دولته تزول فيه شيئا فشيئا - وسلطانه يضمحل على الأيام - قد فرح فى قرارة

نفسه بتجديد عمارة الفسطاط ، إذ وجد فى ذلك سبيلا للانتقام من العاضد فيما تخلى عنه وغدر به وأخل بالاتفاق السرى بينهما على ذلك « الغريب » ثم إنه وجد فى هذا العمل أيضا سبيلا إلى إزالة سخط الناس عليه . وكف ألسنتهم عن القدح فيه والتنديد المستمر بخيائته أو سوء تدبيره ، فأبدى همة كبيرة ونشاطا بالغنا فى تأييد هذا المشروع وتشجيع القائمين على خلاف عاداته فى الشئون الأخرى ، حتى عجب أسد الدين ورجاله وتأكد عندهم من الموازنة بين موقفه وموقف العاضد أنه صادق فيما كان يزعم لهم - كلما جاءت سيرة حريق الفسطاط وما فيه من خطأ من الناحية الحربية - أن حريق الفسطاط كان من رأى العاضد وأنه ما كان ليلجأ إليه فى مدافعة الفرنج لولا إلحاح العاضد عليه واضطراره هو إلى مسأيرته خشية أن ينشق عليه فى ذلك الوقت العصيب .

على أن هذا التباين بين موقف العاضد وموقف شاور من قضية الفسطاط لم يلبث أن صار سبيل تقارب بينهما ثم اتفاق ، فقد استدعاه العاضد سرا ذات يوم ، فلما اختليا جعل العاضد ينكر على شاور ما أظهر من التحمس الشديد لتجديد عمارة الفسطاط ، فانبرى شاور يعتب عليه ما بدأ به من تأييد الغريب فأخل بالاتفاق بينهما أن يكونا إلبا واحدا عليه .

وتعاقبا طويلا حتى انتهيا إلى أن أعتب كلاهما الآخر ، فتعاهدا أن يعودا إلى ما كانا عليه من الوقوف معا للتخلص من هذا الخطر المشترك ما وجدا إلى ذلك سبيلا .

وظل تجديد عمارة الفسطاط غصة فى حلق العاضد لا يكاد يسيغ معها طعاما ولا شرابا إلى أن قام العهد الجديد بعزل جميع قضاة المذهب

الفاطمي وتوحيد القضاء في القطر كله على المذهب السني لأنه مذهب عامة المصريين ، وإسناد منصب قاضي القضاة إلى فقيه من جماعة المصلحين هو صدر الدين بن درباس ، فلما سمع العاضد بذلك هان عنده أمر الفسطاط في جنب ما حدث . فقال لنفسه وللخاصة رجاله : « قد كنت أخشى من تجديد الفسطاط على القاهرة ، فهاهم أولاء اليوم قد حولوا القطر كله إلى فسطاط !

وأتبع العهد الجديد هذه الخطوة بخطوة أخرى في هذا السبيل فعمد إلى (دار المعونة) وغيرها من السجون التي كان محبوسا فيها كثير من المعادين للبيت الفاطمي ، فأطلق سراحهم ، وهدم تلك السجون لتبنى على أنقاضها مدارس للسنة بين شافعية ومالكية .
فما بقي عند العاضد من شك أن العرش الذي هو جالس عليه يوشك أن يهدم كما هدمت تلك السجون .



وبينما كان العهد الجديد ماضيا في طريقه من إصلاح إلى إصلاح وأبو الفضل وجماعته من وراء الستار منهمكين في دراسة مختلف الشئون وبحث وجوه الإصلاح وتقديم المقترحات الجديدة ، وقد طربوا لما أتاح الله لهم من نجاح ، فألهب حماسهم للعمل ونشاطهم فيه ، إذ قاله سوء سرت بين الناس فتهامسوا بها برهة ، ثم أخذوا يغطون إلا من عصم الله .

فاغتم أسد الدين وتألم ، وطلب من أبي الفضل أن يعقد اجتماعا في الحال لبحث هذا الشأن .

وُعقد الاجتماع فى القاعدة العتيدة ، وكان من شهوده قاضى
القضاة صدر الدين بن أبى درباس والقاضى الفاضل ونجم الدين
الخبوشانى وأبو الليث المحتسب وابن حكيم إمام الجامع الأحمر ، وغيرهم
من أساطين جماعة المصلحين ، وحضر أسد الدين وابن أخيه صلاح
الدين ، فلما استقر بهم المجلس افتتح نجم الدين الحديث :

— هذه قاله سوء أريد بها الفتنة ، فلعن الله من أرسلها ، وغفر لمن
لفظ بها وهو لا يدري ما تنطوى عليه من شر . ولا ينبغي لك يا أسد
الدين أن تهتم بها فإنها سحابة صيف وتنقشع ، وما أنتم والله بدخلاء
فى مصر ، فأنتم منا ونحن منكم ولكن الذين أرسلوا هذه القالة هم
الدخلاء .

وتطلع الحاضرون إلى أسد الدين ليسمعوا ما عنده :
— أنا أعلم يا إخوانى أنها قاله سوء أريد بها الفتنة ، ولئن ساءت
عامة رجالى فإنها لم تسؤنى بقدر ما أخافتنى أن تحبط أو تعرقل ما بدأناه
من عمل لخير مصر وخير العرب والمسلمين .
فقالوا جميعا : معاذ الله يا أسد الدين أن يقع ما نخشاه ونحن معك
على الكبير والصغير ..

وقال أبو الفضيل : « لا ريب أن هذه من العاضد ، وقد أشرنا
عليك مرارا أن تبادر بخلعه فتريحنا وتريح البلاد منه » .

قال نجم الدين : « إى والله لقد آن لك اليوم أن تفلق رأس الحية » .
— رويدكم يا جماعة ، فإن هذا ينبغي أن يتم بالتدريج لتلا نثير نائرة
الجند المخلصين للعرش وخاصة من المغاربة والعييد . وأنتم تعلمون أن
العاضد قد استغاث بنور الدين ، وبعث إليه بشعور نسائه ، فليس فى

وسعى دون الرجوع إلى نور الدين أن أتعجل بخلعه من أجل حالة قالها علينا .

فقال ابن حكيم : « إذن فأعرض عنها يا أسد الدين ولا تبال بها رهبا كأنها لم تكن .

فانبرى صلاح الدين عندئذ يقول : « إن عمى لم يبال كثيرا بهذه القالة وما من أجلها جمعكم ، وإنما ذكرته بأمر كان يريد أن يفاتحكم به من قبل فشغل عنه ، تكلم يا عم واشرح لهم ما تريد » .

- بل تولّ أنت ذلك عني يا يوسف فأنت أفصح به منى ..

فقال صلاح الدين : « يا معشر المصلحين المخلصين ، إنا قد بحثنا معكم في كل شيء ولكننا لم نبحث بعد حقيقة وضعنا في بلادكم ، وكان علينا أن نفعل حتى تكونوا على بينة منا ونكون على بينة منكم » . فابتدعه ابن حكيم قائلا : « ما هذا يا صلاح الدين ؟ نحن وأنتم شيء واحد ومصر بلادكم هي بلادنا » .

- على رسلك يا ابن حكيم دعني أتم حديثي .. لا ينبغي أن ننكر أننا غرباء في هذا البلد ، فنحن نتبع نور الدين ، ونور الدين لا يملك مصر ولا يحكمها ، ولكنه أراد أن يجمع قوى العرب جميعا لمحاربة أعدائهم الفرنج . وقد رأى أن مصر تستطيع أن تقوم في ذلك بالنصيب الأكبر لو هيء لها السبيل ، فأرسلنا هذه المرة لنبقى فيها إذا وجدنا ذلك في مصلحة الجهاد المشترك وأنسنا رغبة من المصريين في بقائنا عندهم وموافقة عليه . وإلا فإنه يأمرنا بالرجوع إلى دمشق فماذا ترون؟

فقالوا جميعا : « سبحان الله ، وهل بقى عندكم شك في رغبتنا في بقائكم ونمسينا به ؟ » .

— إنا لا نسألكم يا جماعة المصلحين عن أنفسكم ولكن عن غيركم من المصريين .

قال صدر الدين بن درباس : « واللّه ما أنصفتكم المصريين إن حكمتهم عليهم بقالة سوء أرسلها فاسق فجرت عفوا على ألسنتهم وأنتم تعلمون أن قلوبهم معكم على ذاك الذى أرسلها ابتغاء الفتنة وابتغاء إبقائهم عبيدا له » .

فصاحوا جميعا : « صدقت واللّه يا صدر الدين ، لقد عبرت عما فى نفوسنا جميعا » .

وتهيا أسد الدين عندئذ للكلام فقال : « إنا نعرف بأنفسنا صدق ما قلتم ، ولكن ماذا تقولون لو انتهت الأمور بمصر إلى أن تكون ولاية من ولايات نور الدين أترضون ذلك ؟ » .

فساد الصمت لحظة ثم قال نجم الدين : « لم لا نرضى بذلك ؟ أليس نور الدين ملكا مسلما وهو خير من هذا العاضد ألف مرة ؟ فاعترض أبو الفضل قائلا : « كلا يا نجم الدين إن هذا لن يكون ، وما ذلك لأننا لا نرضى نور الدين ملكا علينا ، فإنه أفضل ملوك العرب والمسلمين قاطبة ولكن مصر بلد عظيم يصح أن يكون غيرها ولاية تابعة لها ، ولكن لا يصح أن تكون هى ولاية تابعة لغيرها . ونحن نريد لها أن تقوم من تلقاء نفسها بنصبيها الأكبر فى جهاد العدو وتحرير بلاد العرب والمسلمين ، لا أن يكون محمولة على ذلك مدفوعة إليه » .

فاستحسن الباقون كلامه ما خلا نجم الدين إذ قال : « تذكر يا أبا الفضل هذاك اللّه أن الإسلام قد أبطل العصبية ، فإنها من أخلاق الجاهلية » .

— كلا يا نجم الدين ، هذه ليست عصبية ، ولكن مصلحة المسلمين
تقضى استقلال هذا البلد ، وعدم تبعيته لغيره . وإن كان حاكمه فى
كمال نور الدين وفضله . والتاريخ أصدق شاهد ، فإن مصر ما
خضعت فى الإسلام إلا للمدينة فى فجرها الأول على عهد عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ، ثم سادها الاضطراب بعد ذلك ولم يلبث أن
وضخ كيانه المستقل فى جميع العصور ، وقد ساعد ذلك على قيام دولة
الطولونيين ثم الإخشيديين ثم هؤلاء العبيديين ، فهل كان ابن طولون
يستطيع أن يقوم بما قام به من جهاد الروم بعد أن ملك الشام إلى حدود
الفرات ، لو لم يستقل بمصر ويجعلها عاصمة ملكه ؟ وهل كان فى
الإمكان أن تبقى دولة العبيديين فى مصر لو أن المعز لدين الله رجع إلى
المغرب واعتبر مصر ولاية تابعة له ؟ لقد أدرك المعز هذا المعنى فقصر
اهتمامه على مصر وقطع صلته ببلاده الأصلية حتى نقل منها جثث آبائه
فدفنها فى مصر . نحن لا ندعو إلى عصبية يا نجم الدين ، ولكننا نريد أن
تنطلق القوة الكامنة فى هذا البلد العظيم لخدمة العرب والمسلمين أجمع .
فأعجب الحاضرون بكلام أبى الفضل إلا أنهم أشفقوا أن يضيق به
أسد الدين وابن أخيه ، فما راعهم إلا صلاح الدين يقول : « لله درك
يا أبا الفضل ، لقد قلت الحق وشرحته أحسن شرح ، وإننا قد اقتنعنا
بهذا المعنى لا من التاريخ كما فعلت ، بل مما شهدنا بأعيننا من حال
مصر وما أودع الله فيها من قوة لا تحذو غنى لا ينضب .
قال نجم الدين : « هذا كله حق ولكننا لا نريد أن نفرط فيما كسبناه
من تعاونكم معنا ، إذا أصر نور الدين على أن يجعل مصر ولاية تابعة له » .

قال أبو الفضل : « إن كان نور الدين لا يدرك هذا المعنى ، فعلينا أن نشرحه له حتى يقتنع به ، وليس لنا أن نوافق على كل ما يريد ، فنحور على مصلحتها ومصلحة العرب والمسلمين كذلك » .

فقال صلاح الدين : « هذا بيت القصيد . إن نور الدين لم يكلم عمى فى هذه المسألة ألبتة ولكن عمى راكم تعدونه ليكون حاكما مكان شاور . فبدا له أنه إن صار حاكم مصر فينبغى ألا يكون تابعا لنور الدين ، يعزله إن أراد ويستدعيه للرجوع إليه متى شاء ، فأحب أن يسمع رأيكم فى هذا » .

قالوا جميعا : « هذا غاية ما نريد » .

ومضى صلاح الدين يقول : « ولعلكم تستطيعون الآن أن تدركوا سر تشبهه بإبقاء العاضد فى ملكه ريثما يضمن قدرته على الاستقلال بمصر ، فإنه لو خلعه اليوم لصارت مصر تابعة لنور الدين على التو » .
قالوا : « الآن فهمنا سبب امتناعه عن ذلك على شدة إلحاحنا عليه » .

وهنا قال أسد الدين : إن يوسف ابن أخى قد قال لكم جل ما فى نفسى ، ولكن فاتة أن يخبركم بأننى لا مطمع لى فى حكم مصر إلا من أجل حرصكم على توليتى وإلا فإننى مستعد أن أغادر بلادكم وأعود إلى نور الدين .

فقال أبو الفضل : كلا يا أسد الدين ، لن ندعك تذهب عنا ، وإن حاولت ذلك منعناك بالقوة ، فإننا لا نرضى أبدا أن يذهب سعينا الذى سعينا سدى فنعود إلى حكم شاور وحكم العاضد ، ويرجع الفساد فى مصر كما كان . كلا لا مناص لك من أن تتولى حكم مصر مستقلا بها

- ٢١٩ -

على نور الدين ، ولكن متعاوننا معه على جهاد الفرنج ، ثم نخلع العاضد وتخلصنا من عرشه وعرش آبائه .

فوافقوا جميعا على كلام أبى الفضل .

وتطلق أسد الدين عند ذلك ، وعاد إليه مرجه وخفته ، فأخذ يقول مداعبا : « بأى قوة تمنعنى يا أبا الفضل من السفر لو أردت ؟ بقوة شاور أم بقوة العاضد ؟ »

فتضاحكوا جميعا وقد شملهم السرور لما انتهوا إليه من حل جميل لهذه المشكلة ، ولكن أبا الفضل أجاب قائلا فى جده وصرامته : « بل بقوة الشعب يا أسد الدين » .

ثم التفت أسد الدين إلى القاضى الفاضل ، فقال له مداعبا أيضا : وأنت يا عبد الرحيم يا كاتب إنشاء شاور ، فيم سكوتك طوال الوقت ، ولم تنطق بكلمة ؟ أتخشى أن ينقل كلامك إلى شاور ؟؟

— قد كان هذا فيما مضى يا أسد الدين ، أما اليوم فما عدت أخشاه . إني إن طردنى شاور فسأعمل كاتب إنشاء لك .

وهكذا انتهى الاجتماع بجو يسوده الصفاء والمرح .

ولكن جماعة المصلحين لم يتركوا العاضد دون حساب على القالة التى أرسلها ، فما فرغ ابن حكيم إمام الجامع الأحمر من صلاة الجمعة التالية ، حتى خطب الناس خطبة بليغة ، تعرض فيها لتلك القالة ، وألح إلى الذى أرسلها . حتى كاد يصرح باسمه وكان مما قال : « أيها المصريون ، لن يكون رجل ينفع بلادكم ، ويصلحها غريبا فيكم إلا إذ كنتم أمة سوء ، فكنتم معه كما قال أبو الطيب :

أنا فى أمة تداركها الله به غريب كصالح فى ثمود

- ٢٢٠ -

ولستم بحمد الله كذلك بل أنتم أمة خير وصلاح ، فلا غريب فيكم إلا ذلك الذى يريد بكم سوء دائما ولا يجب لكم خيرا أبدا .

وبلغ العاضد ما حدث فقال لخاصته : « لقد هان أمرى على الناس حتى اجترأ على إمام جامع من جوامع آبائي » .

- مرنا يا مولانا نأتك به ليلقى عقابه .

- ويلكم كيف نعاقب رجلا دافع عن أسد الدين ورجاله ؟ إذن نُثبت على أنفسنا أننا نحن الذين أرسلنا القالة .

وقرر العاضد أن يكلم أسد الدين فى ذلك فأرسل إليه يستدعيه فلما حضر استقبله بالبشر والرحاب كعادته ، ثم قال له : « إنى أعتب عليك يا أسد الدين أن تركتم إمام الجامع الأحمر يعرض بى ويتهمنى أمام الناس بأنى صاحب القالة ، حتى يتوهمون أن بينى وبينك شيئا وأنت تعلم منزلتك عندى وإعجابى بك وإعزازى لك فى السر قبل العلانية » .

وبعد أن شكره أسد الدين على ثنائه الجميل قال : « لعلك قد علمت يا مولاي أن هذا العهد قد أطلق لكل امرئ أن يقول ما يشاء إلا أن يقذف أحدا أو يحبس عرض أحد ، أو يحرض على فتنة ، ومبلغ علمى أن إمام الجامع الأحمر ، لم يأت شيئا من ذلك .

- لكنه أراد أن يفهم الناس غير الحقيقة فيما بينى وبينك .

- هذا أمر بيننا وكلانا يعرف حقيقة الآخر ، فليفهم الناس ما شاعوا ، فذلك لا يضير مودتنا فى شيء ...

ولما انصرف أسد الدين قال العاضد لخاصته : « إن الرجل قد حذق شيئا من الدهاء منذ نزل فى مصر » .

واختفت القالة من السنة الناس كفرية قام على بطلانها ألف دليل
ودليل ، فأخذوا يعجبون كيف كانوا يلغطون بها ، وهم يرون حسنات
العهد الجديد ماثلة أمام أعينهم فى كل مجال ، وكيف لم يكشفوا فى
الحال من ذا قالها ولأى شىء قيلت ، وإن ذلك منهم لعلى طرف الثمام .
وإنهم اليوم ليحمدون الله على ما وقى وسلم ، إذ يرون العهد
الحديد ماضيا فى سبيله أقوى وأثبت مما كان وأسرع ، فكأنما كانت
تلك الفتنة نذيرا لرجاله ، أن حثوا الخطا فإن الطريق بعد طويل ، وفوتوا
العدو فإنه على آثاركم لا يتوقف ساعة ولا عيمل .

وأصبحت دار أسد الدين ديوانا لا تهدأ فيها الحركة ، ولا ينقطع فيه
الزحام ، وكانت الرقاع والأوامر والمراسيم تنطلق من هذا الديوان إلى
ديوان الوزارة فيوقعها شاور بختم الوزير ثم تعود منطلقة إلى ديوان أسد
الدين ، فيجرى تنفيذها فى الحال .

وبلغ الضيق بشاور ذات يوم أقصاه . فتوقف فى توقيع مرسوم من
المراسم ليعطله أو يؤجله ، فما كان من أسد الدين إلا أن طلب المرسوم ،
فلما عاد إليه أمر بتنفيذه من غير توقيع شاور ، وعلم شاور بذلك فصار
يسارع بالتوقيع دون توقف أو تردد .

وظل كذلك برهة إلى أن شعر يوما أن ليس فى إمكانه أن يستمر
على هذه الحال ، فقد صار كأنه حامل أختام أسد الدين فحسب . ولم
يعد له رأى فى شأن من الشئون ولا أمر ولا نهى . وقد انقطع الناس
عن ديوانه ، فلم يعد يتردد عليه أحد . حتى رسول أسد الدين صار

— ٢٢٢ —

يغشاه مرة واحدة فى اليوم يحمل إليه الرقاع والأوامر جملة واحدة ليقومها شاور جميعا فيمضى بها إلى أسد الدين ثم لا يعود إليه إلا من الغد برقاع جديدة . فيقضى شاور بقية يومه فى ديوان الوزارة لا يصنع شيئا ولا يُعرض عليه شىء .

وينظر إلى من بقى من كتبة ديوانه وموظفيه - فقد طلب أسد الدين كثيرا منهم فانتقلوا إلى ديوانه - فإراهم جالسين لا يصنعون شيئا ، وإنما يقضون وقتهم فى الحديث وتبادل النكات والملح . فيضيق صدره بهم ويود لو يصرفهم إلى بيوتهم لئلا يشهدوا ما وصلت حاله إليه ، فقد صار ينجل منهم ، ويتوهم كلما تناهت إليه أصواتهم يضحكون من نكتة يتبادلونها أنهم يتندون عليه .

وكان كاتب إنشائه القاضى الفاضل هو وحده الذى يجلس إليه ويأتس بالحديث معه ، ويفضى إليه بذات صدره ، فكان جُلَّ حديثه الشكوى من هذا الزمان الذى يخفض الرفيع ويرفع الوضيع ، ويذل الأصيل ويعز الدخيل ، يعنى بالأصيل نفسه وبالدخيل أسد الدين — والقاضى الفاضل يجاريه فى ذلك ويعزيه ويسليه جهد ما يستطيع ، حتى إذا قام شاور من عنده وصعد إلى إداره انكب هو على الكتب التى أحضرها معه من مكتبته الخاصة يطالعها فى شغف إلى أن يجىء موعد انصراف الديوان فينصرف .

وجلس ذات يوم مع شاور كعادته . فقال له شاور : « إنى لم أعد أطيق هذه الحال يا عبد الرحيم ، والله لقد صار هذا الديوان عندى كأنه سجن مطبق وإن هواءه ليكاد يخنقنى .

— ٢٢٣ —

فقال القاضى الفاضل متلطفاً : « لا حيلة لك إلا الصبر يا أبا شجاع حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

— الصبر ! والله لو ابتلى أيوب بمثل ما ابتليت به لا نفجر .

— فلتكن أنت أصبر من أيوب .

— آه يا ليتنى كنت مغرماً بهذه الكتب مثلك فأتعزى بها ..

— إن شئت أعرتك منها ما تحب .

— ويحك يا عبد الرحيم .. شاور بن مجبر السعدى يقلب صفحات الكتب وغيره يأمر وينهى فى البلاد !

— فماذا أنت صانع يا أبا شجاع ؟

— لقد حدثتني نفسى أن أترك دار الوزارة لأسد الدين وعصابته وأنتقل أنا بأهلى إلى بيتنا بيت سعيد السعداء ... فما رأيك ؟

— وترسل إليك الرقاع هناك ؟

— ترسل أو لا ترسل .. ذلك لا يعنينى بل صار يملأ قلبى قيحاً أن أوقع على أمور ينسب فضلها إلى سوى .. سأترك لهم ختمى هنا ليقعوا به على ما يشاءون .

— وأنا يا أبا شجاع ماذا يكون مصيرى ؟

— قد فكرت أيضاً فى أمرك يا عبد الرحيم ، فأرى أن تبقى فى مكانك تعمل كاتب إنشاء له على حالك ، فإنه لن يستغنى عنك ..

فأطرق القاضى الفاضل لحظة ثم قال : « لكنى لن أجد عنده ما عندك يا أبا شجاع ، فماذا لو استقلت ؟ » .

— كلا لا تفعل ، فقد يظنون أنك ممن يعادى عهدهم هذا الذى سموه العهد الجديد .

— ٢٢٤ —

- ليظنوا ما يشاءوا فإننى لا أبالى ..
- أنت فى حاجة إلى راتبك ..
- سيغنينى الله عن ذلك .
- أمن أجلى تصنع ذلك ؟
- أجل فإننى لا أستطيع أن أتلون ألوانا يا أبا شجاع ..
- ويحك فابق فى منصبك إذن من أجلى لعلك تستطيع غدا أن تنفعنى بشىء .
- وأدرك القاضى الفاضل ما يرمى إليه شاور . وقد استدرجه بهذا الحديث ليوح له بهذا السر ، ولكنه تجاهل ذلك .
- كيف يا أبا شجاع .
- لا أستطيع الآن أن أخبرك بشىء .. ويليك يا عبد الرحيم جئت أستشيرك فى أمرى فتناستته واهتممت بأمر نفسك .
- لا تنس يا أبا شجاع أن أمرى من أمرك ، أتريد أن تعرف رأيى فيما ذكرت ؟
- نعم ماذا ترى ؟
- افعل فهذا أحفظ لمقامك وأصون لكرامتك ، ولأن تتقدم إليهم بذلك الآن من تلقاء نفسك متفضلاً متكرماً خير من أن يحملوك عليه غدا إذا بدا لهم ذلك .
- فلما كان الغد . ذهب القاضى الفاضل إلى أسد الدين رسولاً من شاور ليبلغه ما عزم عليه من النزول عن دار الوزارة رغبة منه فى التيسير على أسد الدين فيما يضطلع به من المهام .

— ٢٢٥ —

وأُسر إليه القاضى الفاضل بكل ما دار بينه وبين شاور ، فقال له أسد الدين : « هذا خير .. أره أنك معه إلى النهاية حتى ييوح بأسراره فتتقى مكايده و دسائسه ، ارجع إليه فأبلغه شكرى لأريجته وحسن صنيعه » .
وما لبث شاور أن انتقل إلى بيت سعيد السعداء .. فانتقل أسد الدين إلى دار الوزارة ، فأقام فيها ونقل إليها ديوانه ، وفرح رجال العهد الجديد بهذا النصر الذى جاء يسعى إليهم دون أن يسعوا إليه ، وكان لانتقال ديوانهم إلى ديوان الوزارة وإستغنائهم عن مراجعة شاور وانتظار توقيعه على الأوراق أثر كبير فى تسهيل الأعمال وتأديتها على وجه أكمل وأسرع .

وانطلقت أعمال الإصلاح والتعمير فى كل مجال ، فمن تأمين السبل والقضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، إلى تحصين البلاد وعمارة أسوار القاهرة والإسكندرية وبلبيس وتقوية قلاعها وحصونها ، وتعزيز ثغر الإسكندرية و ثغر دمياط ، وتقوية الجيش وتشجيع المصريين على الانضواء فيه حتى يتكون جيش جديد من ذات الشعب لا يدين بولائه للأسرة الفاطمية ، ولا يستعمل سوط عذاب على الرعية ، ولا يساق كالأنعام ليحالف أعداء العروبة والإسلام على أبناء العروبة والإسلام .
وفى هذا السبيل اهتم العهد الجديد بتدريب الشباب على أعمال القتال لا ليتولوا الدفاع عن مصر غداً فحسب . بل لينطلقوا مجاهدين فى سبيل الله ليقوموا بالنصيب الأكبر فى طرد العدو الدخيل من الوطن العربى كله .

وأنشئت مراكز للتدريب فى كل حى من أحياء العاصمة ، وفى بعض الأحياء التى تم عمرانها من مدينة الفسطاط الجديدة ، وتطوع سيرة شجاع

كثير من الفتيان فانخرطوا فى تلك المراكز بين مدربين ومتدربين وكان فى طليعة المتطوعين لتدريب الشباب شجاع بن شاور .

٧

وقد وجد شجاع فى هذا العمل الحبيب إلى نفسه عزاء من همّ كان يؤرقه وما زال ، ومهربا من حيرة كانت تزلزله وما برحت .

ياويح هذا الشاب ، ما أشد ما قست الأيام عليه ! لقد ظن يوم قدم أسد الدين القاهرة ، وخرج أبوه فى كوكبة من رجاله ، وخرج هو مع رفاقة المغاوير من فرقة الموت يستقبلون القادم الكريم مع ألوف المستقبلين من جميع طبقات الشعب ، أن همومه قد ذهبت ولن تعود ، وأن مواجهه قد شفيت ولن تنتكس .

هذا أبوه وأسد الدين يسيران متصافين فى الموكب السعيد ، وهذه جموع الشعب تحييهم فرحة مستبشرة ، وقد ذهب العدو مدحورا واصططح الصديق مع الصديق . وهذا أبوه فى الأيام التالية ليوم الموكب يتردد إلى أسد الدين ، ويجلس إلى شجاع فيحدثه بما شهد من مودة أسد الدين وحفاوته ، ويعيد عليه ما قاله أسد الدين فى الثناء عليه فيما أوقع بحامية الفرنج . وفيما دافع جيشهم بعد ذلك حتى أجلاه عن البلاد ، فكفى أسد الدين بشر قتالهم فى أرض مصر . فيطرب شجاع لحديث أبيه ، ولا يمل سماعه ، وهو يعيده مرة بعد مرة .

ولكن الأيام مالبثت أن أخلفت ظن شجاع ، إذ خيبت رجاء أبيه ، فقد رجع شاور ذات يوم من عند أسد الدين ، فإذا على وجهه عبوس ،

- ٢٢٧ -

وإذا هو ينفخ ويتأفف ، قال له شجاع : « ما خطبك يا سيدى ؟ ألم تجد أسد الدين هناك ؟

فأجابه شاور متأففا متكرها ، كأنما يقتلع القول من لهاته اقتلاعا :

- بلى وجدته : أين يذهب ؟ إنه باق هنا إلى يوم القيامة .

فاضطرب شجاع لما سمع وتوجس شرا ، ولكنه تجلد وتماسك .

- ماذا جرى يا سيدى ؟ هل وقع بينكما شيء ، لا سمح الله ؟

- لو يقع شيء جديد . الشيء القديم بينى وبينه لا يمكن أن يزول .

- لكن هذا قد زال أمس فماذا جد اليوم ؟

فصاح شاور منفجرا : « ويلك ! أجهت تحاسبنى ؟ دعنى الساعة

فإنى ضيق الصدر » .

فتقهقر شجاع ناحية الباب ليخرج . ولكنه لم يستطع أن يترك أباه

قبل أن يعرف حلية الأمر منه فتقدم ثانية إليه .

- يا سيدى اغضب على ما شئت ، ولكن أبحرنى بما جرى لعلى

أستطيع أن أصنع شيئا ..

- أجل .. تستطيع أن تصنع له هو لا لى .. أنت تشفق عليه هولا

على أهلك !

- معاذ الله يا سيدى ! أنت والدى . فلا أسد الدين ولا غيره يمكن

أن يفضلك فى قلبى .. علام يا سيدى تشك فى حبى لك ؟

وشعر شاور أنه قد قسا على ابنه بغير حق ، فقال وقد عادت الرقة

إلى قلبه : « كلا يا بنى ما أشك أنك تحبى ، ولكنك لا تقدر أن تصنع

لى شيئا فى هذا لأمر ، فدعنى وهمى ولا تنقل به قلبك ..

— إن همك يا سيدى من همى ولا أستطيع أن أراك مغتما ولا أغتم ، فأجلسه شاور ، وطفى يحكى له ما دار بينه وبين أسد الدين ذلك اليوم . وكيف أن أسد الدين يتهرب من الاتفاق معه على شىء ، ويداوره ولا يريد أن يصارحه ، حتى أيقن اليوم أنه يريد به سوءا ويبيت له شرا ، وأنه ينوى أن يبقى فى مصر ، ويتنزع منه الحكم » .
وحاول شجاع أن يسرى عن أبيه فطفى يهون عليه الأمر ، ويقول لعله يقصد كذا ، ولعله ينوى كذا ، فيجادله أبوه ويقول : ويحك يا بنى ! لا أحد يستطيع أن يخذعنى !

ومنذ ذلك اليوم عادت هموم شجاع وآلامه ..
وقد همّ أن يذهب إلى أسد الدين فيكلمه فى هذا الأمر لعله يجد عنده ما يزيل شكوك أبيه ، ولكن ماذا يقول لأسد الدين ؟
أقول له : أسد الدين إن أبى يخشى أن تبقى فى مصر وتتزع الحكم منه ؟ هذا كلام يقال : وهبى قلت له هذا ، فأى شىء يحمله على مصارحتى بما لم يشأ أن يصارح به أبى ؟ بل هبه صارحنى مخلصنا وأكد لى أنه لا ينوى هذا الذى ظنه أبى . فكيف أقنع أبى بذلك ؟ أو يعتقد أن أسد الدين قد داورنى كما داوره هو من قبل ؟ ثم ماذا أقول له لو قال : نعم ، إنى سأبقى فى مصر لأن شعبها يريدنى مكان أهلك ؟ أأقول له : كذبت ، هذا غير صحيح ؟ أم أقول له : لا حق لك فى ذلك وإن أرادك شعب مصر ، فإن أبى هو صاحب الحكم وإن رغب الناس كلهم أجمعون ؟

وكان هم شجاع كالخنجر ذى الحدين ، يدمى قلبه أنى تحرك بمنة أو يسرة ، فهو يخشى على أبيه من أسد الدين ، كما يخشى على أسد الدين

من أبيه ، لو كانت الأولى وحدها لكان الأمر هينا ، إذن لسعى جهده مع أبيه وكافح فى سبيله بكل ما أوتى من قوة ، فإما أن ينتصر أبوه فيرضى ، وإما أن يهزم فيستريح هو مما يقاسيه من عذاب الحيرة والقلق . ولو كانت الثانية وحدها لكان الأمر أهون إذن لأنذر أسد الدين بما سمع من شاور وحذره مما يحتمل من كيد و غدره ، وحرضة على أن يتغدى بعدوه قبل أن يتعشى عدوه به ، ولن يجد أسد الدين صعوبة فى الإيقاع به لأن قلوب الناس معه . وعلم بتسلل أبيه إلى القصر ، فقلق . وأشفق أن يتواطأ مع العاضد على ما لا يرضاه الله والوطن . وسأل أباه حين رجع من القصر : أين كان ، فارتبك وغمغم ، ثم زعم له أن العاضد كان قد استدعاه منذ أيام فذهب ليقابله اليوم فوجده معتكفا لا يقابل أحدا لو عكة أصابته ، فأحس شجاع بأن أباه قد أخفى عنه الحقيقة ، فتعاضم قلقه وزادت وساوسه .

وحدثته نفسه أن يذهب إلى أبى الفضل ليكاشفه بما فى نفسه لعله يجد عنده مخرجا . ولكنه تذكر أن الأمر لا يتعلق بسر هو بل بسر من أسرلر أبيه . وأبو الفضل ليس على وفاق مع شاور منذ حريق القسطنطين ، وقدوم أسد الدين لم يزل ما بينهما من خصام وإن لطفه فى الظاهر ، فصارا يتصافحان أمام الناس إذا التقيا ، ويكلم أحدهما الآخر ، ولكن باطنهما لم يزل فيه ما فيه ، وقد حاول شجاع مرارا أن يصلح بينهما فلم ينجح لا مع أبيه ولا مع أبى الفضل . »

أواه ! إن أبا الفضل كان ولم يزل النجى الأمين الذى يلجأ إليه شجاع كلما حزبه أمر ، فيجد من رأيه ومشورته ما ينير له السبل ولكنه لا يستطيع اليوم أن يلجأ إليه ، فإلى من يلجأ ؟

- ٢٣٠ -

أيلجأ إلى القاضى الفاضل ؟ إنه صديق أمين وإنه لنو عقل ورأى ، ولكنه لا يجد عنده فى هذا الشأن ما يريد ، لأنه أمين سر شاور ولا يقبل أن يخوض فى مثل هذا حتى مع شجاع .

أيلجأ إلى والدته ؟ لكنه يعرف ماذا هى قاتلة له : « إن أردت الخير والبركة فلا تعترض على والدك فى شىء ، وقصارى ما يفيد من ذلك لو فعل أن يثقل قلبها بهم جديد .

أيلجأ إلى زوجته ؟ إنها لعطوف ودود وإنها لذات عقل ورأى ، ولكنها ابنة أبى الفضل ومشربها من مشربه ، ولا تخلو مكاشفتها بسرّ أبيه هذا من حرج .

أواه .. هذا سر لا ينبغي أن يكشف به أحدا حتى سُميّة ! وأحسّ بوطأة المصائب إذ شعر بالوحدة القاتلة تأخذ بتلابيبه حتى تكاد تكتم أنفاسه . ولم يتنفس الصعداء إلا حين جاء أسد الدين ليزور أباه فنزل شجاع من أعلى الدار مسرعا فاستقبله حتى دخل به عند أبيه فى الديوان ، وتمنى لو دعاه كلاهما أو أحدهما لشهود مجلسهما حتى يسمع ما يقولان . ولكن ذلك لم يحدث فانسحب .

وحدثته نفسه أن يسترق السمع إليهما من مكان قريب ، ولكنه استهجن ذلك ورآه لا يليق ، فوقف غير بعيد منتظرا على أحر من الجمر ، وهو يدعو الله فى سره أن يجعل هذه الزيارة المفاجئة بشارة خير ومفتاح فرج .

واستدعى القاضى الفاضل فدخل عندهما ثم خرج فأسرع إليه شجاع يسأله فقال له : « إن الوزير أمرنى أن أكتب له أمرا بأن تعطى جنود أسد الدين دورا يسكنونها فى القاهرة ، ولما أراد شجاع أن

يستوضحه قال له : « دعنى أكتب الأمر أولا ثم استوضحنى بعد ذلك » .

وخرج أسد الدين لينصرف ، فحرص شجاع على تشييعه ليتفرس في وجهه فرآه طلقا متهللا فاستبشر خيرا ، ثم انطلق إلى القاضى الفاضل ليستوضحه فلم يجد عنده جوابا إذ قال له : « اذهب إلى أبيك فسله » .

ودخل عند أبيه فوجده مطرقا واجما ، فاكتأب وتوجّس سوءا ، ولكن شاور لم يلبث أن رفع رأسه وأبدى الرضا والطمأنينة قائلا : ادخل يا شجاع ، أتريد أن تعرف مادار بينى وبين أسد الدين اليوم ؟ لقد أراد العاضد أن يكيد لى فوعد أسد الدين بأن يأمر لرجاله بدور يسكنونها فى القاهرة ، فأحبطت كيده ، إذ سبقته فأمرت أنا لأسد الدين بذلك ، ليعلم كل منهما أننى أنا صاحب الأمر والنهى » .

وفهم شجاع من بقية حديث أبيه أن أسد الدين قد نوى حقا أن يقيم طويلا بمصر نزولا على أمر نور الدين ، ولكن ليس ثم ما يؤيد خوف أبيه أنه سيتنزع الحكم منه ما ظل أبوه متعاوننا معه على تحقيق ما يريده نور الدين من توحيد القوى لمحاربة الفرنج . وفيما صنعه اليوم ما يشير بذلك . وحسنا فعل إذ سبق العاضد إلى هذه المكرمة فلعل العاضد قد نوى حقا أن يتقرب إلى أسد الدين على حساب أبيه فأحبط أبوه تدبيره ، فسر شجاع لهذه النتيجة ، واطمأن باله ، ولم يشأ أن يسترسل مع أبيه فى هذا الشأن خشية أن يسمع منه ما يكره . فيقلق بله من جديد .

وسمع نبأ الدار التى نزل بها أسد الدين فى سرّة العاصمة ، وأنه أخذ يستقبل الناس فيها أفواجا أفواجا ، فلم ينكر من ذلك شيئا ، فقد كانوا يتوافدون عليه فى معسكره خارج القاهرة ، فأحر بهم أن يتوافدوا عليه اليوم وقد صار بينهم داخل العاصمة ، وعزا ارتياب أبيه بذلك إلى ما داخله من الغيرة الطارئة التى لا تلبث أن تزول .

وهكذا قدر لشجاع لما شغله من هم أبيه ألا يشعر ببداية قيام العهد الجديد الذى هو نفسه من بناته إلا بعد ما شعر به عامة الناس .

وأخذت الرقاع ترد من أسد الدين إلى ديوان أبيه ليوقعها ، فأحس حينئذ برثاء لأبيه الذى يحاول جاهدا أن يكتم ما يعانيه من الموجدّة والأسى . مظهرها أنه لا يزال صاحب الأمر والنهى حيث يختم الرقاع ويخط بقلمه توقيعا .

وامتزج فى قلب شجاع هذا الرثاء الشديد لحال أبيه ، بفرح شديد للعهد الجديد الذى أحس به الآن ينبض فى كل عرق من عروق البلاد ليحييها بعد موات ويبعثها بعد همود ، فكان شعوره عجبا من العجب ، وكان موقفه من ذلك أعجب .

إنه يشعر برغبة شديدة فى إعلان سروره واستبشاره ، ولكنه لا يستطيع ذلك إشفاقا على أبيه أن يظنه شامتا فى الشامتين . وقد صار لا يستطيع أن ينظر إلى وجه أبيه إلا اختلاسا خشية أن يلوح أبوه دلائل السرور فى عينيه فيتضاعف أساء الدفين .

وقد كان من حظّه فى أول الأمر أن شاور كان يتجلّد تجلّدا شديدا . فلم يظهر تضعّعا لأحد من أهله ولا من غير أهله ، فظل

بينهم على حالة من الشموخ والوقار، كأن الأمور ما تزال تجري في البلد بأمره . وكان هذه الإصلاحات التي تتم على قدم وساق ، إنما هي من تدبيره بالانفاق مع أسد الدين ورجاله ، فكفى شجاعا بذلك حرج الموقف أمام والدته التي يعزّها غاية الإعزاز ، فكان لا يرى بأسا إذا جلس إليها في غير مشهد أبيه أن يحدثها بما يجري في البلد من إصلاح ، وتعمير ، وما لأبيه في ذلك من فضل كبير ، إذ قبل أن يتعاون مع أسد الدين على ما فيه إصلاح البلد وخير الشعب .

وقد غاب عن شجاع أن والدته تدرك من حقيقة الحال مثل ما أدرك فقد أحست بما يعانيه زوجها من القلق والأسى ، وإن لم تشأ أن تظهر ذلك لزوجها مراعاة لشعوره ، ومجارة له فيما اختار لنفسه من مظهر التجلد والتحمل ، ولا لابنها كراهية أن تكشف له ضعفا يحرص أبوه على كتمانها ..

أما سمية ، فقد كان موقف شجاع منها أعجب وأغرب ، فإنه على فرط حبه لها وشدة تعلقه بها ، يشعر شعورا خفيا بأنها عين لأبيها على أبيه ، وإذا كان أبو الفضل قوى الارتباط بأسد الدين حتى في صلاتهما الظاهرة للناس ، فإنه يجد حرجا في الإفضاء إليها بذات صدره فيما يتصل بحقيقة موقف أبيه مما يجري اليوم في البلاد : آه لو يستطيع أن يكشفها بما في صدره ، إذن لربما وجد من عطفها وحنانها ما يسرى بعض الهم الذي يعتلج بين جوانحه .

وتحس سمية بما يحس به زوجها الحبيب فترثي لحاله ، وتتألم لما به ، ولكنها لا تستطيع أيضا أن تكاشفه فيما لم يشأ هو أن يكشفها فيه .

- ٢٣٤ -

وظلت الحال على ذلك إلى أن بدىء بتجديد عمارة الفسطاط ،
وظهر من شاور ما ظهر من الاهتمام الشديد بهذا المشروع والنشاط
البالغ فى تنفيذه حتى أشعر الناس جميعا بأنه هو القائم الأول فى هذا
السبيل ، فحيثئذ تغير الموقف فى بيت شاور كما تغير خارج بيته ،
فاستطاع أن يعلن فرحه العارم من غير تحفظ أمام أبيه وأمام والدته وأمام
زوجته وأمام الناس أجمعين .

وتكاشف أهل بيت شاور بعضهم لبعض حين أحسوا جميعا أن أباهم
قد عاد حقا رب الموقف ومالك الزمام ، وأن تلك السحابة القائمة التى
كانت تغطى ما بينه وبين أسد الدين قد انقشعت ، فإذا هما يد واحدة
تعمر من الفسطاط ما أتلفه الحريق ، وتصلح لأهلها فى هذا السلم
المستتب ما أفسدته ويلات الحرب .

وقد ضاعف سرورهم أن أباهما فضل قد مَدَّ يده إلى شاور فعاد
الصفاء بينهما من جديد وعاد التزاور بين البيتين كما كان ، وانطلق
شجاع يساعد أباه فى الإشراف على حركة البناء فى تلك المدينة الحبيبة
إلى نفسه لما تضمه من ذكريات غالية تتصل بتلك الأيام التى كان يختلس
فيها ساعات اللقاء بحبيبتة اختلاسا .

وصار فى خلال ذلك ، يتردد على ديوان أسد الدين كأنه ديوان أبيه
لا فرق بينهما عنده . فكلاهما يمجج بالحركة فى تلك الأيام ولا يستريح
كتبته وموظفوه ساعة من نهار لكثرة ما بأيديهم من الأعمال ، وتوافد
اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط ، كل ينتظر أن يعطى نصيبه من
المعونة ليشرع فى إنشاء بيته من جديد .

ولكن هذه الحال لم تدم ، فما كادت هذه الحركة الدائبة فى الديوانين تخف بعد أن فرغ معظم المستحقين من أهل القسطنطينية من أخذ ما فرض لهم من المعونات فانتقلوا إلى مدينتهم بينون ويعمرون ، حتى أخذ ديوان شاور يعود إلى ما كان عليه من السكون والخواء ، من حيث بقى ديوان أسد الدين على حاله ينبض بالحياة ، وعموج بالحركة ، وينمو بما يجد من الأعمال ، ويزيد عدد العاملين فيه بمن يسحبهم أسد الدين من كتبة ديوان شاور وموظفيه فيضمهم إليه .

ذلك أن شاور لم يستطع أن ينبرى للنهوض بأعمال الإصلاح الجديد انبراه لتجديد عمارة القسطنطينية ، إذ لم يجد فى نفسه انبعاثا لذلك فتخلف عن المشاركة الجادة والمعاونة الفعالة ، فعاد كما كان قانعا بالتوقيع على ما يرسله الديوان الجديد إليه من الأوامر والرقاع .

ولم يلبث أن عاوده الضيق كما كان بل اشتد فى هذه المرة حتى لم يعد قادرا على تجلده وتحملة السابقين ، فصار يعلن تيرمه وتضجره لأهله ولغير أهله ، وقد أحس أن شمس قد أفلت فلن يرجى لها طلوع .

وكان أكثر ما يعلن ضيقه وتيرمه لابنه شجاع . وهو يشعر شعورا خفيا بأن ابنه هذا مسؤول عما أصابه من السقوط والإدبار وأن له يدا فى ذلك ، وأنه لولاه لكان له مع هؤلاء شأن آخر ، ولما وصل على أى حال إلى هذا الدرك من الذل والمهانة .

ولم يستطع أن يكتم هذا الشعور عن ابنه فصار يصارحه به كلما جره الحديث إلى ذلك . فكان شجاع يتألم ولا يقول شيئا ويمضى شاور فى ذلك يسوق الحجج الواهية والبراهين المثافتة ، فيحيلها ببلاغته وبيانه كأنها حجج بالغة وبراهين دامغة حتى اعتقد شجاع آخر الأمر .

أنه مسؤول عن ذلك حقا ، أو كاد ، وكان شاور ربما راجع نفسه في ذلك بعض الأحيان فاستسحف شعوره هذا الذى لا يقوم عليه برهان ، فلا نكران أن شجاعا أبر أبنائه جميعا به ، وأصدقهم حبا له ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى هذا الظن المتغلغل فى نفسه فيحس - لا يدري كيف - أن شجاعا كان يقف دونه كالرقيب على أعماله ، فيحد من حريته وانطلاقه ويحول فى كثير من الأحوال بينه وبين وسائل لو اتخذها لتغير مجرى الحوادث ، فلم يبلغ أعداؤه منه ما بلغوه . وكان كثيرا ما يقول له كلما تم عمل جديد من أعمال الإصلاح : « افرح واطرب يا شجاع ، فإن أصحابك قد قاموا اليوم بعمل جديد » فيسكت شجاع على مضض .

ولما قرر شاور ما قرر من ترك الوزارة لأسد الدين لم يستشر شجاعا فى ذلك ولم يخبره ، فما علم شجاع إلا من والدته وزوجته حين رجع إلى الدار فراهما منهما مكتبين فى حزم الأمتعة لنقلها إلى بيت سعيد السعداء ، فكلم شجاع ما فى نفسه ولم يیده لهما .

ولما قابل والده لم يعتب عليه أنه أخفى هذا الأمر عنه ، كما ينتظر أن يفعل . بل قال له : « لقد أحسنت يا سيدى فى هذا القرار الذى اتخذته ، ستستريح إن شاء الله فى بيت سعيد السعداء بعيدا عن هذه الدار التى أضحت كالسجن لنا جميعا » .

فكان جواب أبيه له أن قال : « أجل ، لا ريب أن هذا يسرّك ويطربك .. سيتم لأصحابك غدا كل مظاهر الحكم والسلطان » .

وكان شجاع حريّا أن يفرح لما انتقل مع أبيه وأهله إلى بيت سعيد السعداء لولا ذلك التقريع الدائم الذى يلقيه من أبيه ، وقد احتمل ذلك

طويلا لا يعارضه ولا يرد عليه إلى أن نفذ صبره يوما ، فذهب إلى أمه دافع العين ، كسير القلب ، فشكا إليها ، لما لقي من اضطهاد أبيه على غير ذنب جناه ، فجعلت أمه تصبره وتواسيه واعدة إياه بأنها ستكلم أباه في ذلك .

وما راعه من الغد إلا أن دعاه أبوه متطلفا على غير عادته ، فاعتذر له عما كان منه في حقه ، وقال له : « ساعني يا بني ، فقد ذهب هذا الخطب بلي ، وإن مثله لخليق أن يذهب بلب الحليم » .

واستبد الفرح بشجاع فعانقه وهو يقول : « أستغفر الله يا سيدي والله ما كان قصدي أن تعتذر إليّ ، فمن أنا حتى أسألك ؟ وإنما جل قصدي أن ترضى عني ، وقد فعلت الساعة ، فالحمد لله .

ثم اقترح شاور على ابنه أن يرحل مع عروسه إلى ضيعة له في قليوب ، ليقضى فيها برهة يروح فيها عن باله ، فوقع هذا الاقتراح موقع الرضى من نفس شجاع . فقد كان بحاجة شديدة إلى الترويح والتفريح ، ولكنه لم تطاوعه نفسه أن يترك أباه وحده وهو في هذه المحنة ، فاعتذر إليه قائلا : إني أفضل يا سيدي أن أبقى هنا بجانبك .

ولكن شاور ألح عليه قائلا : « بل تذهب بسمية معك لتسرى عنها فإنها لم تقض معك أياما سعيدة منذ تزوجتها » ..

فقال شجاع متنصلا : « لا تشغل نفسك يا سيدي بأمر سمية فإنها راضية كل الرضا ولا تشكو شيئا » .

— اسمع كلامي .. إني أريد أيضا أن تتفقد الضيعة ، فقد أهملناها

زمن قديم .

— أما هذا فحبا يا سيدي وكرامة ..

وفرحت سمية بالخير ، فقد كانت فى أشد الحاجة إلى التفرّيج عن كربها الحبيس كما فرحت زبيدة أيضا إذ أشفقت على ابنها مما كابده من اّهم الثقل ، فرجت أن يجد فى رحلته هذه بعض التسرية والتزويج .

٨

وكانت الأيام التى قضّاها شجاع وسمية فى قليوب من أسعد أيام حياتهما المليئة بالهموم والآلام ، فقد شعرا كأنما تجدد عرسهما . وكأنهما يستأنفان حياة جديدة كلها حب ودعة وسلام فى حضن الطبيعة الرعوم .

وقد ارتفع ذلك الحجاب القائم بينه وبينها من جراء موقفهما من شاور ، فأصبحا يتكاشفان فى كل شىء حتى فيما يتصل بأمر شاور ، فصار شجاع لا يجد حرجا فى أن يقص عليها كل ما عانى فى هذا السبيل من محنة ومن كبد ، وكأنه إنما يقص عليها حلما مزعجا انتبه منه مرعوبا فحمد الله على أن ما شهدته كان مناما لا حقيقة .

وفى هذا الجو الطليق استطاع شجاع أن يفكر فى أمر أبيه تفكيرا هادئا غير متأثر بعاطفته نحوه ولا بهيمته عليه . فأخذت الأمور تنجلي له على حقيقتها أوضح من ذى قبل ، فإذا هو قد فرط كثيرا فى حق العهد الجديد من جراء أبيه ، ولم يفرط فى حق أبيه من أجل أسد الدين إلا قليلا على خلاف ما زعم أبوه .

فهذا العهد الجديد قد قام فاشترك الصغير والكبير فى نصرته وتأييده ، وانبرى كل قادر على شىء فعاون بما يقدر عليه ، ولكنه هو لم يصنع شيئا ولم يشترك فى شىء ، اللهم إلا ذلك الجهد الضئيل الذى

بذله فى إبان عمارة القسطاط حين رأى اهتمام أبيه بذلك فعاوننه عليه وكان حريًا به أن يكون فى طليعة العاملين المجتهدين فى بناء هذا العهد وتثبيت قواعده وأركانها لولا ما شغله من أمر أبيه فألهاه عن كل شىء .
وقر عزمه أن يكفر عن ذلك حين يعود إلى العاصمة ، فيتطوع فى عمل من الأعمال ، وما أكثرها فى هذا العهد الذى أتاح المجال للكفايات التى كانت مغمورة فبرزت أو محبوسة فانطلقت تعمل وتبدع .
ولكن علام ينتظر حتى يعود إلى العاصمة ؟ ألا يستطيع وهو فى عزلته الجميلة هذه أن يقوم بعمل نافع ؟ بلى إنه لىستطيع .
وهبت سمية ذات صباح فإذا زوجها يقول لها : « هلمى يا سمية معى إلى الحقول لأعلمك الرماية هناك » .

فسألتها ضاحكة : « الرماية ؟ »

- أجل ... الرماية والمسايفة وركوب الخيل وسائر أعمال القتال ..

وظنته فى أول الأمر يمزح ، فلما رأت الجد منه تعجبت ..

- أى شىء دفعك إلى هذا يا شجاع ؟

فأخبرها أنه فكر فى ذلك منذ شهد ما حدث للنساء من الترويع حين غزا الفرنج البلاد ، فهتكوا أعراض كثير من الخرائر لعجزهن عن الدفاع عن أنفسهن ، ولكن لم تتح له فرصة لتنفيذ ذلك حتى اليوم .

واستحسنست سمية الفكرة فى الحال ، ولكنها أرادت أن تحاوره ليقول لها كل ما عنده ، فسألته : هل يظن أن الفرنج سيعودون مرة أخرى ؟ فأجابها متحمسا : « إن الحرب قائمة بيننا وبينهم فإن لم تدر معارك فى ديارنا فستدور فى ديارهم ولن نضع السلاح حتى يخرجوا من الوطن العربى كله » .

وأحست سمية بحماسة عجيبة لما سمعت من زوجها ، وتذكرت ما كانت تسمع من أبيها فى هذا المعنى ، غير أنها لا تحسب أن أباه يوافق على اشتراك النساء فى أعمال القتال لما تعرف من رأيه فيهن . وبدأت تتدرب على الرماية كأنها تلعب مع زوجها فى أول الأمر ، وما لبث أن تحول اللعب إلى جد . ثم أخذ زوجها يدرّبها على ركوب الخيل وعلى استعمال الخنجر والسيف والرمح ، فكانت سمية تجتهد لذة عظيمة فى هذه الرياضة . ولا سيما إذ نظرت فى المرأة فوجدت وجهها قد زاد غضارة ونضارة .

ولم يقتصر شجاع فى خلال الأيام التى قضّاها فى قلوب على تدريب زوجته سمية وحدها ، فقد اتصل بفتية من أهل قلوب وصار يجمعهم فى ضيعته ويولم لهم ، ثم اقترح عليهم أن ينشئوا فرقة للدفاع عن بلدتهم إذا هاجمها مغير . فاستجابوا لدعوته ، وأخذوا يتدربون على يديه فى أوقات خصصها لهم غير الأوقات التى يقضيها مع سمية . وانقضت فى ذلك ثلاثة أشهر كأنها ثلاثة أيام .

وود الحبيبان لو بقيا مدة أطول فى قلوب ، لولا أنهما اشتاقا إلى أهلهما . واشتاق شجاع خاصة أن يطمن على حال أبيه ، وأن يتطوع فى عمل من الأعمال بالعاصمة ، فارتحل بزوجه من قلوب بعد أن ترك فيها قلوبا فتية تنبض حبا له وإعجابا به وحماسة للدفاع عن الوطن .

٩

ولما عاد شجاع إلى القاهرة وجد أباه قد اجتهد فى تعمير بيته وتحسينه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة حتى جعله أفخم وأبهى من دار

الوزارة ، واستكثر من العبيد والخدم ، حتى صار عددهم أكبر ممن كانوا معه حين كان في دار الوزارة ، وأصبح هو في حال حسنة من هدوء البال وانشراح الصدر ، وبشاشة الوجه . وقد زايه ذلك العبوس والقلق والتشكى والتذمر فعجب شجاع مما رأى من تبدل حال أبيه ، ولكنه لم يلبث أن علم منه أنه قد قرر أن يعتزل حياة السياسة ، ويربح باله من همومها وأثقالها . ليقضى ما بقى من حياته في دعة وسلام . فسر شجاع من ذلك سرورا كبيرا ، وحمد الله على أن انتهت حال أبيه بهذه الخاتمة السعيدة فلم يعد يخشى منه ولم يعد يخشى عليه .

وقد رابه قليلا أن أباه لم يفرح بعودته من قلوب كما ينبغي ، إذ كان يود له لو بقى ابنه هناك مدة أطول . ولكنه عزا ذلك إلى خرص أبيه على سعادة ابنه وراحته ، ولا سيما وقد أصبح في حال من الدعة والاستقرار لا تدعو إلى وجود ابنه بجانبه .

قال شجاع لنفسه : « الآن أستطيع أن أقوم بواجبي لهذا العهد الجديد فأكفر عما سلف من تقصير في خدمته » .

وانطلق إلى أبي الفضل ، وكان قد صار خازنا لأموال الدولة إذ ذاك فزاره في منزله ، حيث وجد سمية قد سبقته هناك لتقضى عند أهلها بضعة أيام ، فلقى منه الترحيب كعادته ، وجلسا يتحدثان في شئون شتى من خاصة وعامة ، وأثنى أبو الفضل على ما قام به شجاع في قلوب وإن أخذ عليه تدريبه سمية على مالا يجدر بغير الرجال ، فأخذ شجاع يدافع عن رأيه .

وكان مما احتج به أن الصحابييات في عهد الرسول ﷺ كن يخرجن مع المقاتلين إلى الميدان .

— ٢٤٢ —

— وما كن يقاتلن بل يخدمن المقاتلين ويأسون الجرحى ويحملن الرواء للعطاش .

— بل كان منهن من اشتركن فى القتال . وخاصة فى فتوح الشام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
— ما أحسبهن إلا اضطررن إلى ذلك ..
— قد تضطر نساؤنا أيضا .:

ومضيا يتناقشان دون أن يستطيع أحدهما أن يقنع الآخر بما ذهب إليه ، إلى أن قال أبو الفضل فى النهاية : « هى زوجتك على كل حال ، فأنت أولى بها منى ، وليس فيما فعلت من جناح ، وإن كنت لا أميل إليه ولا أوافق عليه » .

وكانت سمية تسمع وتضحك دون أن تقول شيئا ، أما أمها فكانت تقول : ما بقى فى آخر الزمان إلا أن تخرج النساء لقتال الرجال .
وانتظر شجاع أن يرشحه أبو الفضل لعمل من الأعمال ، وقد ألح له بذلك إلا أنه آنس منه تحاشيا ، فلم يراجع فى ذلك ، وإنما عرض عليه رغبته فى التطوع لتدريب الفتيان على نحو ما فعل قديما يوم أنشأ فرقة الموت ، فإذا أبو الفضل يشجعه على ذلك ، ويقول له : « هذا أفضل عمل تقوم به اليوم يا شجاع فإن القوة أهم ما نحتاج إليه فى هذا العهد ، وقد قرر أولو الأمر أن ينشئوا مراكز لتدريب الفتيان على حمل السلاح ، فحبذا لو تطوعت أنت فى هذا السبيل » .

وانصرف شجاع من عند أبى الفضل وفى نفسه بعض العتب ، إلا أنه ما لبث أن التمس لأبى الفضل عذرا فيما فعل ، فلعله كره أن يرشحه لمنصب من المناصب خشية أن يظن به المحاباة ، أو لعله خشى ألا

— ٢٤٣ —

يثق أولو الأمر بشجاع من أجل انتسابه إلى شاور . وشجاع يعلم أن قادة العهد يختارون الكفايات حيثما وجدت دون أى اعتبار آخر ، من جاه أو نسب ، فلم يجد فى نفسه أى غضاضة إذ لم يسندوا منصبا إليه ، وفى باب التطوع مجال للجميع .

وما أن أنشئت مراكز التدريب فى البلاد حتى اختار شجاع حى العسكر فتطوع فى تدريب فتيانه ، وبذل من الهممة والنشاط ما جعل هذا المركز يفوق سائر المراكز نظاما ودربة .

وكان شجاع سعيدا بعمله هذا ، غير أن شاور لم يشأ أن يترك ابنه وشأنه ، فما لبث أن أنكر عليه قناعته بهذا العمل الحقير فى زعمه واتهمه بسقوط الهممة وقلة الظموح .

قال له ذات يوم وقد رجع إلى البيت متأخرا : « واللّه إني لأرثى لك يا شجاع وآسى لحالك » .

— فيم يا سيدى ؟

— جهد مبذول .. وجزاء غير مأمول ...

— الجزاء يا سيدى راحة القلب فى الدنيا ورضوان الله فى الآخرة .

— راحة القلب يا بنى فى جليل الأمور لا فى سفاسفها ..

— هذا من أجل الأمور عندى .

— لأنك لم تجد غيره .. ثم سلهم لماذا يجوزون من دونك ولا يحيلون

على الله سواك ؟

— ماذا تعنى يا سيدى ؟

— أعنى أصحابك هؤلاء .. قادة العهد الجديد ...

— إني ما طلبت منهم شيئا فمنعوني ..

— ٢٤٤ —

- لم ينتظرون حتى تطلب ؟ هذا حموك قد أصبح خازنا لأموال الدولة . أفلا يستطيع أن يجد لك منصبا يليق بقدرك ؟
- لا مكان للمحابة يا سيدى فى هذا العهد ..
- أى محابة ؟ ألا يعرف كفايتك ؟ فكيف يعطلونها وهم يزعمون أنهم يختارون الكفايات ويتصفون أصحابها ؟
- إنى ما عطلت كفايتى على كل حال ، فقد تطوعت فى خدمة بلادى بما فى مقدورى وطاقتى ...
- واحرّ قلباه .. من طيب قلبك وغفلتك .. أما عرفت بعدُ أنهم إنما أقصوك لمكانك منى ؟ ويلهم لقد تركت لهم كل شىء .. أفلا يولون ابنى ما هو أهل له ؟!
- لا بأس يا سيدى . فإنى لست بحاجة إلى المنصب ، فعندنا بمحمد الله ما يكفيننا .
- أو قد غرك هذا الذى جمعه لكى ؟ غدا يصادرونه منا كما صادروا أموال غيرنا من الأمراء والكبراء ...
- الله يا سيدى هو الرزاق الكريم !
- ولم يكتف شاور بكلامه لابنه فكلّم سمية زوجته وقال لها : « إذا لقيت أباك يا سمية فاسأليه أن يرشح زوجك لمنصب يليق به فلا ينبغى أن يهملوه هكذا وهو ذو كفاية لا تنكر
- فوعده سمية خيرا ، وقد اقتنعت هى أن زوجها مظلوم ، فلما ذهبت تزور أباهما كلمته فى ذلك وألحت عليه ، وحاول أبوها أن يقنعها بكل سبيل فلم ينجح .
- قال لها : « تعلمين يا بنيتى ما كان من شاور » .

- وما ذنب شجاع فى ذلك ؟ لقد كان ضد أبيه وفى سبيلكم لقى
منه ما لقى ..

- أجل ، لا ذنب لشجاع فيما كان من أبيه ، ولكن لقادة العهد
عذرهم إذ لم يعتمدوا عليه اليوم على الأقل حتى تحصل لهم الطمأنينة من
جهة شاور . ثم ما حاجة زوجك إلى المال وقد جمع له أبوه ما يكفيه ؟
- ليس من أجل المال يا أبى .. ولكن من أجل المنصب والمقام .

- هذا العمل الذى يتولاه شجاع .. أفضل من كل منصب .
- ذاك عمل يستطيع أن يقوم به أى جندى فى الجيش ..
- إنك لا تعلمين يا سمية ماذا صنع شجاع هناك .. لقد أنشأ نواة
لكتيبة كاملة بفرسانها ورجالتها ومقدمتها وساقتها وطلاتها ...

- أفجزأؤه على ذلك أن ينسى ويهمل ؟
وظالت المراجعة بينهما . هى تلوح وهو يعتذر . حتى قال لها آخر
الأمر : « يا بنيتى أنا من جهتنى لا أستطيع أن أقترح تعيين زوجك ،
ولكن دعيه هو . يذهب إلى أسد الدين فسيعرف له فضله » .
فقالت له : « إنك لا تريد أن تصنع له شيئا .

انصرفت غاضبة وبقيت مغاضبة أباهما برهة طويلة .
وكلمت شجاعا فاقترحت عليه أن يذهب إلى أسد الدين لعله يعرف
فضله فيؤليه منصبا يليق بقدره . فتعجب شجاع من قولها وسألها :
« من أين أتيت بهذا ؟ من الذى اقترحه عليك ؟ » .

فسكتت سمية ولم تجب ..
- كنت عند أبيك قريبا فلا ريب أنه هو الذى اقترح ؟
- نعم هذا اقتراحه .

— ٢٤٦ —

— كلمته أنت ذلك ؟

— نعم ..

— لقد سمعت هذا من أبى وسمعت من أمى ، أفأسمعه منك أيضا يا

سمية !!

لقد كنت أظنك آخر من تخوض فى هذا اللغو ..

— هذا حقك يا شجاع !

— كلا لا حقّ لى على أحد .. نعم من حقى أن أعمل فى خدمة

بلادى ولم يمنعنى أحد هذا الحق .

١٠

وتكذّر قليلا ما بين شجاع وسمية من جراء ما حدث ، ولكنه ما لبث أن رضى عنها لما استرضته ، ووعدته أنها لن تخوض فى هذا الحديث مرة أخرى ، وإن ظلت واجدة على أبيها لقلة اهتمامه بأمر زوجها ، ولو شاء لصنع له شيئا فقبله شجاع دون غضاضة .

وعاود القلق شجاعا من جهة أبيه مره أخرى . إذ رأى رجالا يترددون عليه ، ما كانت لهم صلة به من قبل . غير أنه علل نفسه فى أول الأمر بأن أباه ربما أثر أن يتعد عن حياته القديمة ما أمكنه ، فاتخذ هؤلاء الأصدقاء الجدد . إلى أن لمح ذات ليلة رجلا يتسلل من عند أبيه فى الظلام بعد ما جلس معه برهة على انفراد ، ودبّ فى قلبه الشك . فتبع أثره ليعرف من هو فإذا هو ابن الخياط ، ذلك الجاسوس القديم الذى كان أبوه قد ضربه أمامه من قبل ، والذى ظهرت موالاته للفرنج بعد ذلك أيام وجود حاميتهم فى القاهرة .

هذا كان عدو أبي فما الذى جاء به الآن إليه ؟
وأرق شجاع ليبتها ولم ينم . فلما كان الغد غدا إلى أبي الفضل فى
دار الوزارة ، فاحتلى به وسأله عن ابن الخياط هذا : كيف لم يقبضوا
عليه وقد كان معروفا بالتجسس للفرنج وموالاتهم ؟!

— هل رأيتك شىء من أمره اليوم ؟

فتوقف شجاع لحظة ثم قال : « لا ، ولكنى لمحتة أمس بمشى فى
الشارع مطمئنا بين الناس ، فوقع فى قلبى أن أنبهكم إلى أمره لعلكم
نسيتموه أو اختبأ عنكم فلم تجدوه » .

— كلا يا شجاع ، إننا ما نسيناه ، ولكن السياسة الجديدة قائمة على
الإعراض عما كان فى الماضى واعتباره كأن لم يكن ..

وعاد شجاع إلى بيته مغموما لا يدرى ما يفعل ، فقد كان يود لو
قبض على ابن الخياط اليوم حتى تنقطع صلته بأبيه قبل أن يتواطأ معه
على شىء لا يرضاه لأبيه ولا لسلامة البلاد .

وأفضى إلى سمية بما فى نفسه ، فقد ارتفع ذلك الحائل بينه وبينها فى
مسألة أبيه ، وخاصة بعد ما رأى ازورارها عن أبيها من أجله هو فأصبح
يكاشفها بكل شىء .

ووجد من سمية عطفًا وحنانًا سرّيًا عنه بعض ما يلقي ، وحدثته أنها
هى أيضا ترى كثيرا مما يريبها فى شاور وأنها تلاحظ عليه كأنه لا
يرتاح لوجود شجاع فى المنزل ، حتى إنه حسن لها ذات يوم أن تعود
مع شجاع إلى قلوب ليقتضيا برهة أخرى هناك ، فتذكر شجاع أن أباه
كان قد كلمه هو أيضا فى ذلك .

— ٢٤٨ —

وأحس شجاع أنه لم يعد اليوم وحده في محنته ، فقد صارت سمية معه يكاشفها وتكاشفه ، وتقوم له بمراقبة أبيه في أثناء غيابه ، فهوّن ذلك كثيراً من خطبه .

وتنازع قلبه عاطفتان متناقضتان : إحداهما ترغب في اكتشاف سر أبيه ، والأخرى تشفق أن تطلع منه على مكروه ، فقرر بعد لأي أن يعتمد أولاً إلى مناقشة أبيه في شأن العهد الجديد ، لعله يستطيع أن يغير رأيه فيه ويزيل تحامله عليه ويستل سخيمته على رجاله .

دخل على أبيه يوماً وليس عنده أحد فقال له : « يا سيدى ! إنك قد أنصفت نفسك حين لزمت دارك وألقيت هموم السياسة وراء ظهرك ، فاسترح واطمأنت ، واستراح أهلك واطمأنوا ، ولكنى أراك ما تزال تتحامل على هؤلاء القوم وأنت ترى هذا الإصلاح العظيم الذى تم على أيديهم ، أفليس خيراً من ذلك يا سيدى لو أنصفتهم كما أنصفت نفسك فرضيت عنهم كما رضوا عنك ؟ »

فأجابه شاور غاضباً : « قد علمت أنك تميل إليهم وتؤثرهم على ! » .

— كلا — والله — يا سيدى !، ما يعينى أمرهم كما يعينى أمرك .. فسكت شاور قليلاً ثم قال : « قد أمكنتنى اليوم من نفسك ، أفتريد أن تسمع رأيى فى هؤلاء ؟ » .

— نعم .. فلعلنا نتفق على شيء ...

— إنهم قد خدعوا الناس عن حقيقتهم ، وكنت أول مخدوع .

— هذه أعمالهم تشهد لهم ..

— ٢٤٩ —

— أو تظنهم مخلصين فى ذلك ؟ لو كانوا مخلصين ما أهملونى هذا الإهمال !

— يا سيدى ، إنك لم تظهر الرغبة فى خدمة هذا العهد . فتركوك على حريتك .

— بل لكيلا أكشف عوراتهم ..

— هذا سوء ظن منك لا حق لك فيه .

— ويلك ! ماذا تريد أن أصنع لهم ؟ أحنى لهم رأسى ؟

— إنهم لا يريدون أن يحنى لهم أحد رأسه ، فهو قوم متواضعون ويعملون ليل نهار فى خدمة الشعب .

— بل يعملون لأنفسهم فى صورة خدمة الشعب ، اذكر لى عملا واحدا من أعمالهم خالية من هذا الغرض ...

— كل أعمالهم خال مما ذكرت ..

— ويلك ! أعجبك مصادرتهم لأموال الناس وأملاكهم ؟

— ما صادروا غير أموال الأمراء التى احتجوها عن الشعب ، فأنفقوها فى خدمة الشعب .

— هكذا يزعمون ، ولكننا ما رأينا الشعب استفاد شيئا .. أين الرخاء

الذى وعدونا به ؟

— الرخاء آت غدا لا محالة حين تبدأ المشروعات التى قاموا بها تؤتى

أكلها ..

— هيهات ! .. ما عهدت البلاد قط غلاء فى الأسعار كهذا الذى

تعانیه اليوم .. وما الغد إلا ابن اليوم ..

— ٢٥٠ —

— إن كان غلاء فمن أثر ما وقع من تدمير فى البلاد وترويع
للفلاحين فى الأرياف أيام حرب الفرنج ، ولما يقوم به الفرنج اليوم من
حصار البحر ، فعاقوا ورود السلع إلى البلاد .

— إن كان هذا من عمل الفرنج فأين عملهم هم لرفع هذا الغلاء عن
الناس أو تخفيفه ؟

— أنسيت أنهم أبطلوا الرسوم جميعا ورفعوها عن الناس فى جميع
الأقاليم ؟

— ويلك ! هل بقى فى أيدي الناس ما يدفعون منه تلك الرسوم ؟
والله لخير للناس أن يدفعوها ويكون لديهم مال من أن ترفع عنهم
وليس فى أيديهم شيء !

— سبحان الله يا سيدى .. الحسنات تتحول عندك إلى سيئات ؟

— بل أنت الذى تتحول عندك السيئات إلى حسنات ... !

١١

وأدرك شجاع بعدما حاور أباه مرة بعد مرة أن من المحال تغيير رأيه
فى هذا الشأن ، بل أشفق فى بعض الأحيان أن يتحول رأيه هو قبل أن
يتحول رأى أبيه ، فقرر أن يكف عن جداله وأن يتركه وشأنه .
ولكن خيال ابن الخياط ظل ماثلاً أمام عينيه لا يفارقه فى ليل أو
نهار . واستبدت به رغبة فى أن يعرف حقيقة الصلة بينه وبين أبيه ،
وكان قد عرف أن شاور يأذن له من الباب الخلفى ، فظلّ شجاع
يرصده ليلالى فى نفس الموعد بعد صلاة العشاء حتى بصر به ذات ليلة

يدخل متسللاً . فتسلل شجاع إلى موضع قريب من حجرة أبيه كان قد فكر فيه واختاره من قبل بحيث يسمع ما يدور بينهما دون أن يشعر به . ووقف شجاع حابساً أنفاسه فسمعهما يتناجيان ، وكان فحوى نجواهما أن أسد الدين ينو أن يستقل بمصر عن نور الدين ، فالرأى أن يكتب « مرى » ملك الفرنج كتاباً إلى أسد الدين يذكر له فيه أنه يوافق على التهادن ، ما دام أسد الدين لا ينو أن يؤيد نور الدين في حربه مع الفرنج . ثم يعتمد الرسول الذى يحمل الكتاب أن يقع فى أيدى رجال نور الدين ليفتشوه فيجدوا عنده هذا الكتاب ، فهذه الخطة كفيلة بإفساد ما بين نور الدين وأسد الدين ، وفى ذلك فائدة لكلا الطرفين « مرى » وشاور .

واضطرب شجاع حين سمع من نجواهما هذا القدر ، وارتعدت فرائصه حتى لم يعد قادراً على البقاء ليستمع إلى ما بعد ذلك ، وخيل إليه أنه لو بقى لندت منه صيحة أو حركة تكشف لهما أمره ، فانسحب وقد ابتل جسمه عرقاً من شدة الكرب الذى اعتراه وصعد مسرعاً إلى سطح البيت حيث وقف يستنشق الهواء الطلق لينفس به بعض ما احتبس فى صدره ، ولكن رجليه مالبثتا أن أسلمتا إلى الأرض حيث جلس مرتفقاً إلى حائط السطح ، ماذا ركبتيه مسترخياً فى وهن شديد . وإعياء بالغ . وقد أحس كأن الأرض تدور به ، وكأنه يوشك أن يغشى عليه . فبقى كذلك برهة لا يدري كم كان طولها ، تنازعت فى خلالها شتى الهواجس والخواطر . فذهبت به كل مذهب ، وهامت به فى أودية سحيقة يسودها الظلام والضباب ويملأها الخوف والرعب والأوهام والأشباح .

وحاول أن ينهض لينزل إلى سمية فيلوذ بها ، ويجد عندها مثابة وأمنا ، ولكنه أحس بالوهن الشديد يحول دون ذلك كأنما فقد القدرة على الحركة ، وهم أن يصيح لعلها تسمعه فتصعد لإسعافه ، فكأنما فقد القدرة على الصوت أيضا ، فاستسلم واستكان .

وتتابعت فى عينه صور مخيفة تتراقص أمامه كالأشباح ثم تتلاصق وتتضام وتتحد فى صورة واحدة ، يتضاءل حجمها شيئا فشيئا فإذا هى وجه أبيه ! وترددت فى أذنه أصوات منكرة من زئير وفحيح وغواء ونهيق وقُبَاع ونعيق ، تتناوب على سمعه ثم تختلط وتتمازج فى صدى واحد . يتخافت شيئا فشيئا فإذا هو صوت أبيه .

ثم انقشع الظلام والضباب فاخفتت الأوهام الأشباح ، وأخذت تتجلى له الحقائق سافرة يؤيد بعضها بعضا . ويجلو بعضها وجه بعض ، فإذا خيانات أبيه كبيرها وصغيرها وقديمها وحديثها ، تطير عنها هلاهيلها ، فإذا هى عارية لا يكسوها شيء !

لقد كان يحتملها ويلتمس لها المعاذير ، إذ كان العهد عهد فساد مستطير فى كل شيء ، والأمور فيه فوضى مختلطة ، فلا تتميز فيه الخيانة من الأمانة ، ولا يتبين فيه الصلاح من الفساد ، أما فى هذا العهد الجديد فأى شبهة تستطيع أن تسز لك الخيانات أم أى معذرة تستطيع أن تغفرها ؟ كلا ، لا شبهة ولا معذرة .

وهذه التى اقترفها اليوم ليست بأبشع من أخواتها اللامى سبقنها إلا أنه رآها بعينه وسمعها بأذنيه ، آه ! يالبتة لم يكشفها اليوم ، فبقى له فى الدنيا رجل يستطيع أن يسميه أباه ! بل ليته كشف أخواتها من قبل فاستطاع أن ينقذ نفسه من وهم عاش دهره فيه .

يا ويلتاه ! هذه خيانة صريحة لمصر وللعرب والمسلمين !
 ماذا يصنع ؟ أيلغها لأسد الدين ؟ إذن يُقبض على أبيه ، ويُحكم عليه
 بالموت ، فماذا يكون حاله هو ؟ بل ماذا يكون حال والدته العجوز التي
 تقلس زوجها تقديسا حين تفجع به وتفجع فيه ؟ ماذا يكون موقفها
 من ابنها إذا علمت أنه هو الذى وشى بأبيه ، فقدمه إلى سيف الجلال ،
 وألبسها الحداد على الحداد ، وضرب عليها وعلى نفسه المذلة والعار ؟
 سيكون ذلك جزاء حبها له وحنانها عليه ؟ إن هذا إذن لعقوب أىّ عقوب !
 ولكن كيف يتركه هكذا يخون مصر ويخون العرب والمسلمين دون
 أن يبلغ عنه ؟ إذن ليكونون مسئولوا أمام الله وأمام العرب والمسلمين ،
 ولتحلن عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين .

آه ! ليت أباه قد مات من قبل فاستطاع اليوم أن يزور قبره ويترحم
 عليه !؟ أو ياليت أمه توفيت فضمن أنه لا يؤذيها إذا قام بواجبه فآثر
 حرمة الله والوطن على حرمة أبيه !

وتراءى له فجأة شبح ضرغام ، واقفا أمامه برأس مقطوع ، يحوم في
 الفضاء حول عنقه ، ثم يستقر على العنق ، فإذا هو يقول : « يحك يا
 شجاع ! أعرفت اليوم حقيقة أبيك ؟ وقبل أن يتمكن شجاع من
 جوابه ، اضمحل الشبح واختفى في طرفة عين .

مسكين ضرغام ! لقد سبق زمانه فقتل ، لو عاش حتى اليوم
 لا نسجم مع هذا العهد الجديد . آه ! كيف فضلت أبى عليه ؟ لقد
 كان حقا وفيما لدينه ووطنه دون أن يبالى ما يقول الناس عنه ، فظنوه
 خائنا وهو أمين ، فأين منه أبى الذى يزعم أنه أمين وهو خائن ؟

ياليثنى كنت ابنه لا ابن شاور . وياليثنى لقيت مصرعى فى الجسر الأعظم معه . فقال الناس يومئذ : « الحمد لله الذى أراحنا من ضرغام وابن ضرغام » ! فذلك خير عندى من أن أكون ابن هذا الخائن !

رباه لم جعلتنى ابن شاور ؟ هلا جعلتنى ابن ذاك السقاء الصالح نعمان بن عبيد ، أو ابن ذاك الفلاح الأمين الذى يعمل فى ضيعتنا بقلوب ، أو ابن أى رجل فى الأرض سوى شاور ؟ إذن لاسترح من هذا العذاب الأليم ، عذاب الحيرة والهوان .

أستغفرك اللهم لا اعتراض على قضائك يارباه ، ولكن إذا قضيت علىّ بما قضيت فأنر لى السبيل ، وألهمنى خير ما أعمل ! هذا الرجل يخون الدين والوطن فكيف أسكت عليه ؟ ولكنّه والدى فكيف أقوده إلى القتل وأفجع والدتى به ؟

وكأنما سمع الله دعاءه إذ انقذح فى قلبه خاطر . لم يكذب يثنيه حتى اطمأن إليه : لم لا يطلع أسد الدين على ما يعلم من سر الخيانة دون أن يكشف له سر أبيه ؟

وكأنما استرد قوته إذ ذاك فنهض عن الأرض واستوى قائما ، وأخذ يقلب بصره فى السماء ، وقد تندت عيناه بالدمع فجعل يلمع فى ضوء النجوم .

هل من سبيل إلى الاتفاق مع أسد الدين على أن يكفى منه بالخبر ليسعى فى إحباط ما يراد به من كيد دون أن يطالبه بمصدره ؟ لم لا ؟ إن أسد الدين لفارس كريم ذو شهامة وأريحية ، فما أجدره أن يقبل هذا الشرط . ولكن لا ينبغي أن يذهب هو بنفسه إليه ، فرمما يستريب به فيستجلى الحقيقة التى يريد إخفاءها عنه ، لا بد من شخص آخر يكون

— ٢٥٥ —

واسطة بينهما ، فمن يكون ؟ أبو الفضل لا .. لا يؤمن أبو الفضل على شاور .. القاضى الفاضل ؟ إنه وفى لشاور . فيما يعلم ، ولكنه قد صار اليوم كاتب إنشاء أسد الدين ، فليس بمأمون حتى لو أراد الوفاء لشاور . فقد يدرك أسد الدين الحقيقة بالتخمين لما بين القاضى الفاضل وشاور من قديم الصلة ، كلا ، لا يصلح لهذا الأمر إلا شخص لا يخطر ببال أسد الدين أن له إما صلة بشاور أو آل شاور .

وتذكر حينئذ أنه قد أطل المكنث بالسطح واشتاق إلى سمية ليفضى إليها بذات صدره عسى أن تسرى عنه أو تخفف بعض ما به فبرح مكانه فى السطح ونزل .

١٢

كان صلاح الدين يسم فى الديوان مع خاله ، شهاب الدين الحارمى والقاضى عيسى المهكبارى ونفر آخرين بينهم القاضى الفاضل ، إذ سمع صوت عمه أسد الدين يناديه من أعلى الدار فنهض من بينهم مسرعا ليصعد إليه ، وكان أسد الدين قد صعد إلى حجراته من أول الليل لينام مبكرا ويستريح لأنه أحس ذلك اليوم بنوبة من نوبات العلة التى أصابته منذ قليل من جراء ذلك الجهد العنيف الذى كان يقوم فى الديوان ليل نهار .

فأشفق صلاح الدين أن يكون الوجع اشتد بعمه ، فناداه ليستدعى له الطبيب ، أو ليدلك له مكان الوجع فى أعلى ظهره ، وحول كتفيه ، كما اعتاد أن يقوم له بذلك ، ولكنه لما صعد إليه وجدته واقفا فى البهو ورأى سواد شخص واقف عند باب البهو يرتدى عباءة سوداء سابغة ،

فلما نظر إليه فى ضوء السراج الخافت تبين امرأة فارعة القوام ، منتقبة لا يرى منها غير عينيها ، وكأنها تنهياً للانصراف ، فارتبك قليلا حتى نسى أن يبدأ عمه بالسؤال عما يريد ، وعجب . ولكن لم يطل عجه ، إذ ناداه عمه قائلا : « هلم يا يوسف أدب منى » ثم التفت إلى المرأة فقال : « هذا يا أمة الله صلاح الدين ابن أخى وهو بمنزلتى وأنا وهو شىء واحد . فإذا جئت يوما ولم تجدنى فأفضى إليه بما عندك ولا تخافى فإنه شاب صالح وسيكون موقفه منك مثل موقفى ، يسمع منك ما تريدين ولا يسألك عن شىء ولا يستوضحك شيئا ، وسأخبره الآن بأمرى وأجعله يحلف لى كما حلفت لك » .

وأومات المرأة برأسها علامة الموافقة ، ثم انسلت خارجة .

- من هذه يا عم ؟

- تعال اجلس لأحدثك عنها .. إنها امرأة عجيبة !

- من هى ؟ وماذا جاء بها ؟

- احلف لى أولا أنك لا تبوح بسرها إذا أنا أخبرتك .

- والله العظيم لا أبوح بسرها إلا إذا أذنت

- أتذكر ذلك الجاسوس الفرنجى الذى قبضنا عليه منذ شهر ؟

- نعم .. أفهذه هى عصفورتك ؟

- وملك كيف علمت ؟!

- ما علمت شيئا بعد وإنما خمنت من حديثك ...

- أجل هذه هى عصفورتى التى نقلت لى خبر الجاسوس ...

- وكيف تسنى لها أن تعرف ذلك ؟

— ٢٥٧ —

— هذا مالا ينبغي لنا أن نسأل عنه ، قد اتفقت معها وأعطيتهما عهدا
بذلك ...

— لكن ...

— كلا ، لا تقل لكن .. هذا العهد يسرى علىّ وعلىّ ، فلا أقبل
منك أى مراجعة فيه .. عليك أن تجهز نفسك الليلة لترحل غدا إلى
الإسكندرية ...

— إلى الإسكندرية ؟

— نعم .. فقد أبلغنى اليوم أن الفرنج قد يهاجمونها فى الشهر القادم
من البحر ، فاذهب وتفقّد وسائل الدفاع هناك .. وأنذرهم ليستعدوا
لمناولتهم فى البحر بما تم صنعه من قطع الأسطول ...

— وما يدريك أنها صادقة ؟

— أنا واثق من صدقها ، وقد صدقتنى فى الأولى !

— ألا تخشى أن تكون هذه دسياسة علينا من العدو ليستدرجنا إلى
مكيدة مدبرة ؟

— أوه ! دعنى يا يوسف من وساوسك ..

— هذه ليست وساوس ياعمى .. هذا احتياط واجب ..

— فماذا تريدنى أن أصنع ؟ أرفض خدمتها لنا وأقول لها انقطعى ،
فإننا لا نريد أخبارك ؟

— كلا يا عمى ، ولكن يجب أن نعرف أولا من أين تستقى هذه

الأخبار ...

فاتحد أسد الدين قائلا : « قلت لك إنها حلفتنى ألا أسألها عن شىء
غير ما تخبرنى به ، وقد قطعت لها علىّ نفسها عهدا ، فحذار يا يوسف
أن تنقض عهدي ، فتفسد علىّ أمرى » .

سيرة شجاع

فقال صلاح الدين معتذرا : « لا تغضب يا عم ، فستجد عندى من كمال الطاعة ما تحب ... »

١٣

وتوجه صلاح الدين فى نفر من رفاقه إلى الإسكندرية ، وهو فى حيرة من أمر هذه المرأة التى يسميها عمه العصفورة ، فظل طول الطريق مشغول الفكر بها ، فإذا سأل رفاقه عن سبب وجومه . تنصل من ذلك منتحلا عذرا من الأعذار .

وبلغ الإسكندرية ففرح أهلها بمقدمه ، وتذكروا سالف عهده معهم ، فاستقبلوه استقبالا رائعا ، ثم توافدوا عليه حيث نزل ضيفا على صديقه ابن رشيد الذى صار عاملا على الإسكندرية فى هذا العهد .

وأسرع صلاح الدين فنفذ أمر عمه فى تفقد وسائل الدفاع وتجهيز ما تم صنعه من سفن الأسطول لمانزلة أسطول الفرنج ، وإن بقى فى شك من مجيئهم إلى أن أقبلوا بأسطولهم حقا ، فلما رأوا الأسطول المصرى واقفاهم بالمرصاد سقط فى أيديهم ، فانسحبوا بعد معركة قصيرة احترقت فيها بعض سفنهم .

ورجع صلاح الدين إلى القاهرة بعد أن سبقته بشائر النصر إليها ، فعانقه أسد الدين ورجاله فرحين مستبشرين وما لبث أبو الفضل أن اقترح مضاعفة الاهتمام بإنشاء الأسطول وزيادة عدد سفنه ، بحيث يكون قادرا لا على مدافعة سفن الفرنج فحسب بل على مهاجمة مدنهم وحصونهم على سواحل الشام فى المستقبل ، فتحمس أسد الدين لهذا الاقتراح وأمر بتنفيذه . وقد زاده حماسة بعد ذلك ورود كتاب من نور

الدين يهتته بانتصاره على الفرنج فى تلك المعركة البحرية ويوصيه بمزيد الاهتمام بالأسطول ويقول له : « إنك تعلم أننا لا نملك سفنا بالشام ولا السواحل فعلى مصر أن تسد نقصنا فى هذا السبيل » .

أما صلاح الدين فقد ظل التفكير فى أمر العصفورة شاغلا قلبه ، ولا سيما بعد ما تبين صدق ما أخبرت به فى هذه الواقعة .

وحدثته نفسه أن يراجع عمه فى أمرها ليوافق على السعى لاكتشاف حقيقتها ، ولكنه عدل عن ذلك لما يعلم من إصرار عمه على رأيه ، فأثر أن يجاريه فى الظاهر . واعتزم أن يراها بنفسه حين تجىء إلى عمه لعله يستطيع أن يكشف شيئا من أمرها بالتوسم والتفرس فظل أياما يترصد بجيها دون أن يلفت نظر عمه إلى ذلك .

فلما أحس بجيها ذات عشية أسرع فصعد إلى عمه متعللا ببعض الأمور ، فما كان من أسد الدين إلا أن دعاه فدخل ، فما إن رآها حتى داخلته هيبة عظيمة لا يدري ما سرها . فغض بصره وسمعها تتحدث إلى عمه فى صوت خافت ولكنه ثابت لا يضطرب ولا يرتعش ولولا رفته ونعومة جرسه لظنه صوت رجل .

وما لبثت العصفورة أن انصرفت . ولما يسمع صلاح الدين منها غير كلمات معدودة . ولم يتمكن من تأملها إلا نخلصة أو نخلستين فما وعى سمعه من حديثها معنى تاما ، ولا وعى من صورتها غير نخلصة من شعر ! ولم يستطع صلاح أن يسترسل طويلا فى سرحان ذهنه ، إذ ما لبث عمه أن نبهه قائلا : « ما خطبك يا يوسف ؟ إياك أن تكون وقعت فى سحرها فإنها ليست خالية » .

— متزوجة ؟

— ٢٦٠ —

- أجل .. عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى !
— لا والله يا عمى ، ما بى شىء مما ذكرت .. وما بى غير التعجب
من أمرها ..
— وأنا والله أشد تعجبا منك ..
— وكيف علمت يا عمى أنها متزوجة ؟
— أنا سألتها فأخبرتني ...
— كأنك تعلم يا عمى من هى ؟
— كلا .. إنها أبت أن تخبرنى من هى .. وأخذت علىّ العهد ألا
أبحث عن ذلك .
— ألا يريك هذا منها ؟
— قلت لك دعنى من ظنونك ووساوسك .
— لقد رابنى منها الليلة أن شعرها فى لون الذهب ...
— شعرها ؟ أين رأيت شعرها ؟
— تحت خصلة منه تدلت من تحت النقاب ..
— هب أن شعرها كما ذكرت فأى بأس فى ذلك ؟
— قد تكون من أصل أجنبى ..
— ما شاء الله .. إن كان هذا مبلغ فراستك فإنها لا تساوى عندى
بصلة ! هذا أبو الفضل مثلا هل تشك فى مصريته وعريته ؟
— معاذ الله .
— فشعره أصفر كلون الذهب .
— أعرف ذلك يا عمى . وإنما أنا الآن بصدد هذه المرأة التى لم تشأ
تخبرنا باسمها ، فلا غرو أن نرتاب فى أمرها ونحتاظ .

— ٢٦١ —

— دعنى من هذا .. إنى سأحفظ عهدى معها ولست بخاسر ولا نادم ،
فها هى ذى جاءتنا بنياً جديداً كما سمعت !
— أنا يا عمى لم أسمع شيئاً !
— ويلك ماذا كنت تصنع إذن ؟
— ما سمعت أول حديثها ، فما فهمت شيئاً ..
— زعيم الخلافة الذى عند العاضد يرأس الفرنج ويراسلون .
— عجباً كيف علمت هى ذلك !
فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « ويلك ! هذا سؤال
يأباه العهد الذى بينى وبينها — ألم تفهم بعد ؟ .
فتمتم صلاح الدين فى يأس : « بلى ! فهمت .. فهمت » .

١٤

وفوجيء الناس ذات صباح بجثة ملقاة على جانب الطريق قريباً من
باب زويلة وقد تمزق صدرها بالطعنات وانشق بطنها فخرجت أمعاؤه .
فلما تأملوها عرفوا بعد لآى أنها جثة ابن الخياط ، ولكن أحداً لم يعرف
من الذى قتله ولماذا قتله .
واهتم أبو الفضل بأمر هذا الحادث ، وتذكر ما سمع من شجاع فى
شأنه قبل أشهر ، فداخله شك من جهته إلا أنه كتم ذلك ، ولم
يكاشف به أحداً ، وقال لأسد الدين : « لقد لقى هذا الخائن جزاءه
العدل إذ قيض الله له يداً مجهولة فاغتالته ، فعلام نبحت عن صاحبها
ليعاقب أو يدان ؟ .

فوافقه أسد الدين على رأيه ولكن صلاح الدين اعترض وقال : « لا بد من معرفة القاتل ومحاكمته وإلا اجترأ الناس على الجريمة غدا فاغتالوا الصالح والطالح .

فقال له أسد الدين : « إنا قد بحثنا عن القاتل وما قصرنا فلم نقع له على أثر ولو وجدناه لعاقبناه وحاكمناه » .

واختلف الناس في تأويل مصرع ابن الخياط وإن اتفقوا جميعاً على أنه لقي القصاص العادل ، ومال أكثرهم إلى أنه من فعل رجال الحكم وتديبرهم لما سبق من موالة هذا الرجل للفرنج إلا أنهم كتموا ذلك حرصاً على القاعدة التي سنوها من عدم محاسبة أحد على ما سلف ، ولم يخطئ على بال أحد أن قاتله هو شجاع بن شاور .

فقد ظل شجاع يراقب ابن الخياط منذ اكتشف تواطؤه مع أبيه على الخيانة ، فإذا حضر إليه استرق السمع إلى نجواهما كما فعل في المرة الأولى ، إلا أنه قد مرن على ذلك ، فلم يعد يتهيبه أو تخونه قبواه في أثنائه .

وسمعه ذات ليلة يبحث مع شاور في تدبير مكيدة واسعة النطاق ، يقوم فيها ابن الخياط بدور الوسيط بين أبطائها الثلاثة . وهي زعيم الخلافة من رجال قصر العاضد . وشاور ، و « مری » ملك الفرنج ، ويكون مسرحها القصر وميقاتها يوم العاشر من محرم إذ يحتفل العاضد بعيد عاشوراء وبتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية .

وكان العاضد قد عرض الوزارة على أسد الدين منذ زمن ، ولكن أسد الدين ظل يتنصل من قبول ذلك ويؤجله مكثفاً بأنه قد صار يحكم مكان شاور ، ولم يبق لشاور غير الاسم ، ولا سيما بعد ما ترك له

شاور دار الوزارة ، وترك له فيها ختمه ليوقع به أسد الدين على ما يشاء من الأوراق دون الرجوع إليه .

وكانت هذه المسألة موضع خلاف بين جماعة المصلحين فانقسموا فيها فريقين : فريقا يدعو إلى قبول هذا العرض من العاضد ، ومن هؤلاء قاضى القضاة ابن درباس ، وفريقا يتمسك بالرفض وعلى رأسهم أبو الفضل الحريرى . وحجة الأولين أن العاضد مازال هو الحاكم الشرعى - فى البلاد ، فهو مصدر السلطات كلها ، وحجة الآخرين أنهم عازمون على خلع العاضد فى أقرب وقت مناسب . فهو فى حكم المخلوع من اليوم ، فلا ينبغي أن يستمد أسد الدين السلطة منه ، وقد بايعه بها أهل الحل والعقد من المصريين ، ثم انتصر رأى الفريق الأول فى آخر الأمر فبعث أسد الدين إلى العاضد يخبره بالقبول ، فرأى العاضد أن يبالغ فى تكريم أسد الدين فاختر أن تجرى التولية يوم عاشوراء تيمنا به .

أما فحوى المكيدة كما سمعها شجاع ، فأن يتولى زعيم الخلافة القيام باغتيال أسد الدين وكبار رجاله ، ويقوم شاور بقيادة أجناد الدولة لمواجهة جند أسد الدين إذا ثاروا ، ويبعث ابن الخياط إلى ملك الفرنج يستعجله القدوم للقضاء على فلول جيش نور الدين وقطع دابرهم من مصر فلا يطمع نور الدين فى الاستيلاء عليها بعد ذلك ويعود شاور إلى الحكم ، ويأمن العاضد على عرشه وعرش آبائه . فلما أبدى شاور ارتياحه لهذه الخطة أخرج له ابن الخياط الرسالة التى كتبها فى هذا المعنى ليرسلها إلى ملك الفرنج ، وقد وقع عليها زعيم الخلافة بخطه ، فما ينقصها غير إمضاء شاور . وقد تردد شاور برهة وابن الخياط

يخرضه ويؤكد له ألا خوف من انكشاف سره حتى رضخ شاور آخر الأمر فوق .

وانسحب شجاع عند ذلك فنزل إلى الباب الخلفى وجعل يرصد خروج ابن الخياط ، فلما خرج اقتفى أثره وهو يتسلل مسرعا فى الظلام . حتى بلغ موضعا منقطعا عن الناس قريبا من باب زويله ، فانقض عليه شجاع وطرحه أرضا ، وكم فمه بطرف عمامته خشية أن يصيح ويستغيث ولكنه تذكر أنه لن يفعل ، فخلى عن فمه ، واستل خنجره فشرعه فى وجهه .

— أعطنى الرسالة وإلا ذبحتك ..

— شجاع بن شاور ! ... ويلك ! إن حياة أبيك فى هذه الرسالة .

— حياة شاور فى جنب حياة البلاد لا تساوى عندى حياة كلب قدر

مثلك .. أعطنى الرسالة ، ويلك !

— قم عني لأعطيك إياها ..

— كلا حتى تعطينيها .. أين وضعتها ؟

— هى فى جيب القميص .

— أخرجها بيدك ..

— ها هى ذى .. مزقها يا شجاع لتحفظ حياة أبيك .

وتطلع شجاع فى الرسالة حتى استيقن أنها هى ، فهم أن ينهض عنه ويحلى سبيله مطمئنا إلى أنه لن يفشى سر أبيه ، لما فى ذلك من خطر على حياته هو أيضا ، ولكنه تذكر بغته أنه سيتصل لالحالة بأبيه ويفضى إليه بما حدث ، ونظر فبصر بخنجر يخفيه ابن الخياط فى وسطه فاستخرجه .

— ٢٦٥ —

— أجل .. خذ خنجري هذا لتطمئن إلى أنى لن أفات عليك .
فأغمد شجاع خنجره وأعادته فى وسطه واستلّ الخنجر الحديد
وجعل يقلبه فى كفه .

— قد أخذت الرسالة فانهض عني .
— كلا لن أدعك تكتب أختها أبدا يا خائن .. سأقتلك بخنجرك كما
ثوت العقرب بسهما !! ..

فأخذ ابن الخياط يستعطف ويتوسل :
— أجل ، إني لخائن ، ولكن والله لأتوبنّ على يديك ، ولا أكشفن
لك أسراراً أخرى تهملك ، فإني أراك أعظم الناس إخلاصاً لبلادك ..
— أتريد أن تخدعني يا فاجر ؟

— خل عني وإلا صحت فجمعت عليك الناس فعرفوا سر ..
ولم يتم ابن الخياط كلمته هذه إذ عادت عماته فسدت فمه ،
وانبرى خنجره يغوص فى صدره ويخرج كأنه يفتش عن موضع العلة فى
قلبه ليدأويها !

ولم يدر شجاع ماذا حدث بعد ذلك إذ وجد نفسه عند سمية فى
البيت وهى تخلع ثيابه وتغسل الدم عنه ثم تدثره فى الفراش وتتفقد
خنجره فتجده أبيض ناصعاً لا أثر لدم فيه ، فسمعها تقول له : « بم
قتلته فإنك لم تستعمل خنجرك ؟ » .

وسمع نفسه يقول لها : « قتلته بخنجره ياسمية فلم ألوث
خنجري » !

وسمعها تقول له : « خيرا صنعت يا حبيبي » .

ثم لم يسمع بعد ذلك شيئا .

١٥

وأصبح الصباح فهب شجاع من فراشه فزعا وبجث عن الرسالة ، فلم يجدها فطار عقله ، ونادى سمية فأقبلت إليه :

— أين الرسالة يا سمية ؟ ألم تجدى البارحة رسالة بين ثيابي ؟

— بلى ، وجدتها !

— ماذا صنعت بها ؟ إياك أن تكوني مزقتها أو ..

— كلا يا حبيبي ، ما كنت لأفعل شيئا دون أمرك .. وإنما خبأتها

وحفظتها .

وعاد إليه صوابه حين ناولته سمية الرسالة فنشرها وتصفحها مليا ثم طواها .

— ماذا أنت صانع بها ؟ أتريد أن تمزقها ؟

— كلا ، بل سأحفظها وأصونها لأهدد بها هذا الشيخ الضال إذا

أراد أن يعود لمثل حماقته ..

— فهايتها لأصونها لك في خزانة ثيابي فلا تصل إليها يد أخرى .

ونزل شجاع من غرفته ليصبح على والديه ويقبل يديهما كعادته ،

فدخل أولا على والدته ، فوجدها واجمه مغمومة :

— ما خطبك يا أماء ؟ هل تشكين شيئا ؟

— لا يابني ، ولكن والدك أصبح متغيرا اليوم منذ سمع خبر الجريمة

البشعة التي وقعت في البلد ..

فبذل شجاع جهدا كبيرا ليسيطر على نفسه .

— أين هو الساعة يا أماء ؟

— فى حجرته قد أوصدها على نفسه .. اذهب إليه يا بنى لعلك تسرى عنه .

— إبنى جئت لأقبل يده .

— إن أردت الخير والبركة يا بنى فلا تقبل يده وتنصرف كعادتك كل يوم ، بل ابق عنده اليوم واجلس إليه ، وتلطف فى السؤال عن حاله .
— سأفعل يا أماه وكرامة عين !

واشتاق شجاع أن يسمع ما يقول الناس عن الحادث أولاً قبل أن يدخل عند أبيه ، فخرج إلى الشارع وسمع من هذا وذاك ، فلما قضى أربه من ذلك كر راجعا إلى البيت .

ودخل عند أبيه فرأى جزعا لم ير مثله منه قط ، وشهد وجوما غريبا حتى أنه لم يرد عليه التحية إذ حياه ، وإنما مد إليه يده للتقبيل دون أن يتكلم كلمة واحدة . وأدرك شجاع ما فى نفسه فأحسن بشيء من الرثاء فى شيء من التأثم ولوم النفس ، مع شيء من الشماتة الخفية المستترة ، وخطر له — ولكن سرعان ما طرد هذا الخاطر — أن يقول لأبيه ، « اطمئن يا سيدى فإن الرسالة محفوظة عندى لم يطلع عليها أحد » .

وجلس شجاع أمامه جلسة الخادم المتهىء لأن يؤمر فيطيع ، فما لبث شاور أن نظر إليه نظرة فيها ذل وانكسار ، وفيها تنصل واعتذار ، وفيها استغاثة واستنصار ، وشجاع صامت كأنه يقول بلسان حاله : « إن بقى عندك ثقة بابنك ، فأفض إليه بذات صدرك ، فإنه يخشى أن يبدأك بالسؤال فتصدده وتكسر خاطره .

— سمعت بمحادثة ابن الخياط يا شجاع ؟

— ٢٦٨ —

— نعم يا سيدى ، أفمصرع هذا الرجل هو الذى ساءك اليوم وكدرك ؟
 — كلا يا بنى ما ساءنى ذلك ولا كدرنى .
 — ياليتك يا سيدى ما صادقت هذا الرجل ولا قربته بعد الذى جاهر .
 به من موالاة الفرنج ، وبعد أن ضربته أنت بنفسك على جاسوسيته .
 — لقد غرنى يا شجاع واستدرجنى .
 — فاحمد الله إذن إذ أراحك اليوم منه .
 — ويحك يا بنى ! إنك لا تعرف ماذا كان يحمل معه حين اغتيل
 البارحة .

— كان يحمل خنجرا .
 فأجفل شاوور وظهر فى وجهه الارتياح الشديد :
 — كيف علمت ذلك ؟
 — سمعت ذلك من الناس .. قالوا إنه قتل بالخنجر الذى كان
 يحمله .

فسرى حيثئذ عن شاوور .
 وكأنما كان لهذه الاستزابة التى استزابها ثم زالت عنه أثرها فى إزالة
 كل ما بقى فى قلبه من قلة الثقة بشجاع . فلم يلبث أن تبسط إليه غير
 متحرج ولا متحفظ فصارحه بكل شيء ، وحكى له القصة بأكملها ،
 ثم قال له فى النهاية : « أنا خائف يا بنى أن تقع تلك . الرسالة فى يد
 أسد الدين .

وتأقت نفس شجاع أن يؤنب أباه على خيائته ، ويقرعه تقرعيا فهذا
 أول مرة أمكنه فيها من نفسه إذ اعترف بخيائته ، غير أنه لم يشأ أن يفعل ،
 لأن جانب الرثاء كان قد غلب جانب الشماتة فى نفسه ، بعد ما تأيد

ذلك بسرور شجاع من صراحة أبيه . فتجدد فى نفسه الرجاء أن يرعوى أبوه عن هذه الغواية فى المستقبل ، ويلزم جانب الحكمة والسداد .

وهاله فى أول الأمر ما رأى من جزع أبيه على غير ما عهد فيه من الجلادة والثبات ولكنه عاد فعذره فى ذلك ، إذ لو كان هو مكانه ولم يكن مطمئنا إلى وجود الرسالة عنده ، لكان جزعه على أبيه أشد من جزع أبيه على نفسه . وكاد يخبره بسر الرسالة ليطمئن أولا أنه استنجد بكل ما أوتى من قوة ليثبت على الخطة التى اعتزمها من قبل فى شأن أبيه .

— إن كنت يا سيدى تخشى من جهة الرسالة فاطمئن .

— كيف ؟

— لا ريب أنها لم تصل إلى أسد الدين وإلا لما أمهلك حتى الآن ، فإنها ناطقة بخيانتك للدولة والوطن والعرب والإسلام ، فلو صدرت من صلاح الدين ابن أخيه ما أمهله .

— ربما تصل إليه بعد قليل .. لعلها فى طريقها إليه !

— كلا يا سيدى ، هذا بعيد .. لا ريب عندى أنها قد مُزقت أو أتلقت أو سلمها الملعون إلى صديق له قبل مصرعه وإلا لوجدت معه ولو وصلت إلى أسد الدين فى الحال ، فإن أحدا لا يجروء على استبقائها عنده لحظة واحدة . فليطمئن بالك من هذه الناحية ، وتب إلى الله من هذا الإثم العظيم ليتوب الله عليك ..

١٦

ومكث شاور أياما فى قلق وجزع حتى صار لا ينام ليلاً ولا يهدأ نهائياً وحتى عزم أن يهرب من البلاد قبل أن يقبض عليه ، ولكن شجاعاً منعه من ذلك وسفه له فكرة الهروب لأنها ستثير الريبة حوله ، وربما تثبت التهمة عليه ، وحيث لا ينجيه مهرب ولا معتصم إلا إذا تمكن من اللحاق بالفرنج أعداء الله ، وفى ذلك غضب الله ولعنته ، ومع ما قد يتوقع من إعراضهم عنه وسومهم إياه الخسف والهوان حين يروونه لاحقاً عندهم مهيناً لم يعد له قوة ولا سلطان فاقنع شاور بكلامه فعدل عن عزمه ، ثم أخذ جزعه يخف قليلاً قليلاً كلما مضت الأيام ولم يظهر من جانب أسد الدين ما يخشاه ، حتى أطمأن آخر الأمر وكأنما نسي كل شيء .

وأخذ يفكر حينئذ فيما يكون من أمر تلك المكيدة التى كانت موضوع الرسالة المفقودة ، هل ينفذها زعيم الخلافة فى ميقاتها ، أم يضرب عنها صفحاً .. وأحس من جديد بالرغبة فى عدم مكاشفة ابنه بما يجول فى نفسه من الخواطر والفكر ، فكتم عنه هذه المسألة بالذات ، وتجنب الخوض فيها معه من قريب أو من بعيد .

ولكن شجاعاً لم يتركها ففاتحها فيها ، فغمغم ولم يجب بجواب قاطع .
— قد كفانى الله شر هذه البلية ، فلا نفص يدي منها ، فلا شأن لى بشيء .

— كلا يا سيدى يجب أن ننذر أسد الدين بهذه المكيدة الأثيمة فربما ينوى زعيم الخلافة تنفيذها بعد .

— ويحك يا بني ! لا سبيل إلى ذلك ما لم نكشف له سر الرسالة المفقودة .

فأطرق شجاع ملياً ثم قال ، وقد تبين له صواب رأى أبيه فقرر فى نفسه أن يسلك سبيلاً آخر : « صدقت يا سيدى ، لا سبيل إلى ذلك ، ولكن فكر فى هذا الأمر ، وسأفكر أنا أيضاً العلنا نهتدى إلى حل .

أما شجاع فقد قرع عزمه على أمر فنفذه فى الحال دون أن يخبر أباه ، وأما شاور فليس يعنيه ما يعنى ابنه من سلامة أسد الدين ونجاته ، وإنما يعنيه شيء آخر يتصل بمصلحته هو لا بمصلحة أحد سواه ، فاشتاق أن يعرف ماذا ينوى زعيم الخلافة أن يفعل ، وقد اشتد به هذا الاشتياق حتى هم أن يتصل به سرّاً ليرى ما عنده ، غير أنه تخوف ، فتردد ثم أحجم .

إلى أن فوجيء ذات يوم برسول من زعيم الخلافة يخبره بأنه سيحىء لمقابلته سرا ، فليستعد للقاءه على انفراد ، دون أن يشعر بهما أحد ، فسر شاور سرورا عظيما وأخذ يستعد له ويرتقب قدومه بفارغ الصبر . واختلى الرجلان فتناجيا طويلا ، فيما كانا وفيما ينبغي أن يكونا متفقين فى آخر الأمر على أن تجرى الأمور مجراها الذى كان مرسوما من قبل دون تغيير أو تعديل ، وسيتكفل زعيم الخلافة من جهته بمكاتبة ملك الفرنج ليسرع بالقدوم .

وانسل زعيم الخلافة خارجا تحت ستار الليل فانصرف فى سلام ، ولم يكذ شاور يخلو إلى نفسه حتى ظهر له شجاع كأنما انشقت عنه الأرض ، فاجفل شاور وارتعد ثم تماسك وتجلد :

— أين كنت يا شجاع منذ قليل ؟

— ٢٧٢ —

— كنت يا سيدى خلف هذا الباب .

— ماذا كنت تصنع ؟

— كنت أتطلع وأتسمع .

فاستشاط شاور غضبا .

— ويلك ! من أذن لك بذلك ؟ كيف تجرؤ على أن تتسقط

أحاديثي ؟ أفهذا عادتك معى يا قليل الأدب ؟

— حاشاى يا سيدى أن أفعل ذلك ، ولكنى رجعت الليلة قبل موعد

رجوعى لصداع ألم بى فلمحت هذا الرجل يدخل متسللا عندك ،

فارتبت فى أمره وخشيت أن يقصداك بسوء ، فوقفت أرقبه من خلف

الباب .

— وسمعت حديثنا ؟

— نعم سمعته كله من أوله إلى آخره .

فاطرح شاور على الأريكة فبقى برهة واجما يتلون وجهه ويتمعر

— لو كنت أعلم يا سيدى أنك تريد أن تخفى هذا الحديث عنى

لسددت أذنى ووقفت أحرسك دون أن أسمع ، لقد ظنبت أنك لا تكتم

عن ابنك سرا !

— ويلك ! هذا ليس سرى بل سر غبرى ائتمنى عليه ..

— لا سر لمثل هذا الخائن يا سيدى فليطب بالك ! يجب علينا أن نبلغ

أسد الدين عنه فى الحال ..

فأطرق شاور مليا يفكر ويقدر ، ثم تطلق وجهه فجأة ، فنهض إلى

شجاع فأجلسه بجانبه وأخذ يطبطب على كتفه وهو يقول : « لله درك

يا بنى . والله ما عدوت ما فى نفسى ، لقد استدرجت أنا هذا الرجل

— ٢٧٣ —

لأكشف سره لأسد الدين ، وكان فى عزمى أن أخيرك وأخذ رأيك
ولكنك سبقتنى بهذه الطريقة التى لا أرضاها لك فأغضبتنى منك . هذا
مسلك لا يليق بولد شاور ، وإنما يأتية أولاد السفلة والرعاع » .

— ساحنى يا سيدى ، ولكن أحقاً كان هذا عزمك ؟

— نعم ، أو تشك أنت فى ذلك ؟

— لا يا سيدى ولكن ..

— اسمع يابنى .. لا تظن أنى أفعل ذلك من حبى لهؤلاء القوم ، فإنى
والله لأكرههم كره الموت ، ولكنى قد تبت إلى الله منذ نجاني من تلك
البلية وسرّ على فأردت أن أتقرب إليه بإنقاذ البلاد من شر هذه الفتنة .
فكاد شجاع يطير من الفرج .

— الحمد لله يا سيدى .. لا أحد يطلب منك أن تحبهم ، فذلك ليس
فى ملكك ، ولكن يكفى ألا يحملك شبنانهم على الإضرار بمصلحة
الدين والوطن .

— قد شرح الله صدرى لذلك يا بنى ، فالحمد لله على كل حال ..
ونهض شاور وهو يقول : « هلمّ رافقنى الآن » .

— إلى أين يا سيدى ؟

— إلى أسد الدين ...

— علام تتعب نفسك يا سيدى فى هذا الليل ؟ سأذهب أنا لأبلغه
عنك ...

— كلا يا شجاع .. لقد آليت أن أسعى إليه فأبلغه بنفسى . وتحضر
أنت معى لتصدق قولى ..

— حبا يا سيدى وكرامة ..

١٧

وأقبل يوم عاشوراء ، فأقيمت الزينات فى قصر العاضد احتفالاً بهذا العيد وبتولية أسد الدين الوزارة ، واستعد العاضد من الصباح لاستقبال أسد الدين ، وكبار رجاله عند الضحى ، ولكنه لم يشعر إلا بجنود أسد الدين قد اقتحموا القصر فى الصباح ، فقبضوا على زعيم الخلافة وأعوانه فى القصر فساقوهم معهم ، فأسقط فى يد العاضد ، وأيقن أنهم ينوون خلعه فى ذلك اليوم .

وكان قد توقع الخلع منذ زمن ، وأدرك أن القوم يتبعون فى ذلك سبيل التدرج ، لئلا يثيروا نائرة أجناده المخلصين للعرش . فقد رآهم يستولون باللين واللفظ على أملاكه وأمواله شيئاً فشيئاً بدعوى حاجتهم إلى الإنفاق منها فى مشروعاتهم الإصلاحية ، ثم أخذوا يستولون على قصوره باللين واللفظ أيضاً لاستعمالها فى مختلف الأغراض ، حتى لم يبق له غير القصرين الشرقى والغربى ، وكانوا يستأذونه قبل ذلك ، فلا يسعه إلا أن يأذن لهم ، إذ يعلم أن الرضى لن يجديه شيئاً .

ولكنه لم يتوقع أن يتم الخلع فى هذا اليوم الذى يحتفل فيه بتولية رئيسهم منصب الوزارة ، فماذا يريدون ؟ وسأل من حوله من رجال القصر فلم يجد عند أحد منهم جواباً مقنعاً ، أنرى القوم قبضوا على زعيم الخلافة لشيء رابهم منه هو ولا شأن للعاضد به ؟ ولكن ماذا فعل زعيم الخلافة ؟ إنه لم ير منه شيئاً يريب ، ولو كان عنده شيء لأخبر العاضد به ، فليس من عادته أن يكتفم عنه شيئاً .

وحار العاضد ماذا يصنع ، وشعر اليوم أكثر من أى يوم آخر أنه قد أصبح وحيداً ، لا قوة له ولا ناصر . حتى الأجناد المخلصون لعرشه قد حيل بينه وبينهم ، فلا يتصلون به ولا يتصل بهم إلا من طريق هؤلاء القوم . وكان قد ألح على أسد الدين أن يقبل ما عرض عليه من توليته الوزارة تولية رسمية ليستدرّ بذلك عطفه ، ويكتسب رضاه لعله يبقى على عرشه ، فكان يلقى ويجزع كلما تنصل أسد الدين وسوف ، فلما أعلنه بالقبول فرح فرحاً عظيماً وقوى أمله أن يضرب أسد الدين صفحاً عن نية خلعه ، ولكن حادث اليوم قضى على أمله ، وضاعف جزعه وقلقه .

ولم يجد أمامه سبيلاً غير الصبر والانتظار ، حتى يرى ما يكون من أمرهم معه . وهمّ أن يبعث إلى أسد الدين ليكلمه فى الأمر ويستوضحه ما حدث لعله ظن به سوءاً لم يقع منه فيبين له براءته وحسن نيته ، ولكنه تذكر أن أسد الدين لم يبعث فى الاعتداز عن حضور حفلة التولية فمن المنتظر بعد أن يحضر إلى القصر فى ميعاده ، فلا يستدعيه ويستعجله ؟

وإنه لفى حيرته وقلقه لا يدري ماذا يأتى وماذا يدع ، إذا بالحجاب يعلنونه بقدوم أسد الدين وصحبه فتهاً لاستقبالهم .

ودخل أسد الدين وصحبه إلى الإيوان ، كأن شيئاً لم يحدث اليوم ، فصافحوا العاضد ، ثم أخذوا بحالسهام حوله دون أن يبدو فى وجوههم أى أثر يدل على الاستياء منه أو العتب عليه . وحذا العاضد حذوهم ، فلم يلح فى وجهه أى أثر للحيرة أو القلق .

وتليت وثيقة التولية ، وهى من إنشاء القاضى الفاضل ، إذ حرص العاضد أن يتولى القاضى الفاضل كتابتها بأسلوبه مبالغة منه فى تكريم أسد الدين ، « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل المنصور سلطان الجيوش ولى الأمة الأمير أبى الحارث أسد الدين شيركوه ... »

ولما انتهى الحفل اختلى أسد الدين بالعاضد فحدثه عن المكيدة التى كان قد دبرها زعيم الخلافة لا غتياله واغتيال كبار رجاله اليوم فى القصر ، وكيف اعترف أعوانه عليه لما وُضعوا تحت العذاب . فجعل العاضد يبدى شديد أسفه ، ويلعن زعيم الخلافة ويقسم أغلظ الأيمان ما كان له أى علم بذلك ، فصدقه أسد الدين وقال له : « قد تحقق عندنا ألا يد لك يا مولاى فى ذلك ولا علم ، فحمدنا الله على كمال رضاك عنا وحاشاك أن تغدر بنا هذا الغدر .. »

— عاقبهم أيها الوزير عقاباً شديداً ولا تأخذك بهم رافة ولا رحمة .

— إنا قد وضعناهم فى السجن .

— السجن لا يكفى .

— سيُنظر فى أمرهم حين تتم محاكمتهم .

ولم يكذ ينصرف أسد الدين حتى أقبل مؤتمن الخلافة على العاضد :

— مولاى أمير المؤمنين كيف تمخضه على عبدك وخادمك زعيم

الخلافة ؟

— كاد الملعون يقضى اليوم على عرشى .

— بل كاد والله ينقذ عرشك لولا وسطاء الطالع ووشاية شاور .

— شاور !

— ٢٧٧ —

- أجل ، كان قد اتفق مع شاور فغدر به شاور .
- وكنت أنت على علم بذلك ؟
- كنت أعلم وكأني لا أعلم .
- فعلام لم تخبرني ؟
- لم نشأ أن نخلطك معنا يا مولاي ، فإن يكن النجاح فهو لك وإن يكن الإخفاق فهو علينا ..
- فسكت العاضد قليلاً ثم قال : « هذه مساع لا فائدة منها الآن وضررها أكبر من نفعها » .
- غدا يا مولاي تتاح فرص ..
- ويلك ! إياك يا مؤتمن الخلافة . إياك ..
- اطمئن يا مولاي فإني — إن فعلتها — لن أكون مثل زعيم الخلافة ..

١٨

وفرّح الناس جميعاً بتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية ، إذ رأوا في ذلك تثبيتاً لحكمه ، وتوطيداً لأركان هذا العهد الجديد ، فتوافدوا عليه مهتئين بتوليته وبنجاحاته من تلك المكيدة الأثيمة .

ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن العاضد برىء منها ، فاشتد سخطهم عليه وتساءلوا عما يمنع أسد الدين من التعجيل بخلفه بعد أن كان منه ما كان .

ودعا أبو الفضل جماعته ف عقدوا اجتماعاً بعد صلاة العشاء ، في دار الوزارة حيث صاروا يعقدون اجتماعاتهم في كثير من الأحيان ، كأنهم

قوم دعاهم أسد الدين للتشاور أو للتسامر ، فلما انتظم عقد مجلسهم ، تذكروا فى أمر العاضد فمال أكثرهم إلى وجوب خلعه فى الحال ، وعلى رأس هؤلاء أبو الفضل ، وحجتهم فى ذلك أن العاضد وإن لم يثبت اشتراكه فى المكيدة أو علمه بها فإن فى بقاء قصره وكراً للفسائس والمكاييد ما يكفى لوجوب القضاء عليه فى الحال حتى لا يتكرر مثلها فى المستقبل .

ولكن أسد الدين عارض فى ذلك متمسكاً برأيه القديم من وجوب التدرج فى خلعه لأسباب كثيرة منها اتقاء ما يخشى من ثورة الأجناد المخلصين بعد للعرش ، ومنها الحيلولة دون صيرورة مصر ولاية تابعة لنور الدين إذا تم خلع العاضد فى الحال ، ومنها لا يليق أن يخلع اليوم ، ولما يجف عهد التولية الذى كتبه لأسد الدين فلا أقل من مجاملته إلى حين .

وانتهوا بعد التناقش إلى رأى وسط يضمن ألا تحاك الدسائس فى القصر مرة أخرى ، فقرروا أن يبعد أكثر رجال القصر منه . ولا سيما أولئك الذين لا يؤمن شرهم حتى لا يبقى من حاشيته معه إلا قليل .

ومنذ نفذ هذا القرار أصبح العاضد فى حكم المخلوع لا قوة له ولا سلطان ، ولا أثر له فى شأن من شؤون البلاد ، ولا يرجع إليه فى أمر من الأمور ، حتى كاد الناس ينسون وجوده ، ولولا أن اسمه مازال يذكر فى الجوامع أيام الجمع لعداه الناس فى الموتى !

واضمحل شأن القصر ، شيئاً فشيئاً ، حتى صار كأنه سجن مهجور يقضى العاضد بقية أيامه سجيناً فيه .

واعتزم أسد الدين ذات يوم أن يرحل بنفسه إلى دمياط ليتفقد الاستحكامات التى ثم إنشاؤها لتعزيز هذا الثغر ، ولما بلغه من العصفورة أن الفرنج قد أوعزوا إلى بعض جواسيسهم فى البلاد ليقوموا بنسف المصانع التى تبنى فيها السفن على ساحل دمياط . وتدميرها خشية أن يصبح لمصر أسطول كبير يغزو سواحلهم فى المستقبل ، ويقضى على أسطولهم الذى يتفوقون به على نور الدين فلا يقررون على الوقوف أمامه بعد ذلك .

وأقام صلاح الدين نائباً عنه فى أثناء غيابه ، فأظهر صلاح الدين كفاية وحسن تدبير وسرعة فى بت الأمور المعلقة وتوفيقاً فى حل المشاكل المعقدة حتى شعر الجميع فى هذه الفترة القصيرة أنه لا يقل عن عمه بل يتفوق عليه فى كثير من الأحوال .

وفوجئ ذات عشية بتسلل العصفورة إليه ، فأحس بقلبه يدق فى صدره دقاً عنيفاً حتى أشفق أن يخونه جلده . فيقع منه أمامها مالا يرضاه لنفسه من الوهل والاضطراب . وحتى حدثته نفسه أن يعتذر عن مقابلتها لولا خشيته أن يكون لديها خبر مهم. تتوقف عليه سلامة البلاد . ومنذ رحل عمه فتاب هو منابه لم يشعر قط بثقل الأمانة التى يحملها على كاهله شعوره اليوم ، فود لو بقى عمه ورحل هو مكانه ، وعجب لذلك من نفسه فى أول الأمر ثم استهجنه منها ولامها عليه ، ولم يلبث أن استجمع قوته ورجولته فتوكل على الله وقابل العصفورة الرهيبة !

ورآها تقف أمامه مثل موقوفها أمام عمه من قبل ، ثم سمعها تحدثه
مثلما سمعها تحدث عمه من قبل دون اختلاف في الحالين .
ولم يكذب ينظر إليها من خلال نقابها الأسود وعباءتها السوداء
السابعة ويسمع صوتها الثابت المطمئن حتى سكنت نفسه بعد اضطراب ،
وهذا قلبه بعد وجيب ، وأحس كأن أخته هي التي تقف أمامه وتحدث
إليه ، فعجب من نفسه كيف داخلته تلك الهية من قبل واعتراه ذلك
الاضطراب ١٩

وكان الخبر الجديد التي جاءت به أن الجواسيس لما علموا بمسير أسد
الدين إلى دمياط قرروا تأجيل ما اعتزموه من نسف مصانع السفن إلى
وقت آخر . فقال صلاح الدين لنفسه : « هذا خير لا يستحق أن
تتجشم من أجله هذا العناء » ، ثم خطر لها أنها ربما حرصت على
إبلاغه بخشية أن يشك أسد الدين في صدق خيرها السابق ، فاستحسن
ما صنعت .

وقد ساعده سكون جأشه على التفكير في أمرها في أثناء استماعه
إليها ، فما إن أتمت حديثها وتهيأت للانصراف حتى قرر في نفسه أمراً .
وشهدت بعض شوارع القاهرة من أول الليل عباءة سوداء تدرج في
الظلام كأنها سحابة سوداء تسرى في سماء حالكة . ومن خلفها على
بعد منها سحابة أخرى أقل منها سواداً ، تسرع إذا أسرع الأولى ،
وتتمهل إذا تملهت ، وتتوقف إذا توقفت ، وتميل إذا مالت !
وكانت الأولى متوجهة في سبيل ، ثم توقفت مترددة ، فعدلت عنه
وعمت سبيلا آخر ، إلى أن وقفت أمام دار كبير ، فقرعت بابها فانفتح
الباب وانسربت فيه ثم انغلق .

وروقت السحابة الأخرى من بعيد تنظر وتتأمل ، وكأنما ضلت سبيلها بعد ما غابت أختها الهادية ، فلبثت برهة لا تدرى أين تسير ، ثم كأنما بدا لها أن تنقلب راجعة من حيث أتت خشية أن تضيع فى ظلمة السماء ، ولكنها ما كادت تتحرك من مكانها فى طريق العودة حتى سمعت حساً من ورائها فاستدارت فإذا باب تلك الدار قد انفتح مرة أخرى وأضاء وإذا السحابة الهادية قد برزت أمام الباب ، فوقفت قليلاً ثم تحركت ، وإذا خلفها سحابة أخرى أصغر منها تتبعها ، وكأنما فرحت السحابة الضالة إذ وجدت أمامها هاديتين لا هادية واحدة ، فانطلقت تقفو أثرهما وقد اطمأنت أنها لن تضل مرة أخرى حتى انتهى بها المطاف إلى دار فخمة فوقفت مرة أخرى تنظر من بعيد كأنها تخشى ألا يؤذن لها بالدخول ولو من بابها الخلفى الذى انفتح لها ديتيها فغابتا فيه .

وما ترددت سحابتنا هذه المرة ولا حارت ، بل سارت فى طريقها مسرعة لا تلوى على شىء حتى بلغت مستقرها دار الوزارة !
وبات صلاح الدين ليلته ساهراً يفكر فى العصفورة : من تكون ؟
لقد اهتدى إلى عُشِّها الأول ، ثم إلى عشها الثانى ، وكلاهما معروف لديه فمن تكون ؟

وكانت المشكلة فى الحقيقة يسيراً حلها على صنادق فراسته وثاقب فطنته ، ولكنه مكث يدور حولها ويعقدها على نفسه ، كأنما يشتهي ألا يهتدى إلى حلها سريعاً ، ولا يدري لماذا تذكر عمه عند ذلك وتذكر كلماته التى قالها له من قبل : « هذه عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى ! » .

قد عرفتُ الآن من تكون .. لا شك عندى الآن أنها هى ! ...

— ٢٨٢ —

ولكن من أين تستقى هذه الأخبار ؟ وماذا يحملها على سلوك هذا المسلك العيب ؟ أليس فى وسعها أن ترسل بها إلينا دون أن تتجشم هى هذا العناء وتحتمل هذا الحرج ؟ إنها تعلم أن أباه صديق لنا ، فلم لا تخبره هو ليلفنا ما تريد ؟ وزوجها هل يعلم زوجها بصنيعها هذا أم تقوم به من وراء علمه ؟ وأخذت هذه الأسئلة وأمثالها تضطرب فى رأس صلاح الدين فشغلته عن النوم بقية ليلته .

٢٠

ولما رجع أسد الدين من رحلته إلى دمياط لم يجد صلاح الدين بُدًا من إخباره بما صنع مع العصفورة ، فغضب أسد الدين غضبا شديدا ، وطفق يلومه ويعنفه ، وصلاح الدين يهدئه ويعتذر إليه ، فلا يسمع له كلاما ولا يقبل له عذرا :

— ويلك ! كيف طوعت لك نفسك نقض العهد ؟

— لست أنا الذى قطعه يا عمى ولست أنت الذى نقضه .

— ويلك هذه شاورية لا أرضاها لنفسى ! ما أقطع من عهد فانت ملزم به .

— قد علمت يا عمى أن هذا سيفغضبك ، ولكنى خشيت يومئذ أن تطير هذه العصفورة عنا يوماً فلا تعود إلينا أبدا فتضيع منا فرصة الاهتداء إلى الخائن الذى يتعاون مع العدو فى قلب البلد ..

— فهل اهتديت الآن إليه ؟

— نعم هذا شاور ...

— ٢٨٣ —

ولم يستبعد أسد الدين هذا من شاور . غير أنه تردد قليلا إذ ذكر أن شاور قد أفشى له سر المكيدة التى دبرها زعيم الخلافة ، فكيف يتفق ذلك مع استمراره فى الكيد أو الخيانة ؟

فلما سمع صلاح الدين ذلك قال لعمه : « إن صح ظنى فيه فإنه أراد التمويه علينا بما فعل حتى يبعد الشبهة عن نفسه ! » . فقال أسد الدين : « والله إن هذا لمعقول ! » .

ثم أخذ صلاح الدين يشرح لعمه كيف استتج أن الذى يتعاون فى البلد مع العدو هو شاور ، وأن العصفورة وزوجها يراقبانه ويحصيان عليه . ويتسقطان الأخبار منه ، حتى اقتنع أسد الدين بصحة ما ذهب إليه . — إذن فزوجها هو الذى يبعثها إلينا بالأخبار ؟

— نعم ، لا ريب عندى فى ذلك . يريد أن يؤدى واجبه نحو الدولة ولا يريد أن يكشف خيانة أبيه ..

وظف أسد الدين يستعرض فى ذهنه سيرة شجاع منذ عرفه أول مرة فى بلبيس ، إذ جاء رسولا من ضرغام إليه وإلى شاور ، وكيف قاد فرقة الموت فيها بعد ذلك . ثم حاول الإصلاح بينه وبين أبيه ، وفى أطفح إذ قدم إليه محاولا جمع كلمته وكلمة شاور على الفرنج ، وفى الصعيد كيف بعث إليه يندره بعزم أبيه وحلفائه على محاصرة الإسكندرية ، وكيف كان الساعى بعد ذلك لعقد اتفاق الإسكندرية ، وكيف زالت دولة أبيه فما ثناه ذلك عن التطوع فى تدريب حى العسكر حتى اليوم ، فما وسع أسد الدين إلا أن يستصوب رأى ابن أخيه .

— وماذا علينا أن نصنع الآن يا يوسف ؟

— الرأى لك الآن يا عمى وقد عدت .

— ٢٨٤ —

- كلا .. قد خالفت أمرى فى البداية ، فامض فى هذا الشأن إلى غايته . التبعة كلها عليك .
- إن كنت تريد رأى ، فلنستدع إلينا شجاع بن شاور لنكاشفه بالحقيقة .
- وأبو الفضل ؟
- سنخبره قبل ذلك وندعوه ليسمع معنا كلام زوج ابنته .
- أجل ، لابد من حضور أبى الفضل .

٢٩

كان شجاع منهمكا فى عمله بمركز التدريب فى حىّ العسكر كعادته كل يوم ، إذ جاءه رسول فأخبره أن أبا الفضل يستدعيه فى ديوان الوزارة ليكلمه فى أمر هام ، فاستأناه شجاع حتى ينتهى من بعض عمله ، ولكن الرسول أكد له أنه مطلوب فى الحال ، فترك ما بيده ومضى معه .

ولقيه أبو الفضل فاخترلى به برهة كاشفه فى خلالها بكل شىء . ثم أخبره أن أسد الدين سيستفهمه ويستجليه ، فعليه أن يقول له الحقيقة كاملة ، وقال له : « لا تخف يا شجاع فإن أسد الدين يحبك ويعزك ، ويقدر فضلك وإخلاصك ، وعسى أن تشفع إليه فيشفّعك فى أهلك .

وارتاع شجاع فى أول الأمر إشفاقا على أبيه ، ولكنه لم يجد بداً من مواجهة الأمر ، فتجلد وتحمل ، وكان لكلمات أبى الفضل أثرها الجميل فى تثبيت قلبه .

ثم دخل به أبو الفضل عند أسد الدين ، فإذا هو جالس فى حجرته الخاصة ، وليس عنده غير صلاح الدين ابن أخيه ، فنهضا لشجاع ورجبا بمقدمه وأكرما بمجلسه ، ثم أخذ أسد الدين يلاطفه ، ويباسطه ويسأله عن حاله وحال أبيه ، ويثنى على تطوعه فى تدريب شباب حى العسكر حتى سكن شجاع واطمأن .

- لعلّ أبا الفضل قد بين لك يا شجاع لآى شىء دعوناك اليوم ..

- نعم يا سيدى . قد كاشفنى الساعة بذلك .

- إنا لا نريد أن نؤذيك يا شجاع أو نؤلمك .. ولكن هذا أمر خطير يتعلق بسلامة الدولة ومصلحة العرب جميعاً ، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ فهل أنت معينى يا شجاع على كشف الحقيقة بما عندك من علم ؟

· وارتج على شجاع لحظة وجعل يغالب عيرة تفرق فى عينيه ، ثم قال بصوت متهدج : « نعم يا أسد الدين سأفعل ما تريد » .

- هل كان شاور حقاً هو الذى يتعاون فى البلد مع العدو أم شخص سواه ؟

- بل هو يا سيدى ، واحسرتاه !..

وهنا ستر وجهه بيديه ، وانفجرت دموعه تسيل على خديه ، فدنا منه أبو الفضل فلف ذراعه حول ظهره يسكنه ويواسيه ، وضلوعه تعلو وتهبط بشدة كأنما تريد أن تتقصص .

واغرورقت عينا أسد الدين بالدمع ، رثاءً له وعطفا عليه ، فبقى برهة طويلة واجما لا يدرى ما يقول .

— ٢٨٦ —

وأدركت الرقة صلاح الدين أيضاً إلا أنه استطاع أن يجتلد حين رأى
عمه قد عجز عن الكلام ، فقال : أما كان جديرا بك يا شجاع أن تبلغ
عنه في الحال ولا تنتظر حتى ينكشف لنا أمره ؟
فتقلص دمع شجاع ورفع رأسه قائلاً : « وقد بلغت عن أعماله
ومكايده في حينها .

— ولكنك تسرت على شخصه .

— ألا تعلم يا صلاح الدين أنه والدى وأننى ولده ؟

— إن الأمين لا يتولى الخائن وإن كان إياه .. !

— هذا كلام تقوله في السعة يا صلاح الدين . لو ابتليت أنت بمثل
هذه المحنة لكان لك قول آخر ، ولما كان عملك خيراً من عملي بحال ...
وكأنما أشفق أسد الدين أن يحتدم الحوار بين هذين الشاين فيقع ما
لا تحمد عقباه . فاجتذب هو عنان الحديث وقال : « على رسلك يا
يوسف ، والله لقد صدق شجاع . إنها محنة قاسية . أنا نفسى لا أعلم
ماذا كنت أصنع لو كنت مكانه ، وربما لا أجد القوة على التبليغ حتى
عن عمل والدى بخشية أن يتكشف أمره من جراء ذلك » .

فلان شجاع حين سمع ذلك فقال : « حاشاك يا أسد الدين ! حاشاك
أنا والله أردت أن أزكى نفسى ، وإنى لمعترف بتقصيرى ولكن ...

— امض فى حديثك يا بنى .. استمر ..

— ولكنى كنت أشفق أن يقتل أبى على الخيانة فلا ترجى له توبة أبدا ..

وأنوء أنا بالمدلة والعار ما حييت .

— كلا يا شجاع ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر

أخرى ﴾ ؟

— ٢٨٧ —

— بلى يا سيدى ، ولكنى كنت أحبه حبا لا يد لى فيه ، وكنت أطمع دائما أن يهديه الله فيتوب من سوء عمله ويتوب الله عليه .

والآن أمازلت تطمع فى توبته ؟

— نعم يا سيدى ، إذا أعتمونى على ذلك .

— ماذا تريد منا أن نصنع لك ؟

— أن تغفوا عما سلف منه إذا أنا أقنعت بالرجوع إلى صوابه . فأطرق

أسد الدين قليلا ثم قال : « والله إن ذلك ليسرنا من أهلك يا شجاع ، ولكن هل تضمن أنت ذلك ؟ » .

— إننى سأبذل غاية جهدى . وعندى أمل كبير ، فليس هو بمفطور

على الشر ، وإنه لسخى كريم اليد ، ولكنه رجل ذو أنفة وكبرياء ،

وقد استمرأ لذة الحكم قديما . فعز عليه أن يفطم منها وهو يشكو أنكم أهملتموه واطرحتموه .

ولم يستطع صلاح الدين أن يصبر فقاطعه قائلا : « هو الذى دفعنا

إلى ذلك ، فقد أهملناه كما أهملنا أمثاله برهة كافية ليظهروا تعاونهم

معنا فما وجدنا منه غير النكوص والازورار ، وها هوذا يتبين اليوم أنه

يمالىء العدو على بلاده وأمنه » .

— مهلا يا ابن أخى ، دعه يتم حديثه ..

— لقد صدق ابن أخيك يا سيدى وقال الحق .. ولكن لا بأس أن

تجاهلوه قليلا فترضوا غروره وكبرياه ، لعل ذلك يحيل بقلبه إليكم فيثوب

إلى سبيل الرشد .

— اقترح علينا كيف نجامله ؟ نوليه منصبا رفيعا فى الدولة ؟

— ٢٨٨ —

— لا يا سيدى .. لا ينبغي أن يتولى شيئا .. حسبكم أن تدعوه إلى زيارتكم وتستشيروه فى بعض الأمور و ..
— وماذا يا شجاع ؟

— وحبذا لو تفضلتم فزرتكموه فى بيته ، فإن ذلك سيفرحه كثيرا ،
ويزيل ما فى نفسه .

وتكلم أبو الفضل حيثذ فقال : « أجل يا أسد الدين ، إن شاور
يحب إقامة الولايم ، فأرى أن تلبوا دعوته إلى وليمة عنده » .
قال أسد الدين : « لا مانع عندنا من ذلك ، فليدعنا » .
فتهلل وجه شجاع سرورا ونهض قائلا : « هل تأذنون لى الساعة
لأنطلق إليه فأبشره » ؟

قال أسد الدين فى مرحة ودعابته : « اذهب يا شجاع وقل لأبيك
يكتر لنا من اللحم ، لحم الضأن ، فإننى مشتاق إلى أكله » .
— تذكر يا عمى أوامر الطبيب ..

— ليذهب الطبيب إلى الجحيم .. لقد كفى ما جوعنى هنا ، أفيمنعنى
من أكله هناك ؟ اذهب يا شجاع ، قل له يكتر من اللحم لأعوض ما
فانى ..

وانصرف شجاع وهو يضحك ..

— ألا تنصح عمى يا أبا الفضل فى اللحم فإنه يضر صحته ويضاعف
علته .

— لا تصدقه يا أبا الفضل فإنه يريد أن يأكله وحده من دونى .
— أجل يا أسد الدين ، اقتصد فيه وأطع الطبيب ومتعنا بنفسك .

— ٢٨٩ —

— لو قد أطعت الطبيب يا أبا الفضل لما وجدتني اليوم حيا أرزق ..
هذا يريد ألا أذوق اللحم ألبته .

فقال صلاح الدين : « سبحان الله ! أنت أعرف بالطب منه » ؟
— نعم .. أنا أعرف بطب نفسى ، والله ما أورثنى العلة أكل اللحم
كما يزعم ، ولكن طول قعودى عن قتال الفرنج !

٢٢

وبلغ شجاع المنزل ، فانطلق مسرعا إلى أبيه فقص عليه كل ما
يرضيه مما دار بينه وبين أسد الدين ، وطوى عنه مالا يرضيه ، فسر
شاور ، ولم يكذب صدق ما يسمع .

— أتقول إنه سيدعونى ويستشيرنى ؟
— نعم .. وسيزورك ويأكل عندك إذا أولمت له . ولقد قال لى :
« قل لأبيك يا شجاع يكثر لنا من اللحم لحم الضأن ...
— إذن والله لأعملن له وليمة يتحدث عنها الصيادون فى رشيد ،
والفخارون فى أقصى الصعيد !

ولم يملك شجاع نفسه من الفرح أن انطلق إلى أمه فبشرها ، ثم
صعد إلى سمية فحكى لها ماجرى من أوله إلى آخره ، فاغتمت سمية فى
أول الأمر ، وشق عليها أن ينقض أسد الدين العهد الذى بينه
وبينها ، ثم تذكرت أن صلاح الدين هو الذى قابلها آخر مرة إذ كان
عمه غائبا فى دمياط ، فألقت التبعة عليه . ولكنها لما رأت زوجها لا
يكثر لذلك ، بل رآته مسرورا بما حدث مستبشرا به ، يرجو من
ورائه أن يصفو الجو بين أبيه وبين رجال العهد الجديد ، فيكف عن
سيرة شجاع

اللس عليهم والكيد لهم ويتعاون معهم على ما فيه مصلحة البلاد ، ما وسعها إلا أن تشاركه فى فرحه واستبشاره .

وجاء أبو الفضل يزور شاور فأكد له ما سمع من شجاع ، وأخبره أن أسد الدين يرجوه أن يتفضل بزيارته ، فذهب شاور معه إلى دار الوزارة ، حيث استقبله أسد الدين مرحبا محتفيا وأكرمه وعظمه حتى تهلل وجه شاور وانبسطت أساريره .

وجرى بينهما تعاتب طويل ولكنه جميل انتهى بأن أعتب كلاهما الآخر ، واتفقا على أن يتناسيا ما فات ويستأنفا بينهما المودة والصفاء والتعاون على ما فيه خير البلاد .

وفى خلال هذا التعاتب جرى ذكر شجاع ، وكيف أنهم لم يسندوا إليه منصبا مع كفايته وإخلاصه ، فاعتذر أسد الدين بأن ذلك لم يكن من إهمال متعمد بل كان من سهو غير مقصود ، وإنه يختار له اليوم منصب قائد فرقة الجيش المصرى الجديد لأنه أولى الناس بهذا المنصب . فرضى شاور وشكره .

وكان لطلاقة أسد الدين ومرحه ودعابته وطيبة قلبه ، أحسن الأثر فى تهينة هذا الجرو الودى السعيد .

وقد بلغ من هشاشته وصفاء قلبه أن أشار هو إلى الوليمة التى يطعم أن يقيمها شاور له حتى ضحك شاور وقال : « ويحك يا أسد الدين ! إني قد جئت والله لأدعوك إليها فأبيت إلا أن تسبقني » .

قال له أسد الدين : « ما يدرينى يا أبا شجاع ألا تنصرف من عتدى دون أن تدعوني إما نسيانا منك أو بخلا . وأنا قد منيت نفسى بلحم أكله عندك على رغم ذلك الطبيب المأفون الذى يمنعنى منه ، وابن أخى هذا الذى يخطفه منى ويأكله دونى » .

فضحك شاور طويلاً ثم اتفق معه على تحديد يوم الدعوة بعد غد ذلك اليوم . وانصرف من عنده ضاحكاً مسروراً ، وأقبل على ابنه فيشره بمنصبه الجديد .

وأخذ شاور يستعد للوليمة ويحتشد لها بكل ما عرف عنه من سخاء وكرم فدبت الحركة في بيته كما دبت فيه هو روح الهمة والنشاط .

٢٣

وما أشرق صباح يوم الوليمة حتى تم إعداد كل شيء ، فأخذ شاور يطوف بنفسه على المطبخ ، وعلى قاعة الطعام ، وبهو الاستقبال ، ويلقى أوامره ووصاياه على الطباخين والفراشين والنذّل ، وغيرهم من سائر خدمه وعبيده .

وكان شجاعاً مبتهجاً أشد الابتهاج ، يسعى مع أبيه تارة ، ويتفقد وحده تارة أخرى ، ويصعد حيناً إلى زوجته ووالدته ليطلب منهما شيئاً أو يحادثهما بما تم إعداده ، وينزل حيناً إلى جواده (أدهم) كعادته كل يوم ليتفقدّه ويطمئن على غذائه وشرابه .

وإنه لفى الأسطبل واقفاً أمام جواده يداعبه ويناغيه ويمسح عرقه ومثنه إذا سُمِّيَ قد أقبلت مسرعة إليه ، فأخذت تتلفت حولها لتستوثق أن المكان خال إلا منهما ، ثم أخبرته نبأً عظيم ، لم يكده يسمعه حتى ذهل واصفر وجهه ووقف هنيهة حائراً لا يدرى ما يفعل ، ثم قال لها : « سأصعد إليه الآن وأصارحه بالأمر حتى ينتهى عن فعلته » .

قالت : « أليس خيراً من هذا أن تكفى بإنذار أسد الدين » ؟

— كلا يا سمية لا بد أن أنذره هو أولاً وأهدده ..

وصعد شجاع مسرعا إلى غرفته فأخذ خنجره ودسه فى وسطه ثم نزل يلتمس والده فوجده واقفا فى قاعة الضيوف ، وعنده عبده الجديد ياقوت كأنه يساره ويناجيه ، فلما رأى شجاعا أجفل ، فلم يبق عند شجاع شك فى صدق ما أخبرته سمية ، فدق قلبه دقا عنيفا ولكنه تجلد :

— هل لى أن أكلمك يا سيدى على حدة ؟

فنظر شاور إليه فى ارتياب ثم نظر إلى ياقوت نظرة ذات معنى .

— دعنى الآن يا ياقوت ولا تذهب بعيدا فسأحتاج إليك وإلى

الآخرين .. أوصد الباب خلفك ...

فخرج ياقوت وأوصد باب القاعة خلفه .

وجلس شاور على إحدى الأرائك ونظر مرة أخرى يتفرس وجه

شجاع ..

— هات الآن ما عندك يا بنى .. خير إن شاء الله .

— أى خير وأنت تدبر هذه الغدرة التى يستنكف من ارتكابها حتى

قطّاع الطرق ؟

فصعق شاور من هول ما سمع .

— ويليك ماذا تقول ؟

— لا تحاول الإنكار فقد علمت كل شىء ...

— ماذا علمت ؟

— إنك تدبر مكيدة لأسد الدين ورجاله .

فتكلف شاور الابتسام وهو يقول : « ويحك يا بنى ! ترانى قد

اصطلحت معهم وترانى أقيم لهم هذه الوليمة الفاخرة ثم تظن بى هذا

الظن ؟ » .

— ما أقمت هذه الوليمة إلا لتغتالهم وهم على ما تدتك !

— ويليك ، من ذا لفق لك هذه الفرية المضحكة ؟

— ٢٩٣ —

— لفقها لى ياقوت !

— ياقوت .

— أجل ، ما يعلم بهذا السر غير ياقوت . هذا العبد الخبيث الذى
اصطفيته وقربته واتخذته نجيك دون أهلك وولدتك ..

— كذبت يا وغد ، بل كنت تتجسس على .. تتجسس على أهلك ..

— أجل ، إن من نكد الدنيا على أن يكون أبرّ عمل أقوم به لدينى
ولوطنى هو التجسس عليك لأحول بينك وبين جرائك وفواقر .
فاستشاط شاور غضباً ومد يده فلطمه لطمه عنيفة .

— أى جرائك يا وغد ؟ وأى فواقر ؟

— الطمنى واضربنى يا سيدى ما شئت ، وسبنى واشتمنى ما شئت ،
فوالله إن ذلك لا يغضبنى منك لو كنت وفيًا لا تخون بلك ولا أمتك .

— احسأ ياوغد ... لا يقول هذا عنى غير أعدائى ..

— من هم أعدائك ؟

— أولئك الذين اغتصبوا حقى ..

— هؤلاء لا يعرفون خيانتك مثلما أعرفها أنا ابنك !

— كلا ، لست ابنى بل أنت عدوى .

— وماذا جعلنى عدوك وقد كنت أحبك إلا خيانتك ؟

— اكفف عن ذكر الخيانة ياوغد ، فما أنا خائن !

— ومراسلاتك للملك الفرنج واتصالاتك بجواسيسه . ألا تعد ذلك

خيانة ؟ حنانيك يا سيدى ! إن أعدائنا الفرنج قد أصابهم الهلع لما قام
هذا العهد فى مصر وأيقنوا ألا بقاء لهم فى بلاد الشام ولا فى غيرها من
الوطن العربى إذا بقى هذا العهد ، وقد أيسوا من القضاء عليه بالقوة ،
فلجأوا إلى المكاييد والدسائس فكيف ترضى لنفسك أن تكون لهم مطية ؟

— ٢٩٤ —

- كلا ، هذا باطل كله ولا يستطيع أحد أن يثبت على شيئاً .
- اعلم إذن أن الرسالة التي وقعتها مع زعيم الخلافة محفوظة عندي .
- فنظر إليه شاور نظرة هائلة :
- أنت إذن ..
- أجل ، أنا قتلت صاحبك الخائن ابن الخياط لأنقذك وأنقذ البلاد .
- أين الرسالة ؟ هاتها ...
- هيهات لأسلمتها اليوم إلى أسد الدين ما لم تنفذ ما أقترح عليك .
- ماذا تريد ؟
- اصرف هذه العصابة التي أحضرتها اليوم لتستعين بها على تنفيذ مكيدتك .
- ويلك ! هؤلاء صنائعي الذين كانوا في خدمتي ، فظلموا في هذا العهد من أجلي ، وقد دعوتهم لشهود الوليمة عرفانا مني لجميلهم .
- هذه وليمة أسد الدين ، فادع هؤلاء إلى وليمة أخرى إن شئت ،
- واطرد الساعة ياقوت ومن معه من عبيدك الجدد ...
- ومن يقوم على خدمة الضيوف إذا جاعوا ؟
- أنا وميمون وباقي الخدم ...
- أصبحت تأمرني يا شجاع وتنهاني ؟ لا بأس .. سمعاً وطاعة .
- وصفق شاور فدخل ياقوت وثلاثة من رفاقه العبيد الجدد ، فصاح بهم شاور : « اقبضوا على هذا الولد العاق » .
- فتردد العبيد لحظة ، واستل شجاع خنجره ، وصاح في وجه أبيه قائلا : « إن تحرك منهم أحد ، أغمدت هذا الخنجر في صدرك مرهم أن يرموا أسلحتهم هناك في الأرض وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأقتلك !
- أطيعوا هذا المجنون ..

— ٢٩٥ —

وما كاد العبيد يطيعون أمر سيدهم حتى دخلت سمية فجأة فالتقطت
مارموه من الخناجر والمدى ثم خرجت من حيث دخلت .

وتمتم شاور في غيظ : « بنت أبى الفضل !
فأجابه شجاع متمما : « بل زوجة شجاع بن شاور » !
ومرت ساعة حرجة !

— مر هؤلاء أن يغادروا الدار الساعة ..

— ما ذنبهم يابنى حتى تطردهم ؟

قال شاور ذلك وأهوى بضربة شديدة على يد شجاع فسقط الخنجر
منها ، فأسرع ياقوت فالتقطه .

وكانت سمية قد رأت حرج الموقف وأشفقت أن يستنجد شاور
برجاله الآخرين ، فأسرعت إلى خالتها زبيدة ، فحزّت يدها لتنزل معها
قائلة : « الحق ابنك شجاعا فإن أباه قد أمر رجاله بقتله » .

فنزلت زبيدة تهوول من أعلى الدار وسمية تتقدمها ، فلما دنتا من
القاعة رنّ في أذنهما صوت شاور صائحا في غضب « اقتله ياقوت !
أسرع » ثم صوت ياقوت : « تذكر يا سيدى أنك أنت الذى أمرتنى .
فاندفعت سمية إلى الباب كالسهم فوجدت العبد قد طعن زوجها .
فترنح ثم خر على الأرض ، وشاور يصبح : « أجهز عليه يا ياقوت »
ولكن العبد لم يجب إلا بصيحة عالية إذ طعنته سمية من خلفه فى عنقه
فسقط على الأرض يخور كالثور الذبيح ، ولم تتركه كذلك بل انهالت
عليه طعناً فى صدره وحلقه ووجهه حتى برد .

وأذهلت المفاجأة شاور وعبيده الثلاثة ، فاضطربوا قليلا ثم همّوا أن
يفعلوا شيئا . لو لم تدخل زبيدة حيثئذ مولولة صائحة : « ماذا فعلت
يابنى يا شاور ؟ قتلت ابنى يا شاور ، قتلت يا عديم الرحمة !

فارتعد شاور حين رآها . وجف حلقه وتعثرت الكلمات فى لسانه وهو يقول : « إنه أراد أن يقتلنى يا زبيدة » .

ولم تسمع زبيدة لكلامه ، فقد انطرحت على ابنها الصريع فى الأرض تحتضنه وتحوطه وتبلل وجهه بدموعها وهى توسعه لثما كأنما تريد أن تعتمر ما بقى من أريجه قبل أن تفارقه الحياة ، وإلى جانبها سمية وهى تسدّ بكفها موضع الطعنة من جنبه لتمنع انبثاق الدم منه .

واقترب شاور فى ذلة وخجل ، فصاحت زبيدة فى وجهه : « ابتعد عنى يا مجرم ، أتريد أن تجهز عليه ؟ . أنت أقسى علىّ من ضرغام .. لقد أبقى عليه ضرغام فقتلته أنت .. اغرب من وجهى » .
— أريد أن أساعدك يا زبيدة .

— كلا ، لا أريد مساعدتك ...

وكان ميمون وسائر خدم الدار قد دخلوا إذ ذك فوقفوا ينظرون حائرين لا يدرون ماذا يصنعون .. إلى أن صاح بهم شاور : ويلكم ! ساعدوا مولاتكم ... احملوا سيدكم إلى حيث تأمركم » .

فحملوا شجاعا بين أيديهم وسارت أمه وزوجته حتى صعدوا به إلى غرفته . أما زبيدة فقد أذهلها الخطب ، فصارت كأنها لاتعى ماذا تفعل ، وأما سمية فقد طفقت تمسح الدم عنه ، وتسد جرحه بالقطن والخرق ، وقد أرسلت ميمونا لينطلق إلى أبيها ليخبره الخبر ويحضر معه الطبيب .

وبقى شاور فى القاعة برهة لا يدرى ما يفعل ، فقد ملكت الحيرة عليه كل مذهب حتى خيل إليه أنه قد شل عن التفكير وعن الكلام ، وعن الحركة . ووقف عبيده الثلاثة حوله لا يدرون أيضاً ماذا يصنعون ، وهم ينظرون إلى جثة رفيقهم ملقاه بين أيديهم . كأنها متاع لا يؤبه له .. إلى أن دخل عندهم أولئك الرجال الذين أحضرهم شاور

من صنائعه ليشهدوا الوليمة وليستعين بهم على تنفيذ مكيدته فتعجبوا مما شهدوا إذ لم يكونوا قد علموا بعد بما دعاهم شاور من أجله .
فلما رآهم شاور استيقظ من غفلته فأمرهم بالانصراف إلى بيوتهم لئلا يلحقهم أذى وأن يكتموا ما شهدوا فلا يتحدثوا عنه إلى أحد ، فانصرفوا واجمين .

وأعمل شاور حينئذ فكره وهو يذرع القاعة جيئة وذهوباً ، ويمر بجانب جثة العبد القتل فلا يلتفت إليها من شدة استغراقه فى الفكر ، إلى أن اهتدى ألا سبيل أمامه غير الفرار ناجياً بنفسه قبل أن يرسل أسد الدين من يقبض عليه . فقد أيقن أن الخمر سيلغيه وشيكاً . فالتفت إلى عبيده ، وأمرهم أن ينطلقوا فيسرجوا له جواده فى الحال ، وانطلق هو فارتدى ثياب سفره وتقلد سلاحه ، ونزل مسرعاً إلى حيث ينتظره عبيده فى فناء الدار . فما راعه إلا كوكبة من الفرسان قد أقبلوا فأحاطوا بداره ثم اقتحموها من كل باب ، فأيقن ألا أمل فى الفرار من أيديهم فاستعد للقائهم ومنازلتهم حتى يُقتل ، إلا أنه أشفق آخر الأمر على زوجته أن تزعجها جلبلة الصدام والقتال وهى فيما هى فيه فاستسلم لهم قائلاً :

« خذونى إلى حيث تشاءون ولا تحدثوا ضجة تزعج أهلى ، فكفى ما هم فيه » .

وإذا أسد الدين وصلاح الدين وأبو الفضل يدخلون ، فزوى شاور وجهه عنهم خجلاً ، فقال أسد الدين لابن أخيه : « خذ معك يا يوسف حتى نرى رأينا فيه » .

ثم صعد أسد الدين ومعه طبيبه يتقدمهما أبو الفضل وأمامهم ميمون حتى انتهوا إلى غرفة شجاع ، وكانت أمه قد انسحبت إلى حجرتها

— ٢٩٨ —

حين علمت بقدمهم ، فما وجدوا عنده غير سمية واقفة على رأسه وهو
طريح الفراش يئن أنيناً خافياً .

فوقفوا حوله ، وطفق الطبيب يفحصه ، وكان الدم لا يزال ينزف
من جرحه من خلال الضماد الذى عملته سمية ، فأخذ يغسل الدم
وينظف الجرح ويطلبه بمرهم أحضره معه ، ثم أحكم ضماده وربطه ،
وبعد ما فرغ من ذلك أفرغ له شرباً فى قدح فأوجره له .

وانتظر قليلاً فإذا شجاع يصحو صحوً فينادى : « سمية ! سمية ! »
— نعم يا حبيبى ...

— الرسالة التى عندك يا سمية .. « مزقيها .. مزقيها » . لا تدعى
أحدًا يطلع عليها .. وما لبث أن عاد إلى غيبوبته ...
فتعجب الحاضرون من كلامه ، والتفت أبو الفضل إلى سمية ،
فأسرت إليه بالخبر ، فأمرها بإحضارها ، فترددت سمية قليلاً ثم قامت
إلى خزانة ثيابها ، فأخرجت الرسالة منها فسلمتها لأبى الفضل فجعل
يتصفحها ، ويريها لأسد الدين ، فيحرك رأسيهما متعجبين . ثم
طواها أبو الفضل ودسها بين ثيابه وهو يقول لابنته بصوت خافض :
« قد مزقتها أنت ياسمية ! »

ثم تحرك شجاع مرة ثانية وفتح عينيه ، ففرحت سمية وأقبلت عليه :
— أين أنا ياسمية ؟ وأين أسد الدين ، هل أصابه شيء ؟

— لا يا حبيبى .. ها هو ذا بين يديك ..

— هأنذا يا شجاع ، ألا تعرفنى ؟

— الحمد لله على سلامتك ونجاتك .

— وأنا يا شجاع ألا تعرفنى ؟

— أبو الفضل ... الحمد لله ... أنت أيضاً سلمت ...

— ٢٩٩ —

ثم تغير وجهه وبدا فيه كالحجل وهو يقول : « وماذا صنعتُم يا أسد الدين بشاور ؟

فتردد أسد الدين قليلا لا يدرى كيف يجيبه .
— هل ..

— إنا قد قبضنا عليه يا شجاع لئلا يقتلك ...
— إنه لم يرد أن يقتلنى .. فالذى طعننى هو ياقوت العبد ، وقد انتقمتم لى سمية منه فقتلته . أرايت يا أبا الفضل كيف نفع اليوم تدريسى لسمية ؟

— صدقت يا بنى ، قد رجعت عن رأى إلى رأيك ...
— وشاور يا أسد الدين ، ماذا أنتم صانعون به ؟
— سننقله لك إذ عوفيت ، وإلا اقتصصنا منه لأنه هو الذى أمر ..
— كلا لن أموت ، سأشفى حالا إن شاء الله .. إنها طعنة يسيرة .
— نرجو ذلك يا شجاع ...
— إنى لا أريد أن أموت حتى أرى الكنائس تنطلق من مصر لتحرير بلاد الشام من سلطان العدو الدخيل .
— سترها وتشهدها إن شاء الله .. وثقود الجيش المصرى الجديد بنفسك ..

— الجيش الجديد ... معذرة يا سيدى لقد كنت أريد أن أشكر اليوم إذ عينتنى قائداً له .. ولكن ...
ولم يتم كلمته إذ تأوه من ألمه ثم ما لبث أن أغمض عينيه وغاب عن وعيه من جديد ..

واقترح الطبيب أن يتركوه وحده ليسترىح ، فخرجوا من عنده ودخلوا حجرة أخرى مجاورة ليؤدوا فيها ما وجب من صلاة العصر .

— ٣٠٠ —

وعادت زبيدة فأخذت سمية تسارها بما شهدت فاطمآن قلبها قليلا وبدأ في وجهها بريق الأمل .

وكان أسد الدين شديد القلق على شجاع . فما إن سلم من صلاته خلف أبى الفضل حتى التفت إلى الطبيب عن شماله فعزم عليه أن يصدق ما رأى من حالة شجاع ، فأجابه الطبيب بأن الأمل فى نجاته ضعيف لكثرة ما نزع من الدم . ولأن الطعنة قد نفذت إلى جوار القلب ، فاكثأب أسد الدين وأصابه وجوم .

أما أبو الفضل فمتجلد لا يظهر عليه غير القليل من الأسى ، وهو يحدث جليسيه بأشياء مما يعرف عن سيرة شجاع فى مختلف أطوار حياته والطبيب يستمع فى شغف واهتمام وأسد الدين ساكن كالمذهول لا تتحرك منه جارحة إلا حين يمسح الدمع عن مقلتيه الفينة بعد الفينة . وبينما هم كذلك ، إذ أقبل ميمون فأخبرهم أن شجاعا يطلبهم ، فنهضوا من مجلسهم بين الوجل والأمل حتى عادوا إليه فوجدوه شاحبا كالقرطاس ونفسه يتردد متلاحقا ، كأنه يجود بنفسه ، فنظر الطبيب إلى أسد الدين كأنه يقول له : إنه فى النزاع ! » .

ووقفوا ينظرون إليه لا يجرو أحد منهم على الكلام ، وأحس بهم شجاع بعد لأى فقال بصوت ضعيف : « تعال ، ادن منى يا أسد الدين ، وأنت يا أبا الفضل .. ومن هذا الذى معكما ؟ » فأجابه أبو الفضل : « هذا طبيب أسد الدين قد جاء به ليعالجتك » .

— هو الذى عمل لى هذا الضماد ؟

— نعم ...

— جزاك الله خيرا أيها الطبيب وإن حم القضاء فلم تكن لك معه

حيلة !

فقال أسد الدين فى حنان : « إنك بخير يا شجاع ، وستشهد معارك التحرير » ، فقاطعه شجاع قائلاً : « هيهات يا أسد الدين قد علمت أنى لن أعيش حتى ذاك اليوم المجيد ، فهل لك يا سيدى أن تأخذ جِزادى (أدهم) فتحفظه عندك ، حتى يجيء يوم الجهاد فتركبه أنت إلى الميدان. أو تركبه لصالح الدين ابن أخيك فيكون لى فضل شهود ذلك اليوم ...

فقال أسد الدين والدموع تتحادر من عينيه : « حبا وكرامة يا شجاع سوف أركبه أنا بنفسى إن أحيانى الله حتى ذلك اليوم » .
فلاح السرور فى وجه شجاع حتى كأنه يهيم أن ينهض وهو يقول :
« الحمد لله ، الآن اطمأن قلبى عليك يا أدهم فسيربكك سيد الأبطال » .
ولكن سروره ما لبث أن غاض وحل مكانه الأسى وهو يقول :
« ولكن شاور يا أسد الدين ، لقد أردت أن أعيش لتطلقوا سراحه فإذا قضاء الله أسبق ! فهل لك يا سيدى فى معروف آخر تسديه إلى ؟ » .
— نعم يابنى ، اطلب ما تشاء ...

— إذا قضيتم عليه فلا تقتلوه حتى تستيويه عسى أن يتوب الله عليه ، فإنى أخشى ...

— ماذا تخشى يا بنى ؟

١ — أخشى يا سيدى ألا أراه فى الدار الأخرى أبدا ..

— سأفعل يا شجاع ، سأفعل ...

وخشى أسد الدين أن يغلبه النحيب فانسحب من جواره .

— وأنت يا أبا الفضل ؟

— نعم يا بنى ...

— أوصيك بسمية خيراً . إياك أن تغاضبها مرة أخرى .

— هى التى غاضبتنى يا شجاع ...

- ٣٠٢ -

— ساعها إذن ، فإنها صالحة مجاهدة ، أين هي ؟ وأين والدتي ؟

فخرج الثلاثة من عنده لتدخل أمه وزوجته .

ونظر شجاع إلى أمه فغامت عيناه بالدمع وحاش صدره كالمرجل وهو يقول : « ساعيني يا أماه فإنني تسببتُ اليوم ... » .

ولم تدعه زبيدة يتم كلمته إذ مالت بوجهها على وجهه فجعلت تقبله وهو يقبل وجهها ورأسها حتى اختلط دمعها بدمعه ، وهي تقول : « نفسي فداؤك يا بني ، ليس الذنب ذنبك » .

— خذى بالك من سمية فإنها وديعتي عندك .

— اطمئن يا بني الحبيب ...

— وأنت يا سمية أوصيك بأمرٍ خيراً ، فإنها خالتك ، وليس لها أحد فلا تتركها وحيدة خزينة .

فطفقت سمية تقبله وهي تقول : « سأفعل يا حبيبي ... سأفعل » وكانت سمية تغالب جزعها وتتجلد جهد ما تستطيع إلى أن سمعته يقول لها « كنت أريد يا حبيبتى أن أشهد مولد هذا الجنين الذى فى أحشائك ولكن ... » .

فحينئذ خانها جلدُها المنهوك فانفجرت تنشج وتنحب .

وامتدت يده الواهنة فأخذت تجول فى وجهها وتمسح دمعها كأنها تستدفئ بمحارته مما يسرى فيها من برودة الموت .

— كلا ، لا تبتسى يا سمية ، فإن أبا الفضل سيكون له أبا خيراً منى ... ماذا تريد أن نسمة يا سمية ؟

— كما تريد يا حبيبي ... سنسميه شجاع بن شجاع ..

— كلا يا سمية بل سمية .. سمية ضرغام بن شجاع ..

فقال زبيدة كالمنكرة : « ضرغام ! » .

- ٣٠٣ -

- أجل يا أماه .. هذا اسم حبيب إلى نفسي .. ولقبوه أسد الدين ..
أسد الدين ضرغام بن شجاع ..
- وإن جاء أنثى يا بنى ؟
- أنثى .. فليكن اسمها زبيدة بنت شجاع .
وكأنما أحس بكرب اشتد عليه فحفظت عيناه وتسارعت أنفاسه ،
فأخذ يردد الشهادتين ، ثم أجفل كأنما تذكر شيئا يريد أن يقوله :
- سمية !
- لييك يا حبيبي ...
- كلا لا تجيئي به أنثى يا سمية .. لا أريد أنثى ... أريد ولدا بطلا
يجاهد في سبيل الله !
وما أتم كلمته حتى لحقته غشية ، فهمت أمه وزوجته أن تنوحا
عليه ، لولا نفس خافت ما زال يتردد في صدره ، فحبسنا أنفاسهما
تتطلعان إليه في قلق بالغ .
وإذا هو يفتح عينيه ويتحرك حركة أشد مما في وسعه كأنما يريد أن
ينهض أو يجلس ، وإذا هو يرنو أمامه كأنه يرنو إلى شيء بعيد ..
ونظرت زبيدة وسمية إلى حيث نظر فما أبصرتا غير شفق المغيب !
وإذا صوته يهدير في سمعهما كأنه آت من عالم آخر .
انظروا ! انظروا ! ذاك ابني يقود جيش مصر ! أسد الدين ضرغام
يقود جيش التحرير .. الله أكبر .. انهزم جيش العدو .. وانتصر جيش
مصر .. انتصر العرب . وانتصر المسلمون .
وإذا هذه آخر كلمة قالها شجاع .

رقم الإيداع : ٨٥ / ٣٩١١

التوقيع الدولي : 7 - 0161 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

الشمس ١١٠٠ طرس

دار مصر للطباعة
مسجد جودة السحار وشركاه